

حول

التفسير الإسلامي للتاريخ

الطبعة الثالثة

محمد قطب

الناشر المجموعة الإعلامية

حول التفسير الإسلامي للتاريخ

محمد قطب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من سورة غافر

● أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ
قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ
﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم
مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ
ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

من سورة هود

● وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا
مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ
مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ

صدق الله العظيم

مقدمة

ليس التفسير الإسلامى للتاريخ قضية ثقافية ولا فكرية بحتة، ولكنه قضية تربوية كذلك.

وقد لا توجد فى الحقيقة قضية ثقافية أو فكرية منقطعة الصلة بقضايا التربية. فكل قضية تتعلق «بالإنسان» هى قضية تربوية فى النهاية، إذا اعتبرنا التربية هى فن تشكيل «الإنسان» على نمط معين، تحدده العقيدة أو المبدأ الذى يدين به مجتمع معين، أو جماعة معينة.

ولكن دراسة التاريخ بالذات هى من القضايا التربوية المباشرة، إذا وضعنا فى اعتبارنا أن التاريخ ليس مجرد سرد للأحداث التاريخية، إنما هو إلى جانب ذلك تفسير لتلك الأحداث، وتقويم لها. والتفسير والتقويم يشملان ذات القيم والمبادئ والأفكار التى تقوم عليها التربية وتسعى إلى تحقيقها. ومن ثم فصلته بها صلة مباشرة، بحيث نستطيع أن نقول مطمئنين إن درس التاريخ فى حقيقته درس فى التربية، وإن تفسير التاريخ أمر ذو أهمية بالغة فى تكوين الأمة التى يراد لها أن تتربى بدراسة التاريخ.

ومن ثم فإن التعرف على التفسير الإسلامى للتاريخ ليس نافلة بالنسبة للأمة المسلمة، بل هو من صميم احتياجاتها التى ينبغى أن تسعى لتوفيتها وتحقيقها. وهو بالذات من صميم اهتمامات الصحوة الإسلامية، إذ هو ركيزة من ركائزها فى التربية، كما أنه مقوم من المقومات الرئيسية لاسترداد الوعى الإسلامى، واسترداد الشخصية الإسلامية المفقودة فى ركام الغزو الفكرى الذى غشى الحياة الإسلامية فى العصر الحديث.

وقبل سنوات ليست طويلة كانت فكرة التفسير الإسلامى للتاريخ تقابل من قبل كثير من «المثقفين» بالإنكار الشديد الذى يصل إلى حد الاستهجان! وكان يقال: ما للإسلام والتاريخ؟! أتريدون أن تحشروا الإسلام فى كل شىء؟؟ إن التاريخ هو تسجيل الأحداث التاريخية، فهل يختلف التسجيل إذا كان المؤرخ مسلما أو غير مسلم؟

و«المثقف» الذى يقول هذه القولة شخص قد غفل عن حقيقة أساسية أشرنا إليها فى السطور السابقة، هى أن التاريخ ليس مجرد سرد للحوادث التاريخية، إنما هو إلى جانب ذلك تفسير لتلك الحوادث وتقويم لها. وأن التفسير والتقويم فى الحقيقة هما الجانب المهم فى دراسة التاريخ، الذى بدونه يصبح التاريخ مجموعة من الأقاصيص لا هدف لها ولا غاية.

وقد لا يختلف المؤرخون فى سرد الحوادث إذا اتحدت المصادر التى يرجعون إليها، وخلصت نياتهم فلم يتدخل الهوى فى إثبات بعض

الأمور وإسقاط بعضها الآخر[1]. . ولكن التفسير والتقويم يختلفان حتما من مؤرخ لمؤرخ حسب موقفه من قضايا «الإنسان»، بل حسب تصوره للإنسان ذاته: ما طبيعته؟ ماتكوينه؟ ماقدراته؟ مامدى فاعليته؟ ما دوره فى الأرض؟ ما السنن التى تحكم حياته؟ ما المعيار الذى يقوّم به إنجازه؟ ما موقفه من الضغوط المادية والاقتصادية والسياسية والنفسية الواقعة عليه؟ ما طبيعة الصراع الدائر فى الأرض؟ . . الخ . . . الخ.

وثمة شىء آخر وقع فيه ذلك «المثقف» الذى يقول تلك القولة، هى أنه أخذ التقديم الأوروبى للتاريخ على أنه هو التاريخ!! وهو الحقائق النهائية التى لا تقبل الجدل ولا تقبل المراجعة. . ومن ثم لم يعد يتصور أن هناك صورة أخرى يمكن أن يقدم بها التاريخ غير تلك الصورة!! بل رأى أن مجرد التفكير فى تقديم التاريخ على صورة أخرى وعلى قاعدة أخرى أمر مستنكر لأنه يخالف «حقائق العلم»!! هذا مع كون الواقع الغربى يشهد تفسيرين اثنين للتاريخ لا تفسيرًا واحدا ـ بصرف النظر مؤقتا عن مدى الفارق الجوهرى بين التفسيرين ـ أحدهما هو التفسير الغربى «الليبرالى» للتاريخ، والثانى هو التفسير المادى للتاريخ!! ولكن ذلك «المثقف» الذى صيغ صياغة غربية، قد ينظر إلى التفسير المادى للتاريخ على أنه بدعة مستحدثة قام بها ماركس وأتباعه، قد يكون فيها شىء من الحق لأنها أوروبية على أى حال! أما

---

1) وقليلا ما يحدث ذلك!

التفسير الإسلامى للتاريخ فهو فى نظره بدعة منكرة لا أساس لها من «البحث العلمى» على الإطلاق!! وحسبها نكارة أنها لم ترد فى أى مرجع أوروبى من المراجع «العلمية» المعتمدة التى استقى منها أفكاره وتصوراته!

ولاشك أن مثل هذا الإنكار الشديد لم يعد اليوم على صورته التى كانت من قبل، فقد أصبحت الفكرة مألوفة عند كثير من الناس بتأثير الصحوة الإسلامية التى قلنا فى غير هذا الكتاب إنها قدر الله الغالب، وإنها العودة إلى النبض الطبيعى لهذه الأمة، العودة التى لا تستغرب، ولايبحث لها عن أسباب، لأنها عودة إلى المجرى الطبيعى الذى سارت عليه أمور هذه الأمة مايقرب من ثلاثة عشر قرنا بلا انقطاع. إنما الذى كان يستغرب، ويبحث له عن أسباب هو الانحراف عن هذا المجرى خلال القرن الرابع عشر من حياة الأمة إلى مجرى مغاير لايتفق مع عقيدة الأمة ولا مقوماتها الرئيسية[1]

ولكننا - وإن خف الإنكار، أو اختفى من ألسنة بعض «المثقفين» استحياء منهم من الظهور بمظهر المتخلف عن مجرى الصحوة الإسلامية - مازلنا فى حاجة إلى دراسات مستفيضة للتفسير الإسلامى للتاريخ، حتى يتعرف الناس على حقائقه التفصيلية، بعد أن عرفوا شيئا عن عمومياته، وشيئا عن اتجاهه العام.

وهذا الكتيب لايمكن بطبيعة الحال أن يتسع لدراسة مستوعبة

---

١) انظر كتاب «واقعنا المعاصر» فصل «الصحوة الإسلامية».

للموضوع، إنما هو بالأحرى دعوة للمختصين لكى يقوموا بهذه الدراسة.

إنما قصاراه أن يكون إشارة إلى القضايا الرئيسية التى أحسب أن الدراسة المستوعبة ينبغى أن تتناولها بالبحث لكى تتم للتفسير الإسلامى مقوماته المتميزة، التى يتميز بها تميزا واضحا عن كلا التفسيرين الغربيين القائمين اليوم فى الساحة.

وبهذه المناسبة نقول إن التفسيرين الغربيين قد لايختلفان كثيرا فى الجوهر، فكلاهما فى الحقيقة تفسير «مادى» للتاريخ!! كلاهما يتناول من حياة الإنسان الجوانب الأقرب إلى عالم المادة وعالم الحس، ويهمل الإنسان الكلَّ الذى يشمل الجسد والروح؛ يشمل عالم الضرورة وعالم القيم الطليقة من قيد الضرورة.

لذلك لا نستغرب حين نجد كاتبا غربيا مثل «ول ديورانت» يتخذ موقف التفسير المادى للتاريخ فى قضايا «الدين الذى أخلى مكانه للعلم» و «المرأة التى استقلت اقتصاديا فتحررت من قيود الدين والأخلاق» و «العلاقات الجنسية الحرة بعد انقضاء العصر الزراعى والدخول فى العصر الصناعى المتطور»[1].. إلى آخر القضايا التى يثيرها فى الأصل التفسير المادى للتاريخ، ولكن الغربى «الليبرالى» يتقبلها لأنها لا تتعارض تعارضا جوهريا مع تصوراته عن «الإنسان»

(١) انظر كتابه «قصة الحضارة» وكتابه «مباهج الفلسفة» فى مواضع متعددة.

ودوافعه وطريقة استجابته للمؤثرات الواقعة عليه!

إن هناك عاملين رئيسيين يشكلان الفكر الغربى جملة، ويؤثران تأثيرا عميقا فيه، بوعى من أصحابه أو غير وعى، هما الداروينية من جهة، والنفور من الدين بسبب طغيان الكنيسة وتجبرها وحجرها على الفكر من جهة أخرى.[1]

هذان العاملان يؤثران فى الفكر الأوروبى كله - شرقيه وغربيه - بدرجات متفاوتة، فيجعلانه يميل إلى إسقاط الدين من الحساب عند الحديث عن «الإنسان»: حياته، أو فكره، أو تاريخه، ويجعلانه ينظر إلى الإنسان على أنه نهاية خط التطور الحيوانى، أى أنه يركز على قاعدته الحيوانية أكثر مما يركز على قاعدته الإنسانية الأصيلة.

وتفسير التاريخ الإنسانى الذى يقدمه شرق أوروبا أو غربها متأثر لا محالة بهذين العاملين - سواء وعى أصحابه ذلك وتعمدوه، أم كانوا على غير وعى منهم ولا تعمد - لأنهم حتى هذه اللحظة لا يريدون أن يصححوا قاعدة حياتهم ولا قاعدة تفكيرهم التى خربتها الكنيسة من جهة، والداروينية من جهة أخرى.

ومهما يكن من أمر أوروبا، ونظرتها إلى الدين ونظرتها إلى الإنسان، فالتفسير الإسلامى للتاريخ شيء قائم بذاته، لا علاقة له بالظروف الخاصة التى مرت بها أوروبا فحرفت نظرتها إلى كل أمور الحياة.

إنما يستمد التفسير الإسلامى للتاريخ من الإسلام: من المقررات الإسلامية عن الوجود كله، سواء الوجود الإلهى، أو الوجود

---

(١) انظر إن شئت كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» فصل «الدين والكنيسة».

الإنسـانى، أو الـوجـود المادى، وعلاقة الخالق بمخلوقاته، وعلاقة الخلق بخـالقهم، والسنن التى يجرى بها الله أمر البشر وأمر الكون المادى سواء.

هذه المقـررات ربـانية من جهة أن مصدرها هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن التطبيقات المبنية عليها بشرية، لأنها تعتمد على مدى فهم البشر لهذه المقررات، وطريقة استنباطهم لما يستنبطون منها من تفسيرات. أى أن ما نطلق عليه «التفسير الإسلامى للتاريخ» اجتهاد بشرى، يخطئ ويصيب، شأنه شأن اجتهاد البشر فى استنبـاط نظرية تربـوية، أو نظرية نفسية، أو نظرية اقتصادية، أو نظرية اجتماعية، من المقررات الثابتة الواردة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهى عرضة دائما للمناقشة والتصويب ككل فكر يصدر عن «الإنسان»، ولكنها تظل فى جملتها ذات خصائص مميزة، لأنها تدور فى فلك هذه المقررات الربانية ولا تخرج عنها ولا تصادمها، ومن ثم فهى أقـرب إلى الدقة وأقرب إلى الصواب من الاجتهادات البشرية غير المنضبـطة بهذه الضـوابط. التى نرى نماذج منهـا فى التفسيرات الأوروبية المعاصرة لقضايا الكون والحياة والإنسان.

●●●

يختلف التفسير الإسلامى للتاريخ عن كلا التفسيرين الغربيين فى نظرته المبدئية إلى «الإنسان»، ومن ثم يختلف عنهما فى القضايا التى تتعلق بذلك الإنسان، والتى تكوّن فى مجموعها تاريخه.

وليس الخلاف الجوهرى بطبيعة الحال هو الخلاف فى تحديد الوقائع

التاريخية. فهذه عرضة لأن يقع الخلاف عليها دائما حتى لو اتحدت مناهج المؤرخين واتجاهاتهم، مادام الكثير من مرويات التاريخ ليس قطعي الثبوت ولا قطعي الدلالة.

إنما الخلاف الرئيسي - حتى في حالة الاتفاق على الوقائع - هو في أمرين رئيسيين: تفسير الوقائع من ناحية، وتقويمها[1] من ناحية أخرى. التفسير يتناول الدوافع، والعوامل المؤثرة، وطريقة تأثير هذه العوامل في مجرى الحياة الإنسانية، والتقويم يتناول الحكم على الإنجاز البشري في أية مرحلة من مراحله بأنه خطأ أو صواب، منحرف أو مستقيم، رفيع أو هابط.

فحينما يقول التفسير المادي للتاريخ إن تاريخ الإنسان يبدأ من بحث الإنسان عن الطعام، وإن الأوضاع المادية والاقتصادية هي التي تشكل فكر الإنسان وعقائده وأنماط سلوكه، وتحدد المؤسسات التي تقوم عليها حياته، وأن هذا كله يجري من خلال «الطبقة» ومن خلال الصراع الطبقي، في أطوار حتمية لا اختيار للإنسان فيها ولا قبل له بالخروج من محتواها...

وحينما يقول التفسير الليبرالي للتاريخ إن حب الإنسان للاستمتاع بطيبات الحياة، ورغبته في السيطرة والاستحواذ، والصراع الدائر بين البشر على السيطرة والاستحواذ هو الذي يكتب التاريخ الإنساني، وينشأ عنه ما ينشأ من أفكار وعقائد وأنماط سلوك ومؤسسات، من

---

١) يستخدم بعض الكتاب كلمة «تقييم» بدلا من «تقويم» في معنى الحكم على الشيء لبيان قيمته، ويستخدمون كلمة «تقويم» فقط بمعنى إزالة العوج. والحقيقة أن كلا الفعلين وارد في الأصل.

خلال الفرد، أو من خلال الوجود الفردي في المجتمع . .

فإن التفسير الإسلامي للتاريخ يقرر أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر من الله، وبحسب سنن معينة يجري الله بها قدره في الحياة الدنيا. والتاريخ من جهة أخرى هو سعي الإنسان لتحقيق ذاته كلها، لا البحث عن الطعام فحسب، ولا المتاع والسيطرة والاستحواذ فحسب، إنما تحقيق كل ما يشتمل عليه الإنسان من طاقات وقدرات، وتطلعات وأشواق، إلى جانب الضرورات القاهرة والرغبات القريبة. . وهو تاريخ الفرد والجماعة في ذات الوقت من خلال تشابكهما الذي لاينتهي، وتدافعهما الذي لايقف عند حد.

وبهذا يكون التفسير الإسلامي هو الأوسع والأشمل، ويكون من ثم هو الأقرب إلى الصواب.

كذلك في قضية التقويم.

فحينما يقول التفسير المادي للتاريخ إن مبرر وجود أي شيء في حياة الإنسان هو وجوده ذاته! لأن وجود كل شيء يتم بموجب الحتمية التاريخية والحتمية المادية، لا يسبقها، ولايتأخر عنها، ولايخالفها، ومن ثم لايحكم على شيء بأنه خطأ أو صواب، أو منحرف أو مستقيم، إنما وجوده في طوره التاريخي وطوره المادي والاقتصادي هو الشيء الوحيد الممكن، ومن ثم فهو الصواب عندئذ بصرف النظر عما فيه من عدل أو ظلم، ولكن وجوده بعد طوره التاريخي والمادي والاقتصادي هو الخطأ الذي ينبغي تقويمه، بصرف النظر عن أي «قيمة» من القيم،

لأن القيم لا ثبات لها، إنما هى دائما انعكاس للوضع المادى والاقتصادى.

وحينما يقول التفسير الليبرالى للتاريخ من جانبه إن مبرر وجود أى شىء فى حياة الإنسان هو وجوده ذاته! لأن الإنسان هو المرجع، والإنسان هكذا! محكوم أبدا بضروراته، خاضع لها، فالجبرية النفسية هى التى تحكمه، ومن ثم لايحكم على شىء من أحداث التاريخ بأنه خطأ أو صواب، أو منحرف أو مستقيم، إنما ينظر إليه على أنه واقع، ويؤخذ على أنه واقع! فيتقبل بخيره وشره على أنه أمر لا محيص عنه، وليس فى الإمكان أن يقع غيره.. فتضيع القيم كلها، ويضيع معها «الإنسان»..

فإن التفسير الإسلامى يقول إن هناك غاية ربانية من خلق الإنسان هى أن يكون خليفة فى الأرض:

«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة»[1]

وإن هناك شرطا ربانيا للاستخلاف:

«فإما يأتينكم منى هدى، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» [2]

ومن ثم فإن أعمال الإنسان كلها لها معيار ربانى توزن به، بحسب تحقيقها لهدف الوجود الإنسانى وشرطه أو عدم تحقيقها له، ومن ثم

---

(١) سورة البقرة [٣١]

(٢) سورة البقرة [٣٨-٣٩]

يحكم عليها دائما فى أى وضع من الأوضاع بأنها خطأ أو صواب، منحرفة أو مستقيمة. . ولا تكون قط خارجة عن ذلك التقويم بحجة من الحجج، ذلك أن المعايير الربانية التى تستخدم فى التقويم، منظور فيها إلى كيان الإنسان كله، بما يشتمل عليه من طاقات وقدرات، وضرورات وأشواق، وأن التكاليف الربانية ـ التى هى مناط الحكم بالخطأ والصواب، والاستقامة والانحراف ـ منظور فيها إلى القدرة البشرية، وما منح الإنسان من وعى وإرادة وفاعلية:

«لايكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت»(١)

وبذلك كله يصبح للوجود الإنسانى معناه، وللتاريخ الإنسانى معناه. . وهو معنى فى الحقيقة لاينقطع بانقطاع الحياة الدنيا، إنما يمتد إلى يوم البعث والجزاء:

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون؟»(٢)

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا» (٣)

«أيحسب الإنسان أن يترك سدى؟ ألم يك نطفة من منى يمنى؟ ثم كان علقة فخلق فسوى؟ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى؟ أليس

---

(١) سورة البقرة [٢٨٦]

(٢) سورة المؤمنون [١١٥]

(٣) سورة ص [٢٧]

ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟» (١)

●●●

التفسير الإسلامى للتاريخ فى الحقيقة هو المقابل للتفسير الجاهلى للتاريخ، سواء منه التفسير المادى، أو التفسير الليبرالى ، الذي يسقط من حسابه الله واليوم الآخر، ويقتطع من حياة الإنسان فترة يدرسها بعيدا عن الله ، بينما هى فى الحقيقة غير منقطعة عن الله لا فى واقعها الحاضر، ولا فى منشئها الذى خرجت منه ، ولا فى مصيرها الذى تئول إليه . . ومن ثم تختل بين يديه كل القيم والمعايير، ويصبح تفسيرا ناقصا لايقدر على التفسير . .

وأشد مايعجز التفسير الجاهلى للتاريخ عن تفسيره هو الإسلام!

كيف ظهر؟ كيف غير من حياة الناس ما غير؟ كيف أنشأ مجتمعا جديدا كل الجدة فى قيمه ومفاهيمه واهتماماته وإنجازاته؟ كيف امتد بهذه السرعة الخاطفة فشمل هذه المساحة الواسعة من الأرض ، وهذه الألوف المؤلفة من القلوب؟ كيف اقام العدل الربانى واقعا مشهودا فى الأرض؟ كيف قضى بهذه السرعة على الشرك والخرافة من حياة الناس ورفعهم إلى عبادة الله الحق؟ كيف منح المستعبدين وجودا إنسانيا متحررا ، وكيف أطلق العقول المستعبدة ترتاد الكون لتعرف الحق ، وتتعلم ، وتعلم ؟؟؟

كل محاولة لتفسير هذه الظاهرة تسقط من حسابها قدر الله ومشيئته ، وتفسر الأمر من زاويته البشرية وحدها لا تفسر الحقيقة ، إذ الحقيقة أنه

---

(١) سورة القيامة [٣٦ - ٤٠]

وحى من عند الله ، ورسالة أرسل بها رسول، فعلت فعلها فى نفوس البشر حين استجابوا لها هذه الاستجابة الفذة بقدر من الله .

وكل محاولة لتفسيرها على أساس الحتمية التاريخية أو الحتمية المادية لا تفسر شيئا على الإطلاق . . فإن شيئا لم يتغير فى الجزيرة العربية ـ ولا فى الدنيا كلها يومئذ ـ يمكن أن يفسر كل ماجاء به الإسلام من إزالة القداسة عن البشر جميعا حكامهم ومحكوميهم، ونزع حق التشريع منهم ورده إلى الله ، . ومن تحرير الناس من عبودية بعضهم لبعض برد العبودية كلها لله ، ومن تحرير المرأة ورد إنسانيتها المسلوبة إليها دون طلب منها ولا استقلال اقتصادى يؤدى إلى التحرر، ومن وضع مبدإ مسؤولية الحاكم عن كل فرد فى الدولة، ومبدإ التكافل فى المجتمع، ومبدإ التحاكم إلى شريعة واحدة للأغنياء والفقراء، ليست من صنع الأغنياء ولا من صنع الفقراء . . ومبدإ . . ومبدإ . . ومبدإ . . مما أتى به الإسلام غير مسبوق، ولم تعرف البشرية بعضه إلا بعد قرون!

إنما الذى يفسر هذه الظاهرة بسهولة هو التفسير الإسلامى للتاريخ! لأنه يفسر أحوال البشر جميعا فى رفعتهم وهبوطهم، وإقبالهم وإدبارهم، وإيمانهم وكفرهم ، واستقامتهم وانحرافهم، بحسب ما بين الله فى كتابه المنزل، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما يدخل فى حسابه عالم الغيب وعالم الشهادة سواء .

●●●

ويحتفل التفسير الإسلامى للتاريخ احتفالا خاصا بفترات الهدى فى الحياة البشرية ـ وبخاصة فترة الرسالة الخاتمة ـ بقدر مايغفل التفسير

الجاهلى عن عمد هذه الفترات.

يحتفل بها لأنها تمثل الإنسان فى أرفع حالاته، وأكثر حالاته استقامة مع هدف وجوده وشرط استخلافه، ومن ثم فهى أروع إنجازاته فى الأرض.

أما الجاهليات ـ وما أكثرها فى التاريخ ـ فإن التفسير الإسلامى للتاريخ يسجلها كما هى فى واقعها، لاينقص شيئا من إنجازاتها المادية، ولا إنجازاتها العلمية، ولا إنجازاتها الإدارية، ولا إنجازاتها الحربية.. ولكنه يسجلها على أنها جاهليات.. وتلك حقيقتها فى ميزان الله، بكل إنجازاتها الأرضية التى لا تبتغى بها وجه الله، ولا تلتزم فيها بما أنزل الله:

«أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ كانوا أشد منهم قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون. ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون»[1].

فكونهم أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرها غيرهم ليس هو الذى يرفعهم فى ميزان الله مادام مقرونا بتكذيب الرسل وعدم التصديق بآيات الله. وهم جاهليون مهما أثاروا الأرض ومهما عمروها، حتى يؤمنوا بالله وحده، ويحكموا شريعته وحدها، وعندئذ فقط تزول عنهم صفة الجاهلية حين يدخلون فى حكم الله:

---

١) سورة الروم [٩ ـ ١٠]

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون»؟[1]

●●●

من أجل ذلك لا يقسم التفسير الإسلامى للتاريخ الأمم تقسيما مبدئيا إلى أمم متقدمة وأمم متخلفة بحسب الإنجاز المادى والعلمى، ولا إلى أمم قوية وأمم ضعيفة بحسب الإنجاز الحربى والسياسى، إنما يقسمها مبدئيا إلى فريقين رئيسين: أمم كافرة وأمم مؤمنة، بحسب التقسيم الربانى:

«هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن»[2]

ثم تجىء بعد ذلك كل التقسيمات الأخرى، من تقدم وتخلف بحسب الإنجاز المادى والعلمى، وقوة وضعف بحسب الإنجاز الحربى والسياسى.. الخ.

وكلها داخلة فى الحساب، ولكن مع مراعاة أمرين رئيسين:

الأول: أن القيمة الأولى والكبرى فى ميزان الله - وهو الميزان الذى يزن به التفسير الإسلامى للتاريخ - هى للإيمان والكفر، قبل كل معيار آخر.

والثانى: أن الإيمان الصحيح - بحسب المفهوم الإسلامى الصحيح -[3] يستتبع حتما أن تسعى الأمة إلى حيازة كل وسائل القوة والتمكن، المتعلقة بالإنجاز المادى والعلمى، والحربى والسياسى..

---

(١) سورة المائدة [٥٠]

(٢) سورة التغابن [٢]

(٣) انظر مفهوم لا إله إلا الله ومفهوم العبادة من كتاب مفاهيم ينبغى أن تصحح.

إلخ، وإلا فهى مقصرة فى دينها ذاته. فليس الوضع الصحيح للأمور أن يكون الإيمان بديلا من وسائل القوة ولا أن تكون وسائل القوة بديلا من الإيمان. إنما تكون الأمة فى وضعها الأمثل حين تكون مؤمنة قوية فى ذات الوقت، لا مؤمنة ضعيفة، ولا قوية كافرة، فكلاهما اختلال لا يرضى به الله.

ومن الممكن - فى التاريخ - أن توجد أمة مؤمنة فى دور التكوين لم تستكمل بعد كل أدوات القوة والتمكن. فهذا ظرف خاص لايقاس به وضعها النهائى، إنما يقاس وضعها النهائى حين تتاح لها الفرصة الزمنية اللازمة لاستكمال التكوين. ولكن حتى فى مثل هذه الحالة - التى كانت عليها الأمة الإسلامية مثلا فى سنواتها الأولى - فالمقياس هو المقياس: الإيمان أولا، ثم بقية المعايير بعد ذلك. والذى يحسم هذه القضية هو المقارنة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم، والجيل المعاصر الذى يملأ وجه الأرض.. جيل بلغ القمة فى عالم القيم - المستمدة من الإيمان الصحيح - مع أدنى حد من الإنجازات المادية عرف فى التاريخ، وجيل بلغ القمة فى الإنجاز المادى والعلمى والتقنى، مع أدنى حد من القيم عرف فى التاريخ.. فأى الجيلين هو الذى حقق حقيقة «الإنسان»، وأى الجيلين هو الذى تصبو البشرية إلى مثله!

وعلى أى حال فإن الإنجاز المادي متاح «للإنسان» عامة بقدر مايجتهد فى طلبه، ولكن العبرة بما يملأ قلب هذا الإنسان.

فأما إن كان مؤمنا فإنتاجه هو الحضارة . .

وأما إن كان كافرا فقصاراه أن ينشىء «حضارة جاهلية» إن صح التعبير. حضارة لا تحقق هدف الوجود الإنسانى تحقيقا كاملا، وليست كذلك مقبولة عند الله . .

●●●

ولقد قصدت بهذا الكتيب أن يكون مدخلا لدراسة التفسير الإسلامى للتاريخ، وأن يكون فى الوقت ذاته دعوة للمؤرخين المسلمين أن يعيدوا كتابة التاريخ البشرى من زاوية الرصد الإسلامية المتميزة، لإزالة التناقض القائم اليوم بين عقيدة الأمة وبين دراستها للتاريخ، وهو تناقض يحدث ازدواجا فى الشخصية يؤدى فى النهاية - كما هو معلوم فى علم النفس - إلى اختلال الشخصية وفقدان ترابطها.

ففى درس الدين يتعلم الدارس أن الشرك والوثنية تخلف فى الفكر، وتخلف فى الإنسانية، وانحراف عن الهدف الذى خلق الإنسان من أجله، وهو عبادة الله وحده دون شريك:

«وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»(١)

وفى درس التاريخ يجد الدارس إشادة ضخمة بالوثنية الرومانية، والوثنية الإغريقية، والوثنية الفرعونية، والوثنية العربية، على أنها حضارات ملأت ساحة التاريخ بالأمجاد، ورفعت الإنسان إلى قمم من الفكر والإنسانية لا تعدلها قمم.

---

(١) سورة الذاريات ٥٦

ومن هنا ينشأ ازدواج الشخصية، وازدواج النظرة إلى الأمور، ويتحير الدارس: أيهما يصدق؟ أى المعيارين هو الصحيح؟ وقد يتابع التفكير، وقد يكف عنه وينشغل بقضايا أخرى.. ولكن يظل ازدواج الرؤية قائما فى نفسه، وقد ينتهى به كما انتهى عند كثير من «المثقفين» إلى أن نظرة الدين خاصة بالدين، ولا علاقة لها بالعلم، ولا علاقة لها بواقع الحياة، وأن العلم والحياة الواقعية يحكمهما معيار آخر.. والمعياران لايلتقيان! وهذا هو ذات الموقف الذى وقفه «المثقف» الأوروبى من قبل، وانتهى به إلى هجر الدين، وإخراجه نهائيا من الساحة، أو حصره فى نطاق المشاعر الوجدانية التى تذهب جفاء ولا تمكث فى الأرض!

وإذا كان هذا قد وقع فى دين الكنيسة بسبب المواقف الخاطئة التى وقفتها الكنيسة الأوروبية، فهو غير جائز فى دين الله.. و المزية الكبرى للمسلم هى توحد اتجاهه، وتوحد فكره، وتوحد أنماط سلوكه العقلى والعملى والروحى، لأن مرجعها جميعا هو المنهج الربانى الشامل، الذى يشمل جوانب الحياة كلها ويربطها برباط واحد.

وحين يصحح منهاج دراسة التاريخ فلن تتغير الوقائع التاريخية ـ كما سبق أن بينا ـ فالمسلم أحرص الناس على ذكر الحق وتحريه، وإنما سيتغير التفسير، ويتغير التقويم، فتصبح كلها منبثقة من أصل واحد، ومتجهة وجهة واحدة، ويعود للدارس المسلم توحد شخصيته وترابطها، الذى فقده بتأثير الغزو الفكرى خلال قرنه الأخير.

●●●

وقد تناولت بالدراسة الموجزة فى هذا البحث مجموعة من المقومات التى يقوم عليها التفسير الإسلامى للتاريخ:

■ ما الإنسان؟ ما طبيعته؟ ماتكوينه؟ ما الذى تفرد به عن غيره من الكائنات؟ مادوره فى الأرض؟

■ ما العلاقة بين قدر الله الذى له الفاعلية فى الكون والحياة والإنسان، وبين فاعلية الإنسان فى الأرض؟

■ ما السنن الربانية التى تحكم الحياة البشرية؟

■ ما موقف الإنسان من الضغوط المادية والاقتصادية والنفسية التى يتعرض لها؟

■ ما طبيعة الصراعات القائمة فى الأرض ولمن تكون الغلبة فيها؟

■ ما المعيار الذى يقوّم به الإنجاز البشرى؟

■ ما العلاقة بين دور الفرد ودور المجتمع؟ وأيهما الذى يكتب التاريخ؟

■ ما الثابت وما المتطور فى الحياة البشرية؟

فإذا أدى البحث مهمته فى بيان موقف التفسير الإسلامى من هذه القضايا، وفى دعوة المختصين أن يقوموا بالدراسة المستوعبة المطلوبة، فهذا حسبى منه، وبالله التوفيق.

محمد قطب

ما الإنسان؟

لعل أهم ما يبحث فيه التفسير الإسلامى للتاريخ - بل أى تفسير للتاريخ - هو «الإنسان»: ما طبيعته ؟ ما تكوينه ؟ ما مميزاته ؟ ما دوره على الأرض ؟

بل إن هذه هى نقطة البدء فى أية دراسة ذات مغزى لتاريخ الإنسان. ذلك أننا إذا لم نتعرف على حقيقة الإنسان فلن يتسنى لنا أن نفهم تاريخه، ولن نعرف كيف نفسر تصرفاته، ولا كيف نحكم عليها. وهذا التفسير، وهذا الحكم هو العمل الحقيقى الذى يهدف إليه المؤرخ من كتابة التاريخ، وإلا فسيظل عمله مجرد سرد لمجموعة من الأقاصيص لا رابط بينها، ولا هدف لها إلا تزجية الفراغ!

إن التاريخ يدرس للعبرة .. ليضيف إلى تجارب الإنسان الذاتية تجارب غيره من البشر خلال القرون. ومن خلال رؤية حركة البشر عبر التاريخ، ومحاولة تفسيرها والحكم عليها، يشعر الإنسان أنه صار أكثر خبرة، وأوسع قاعدة، وأعمق فكرا، وأكثر أصالة، وأوضح انتباها مما كان من قبل وهو محصور فى تجربته الذاتية الفردية .

والإنسان - بعد - هو الكائن الوحيد الذى له تاريخ ، والذى تنمو مداركه وتتسع من خلال دراسته للتاريخ .

إن الكائنات الأخرى لا « تعقل » تجربتها على الأرض ، وبالتالى لا ينقلها جيل منها إلى جيل نقلا واعيا تتسع به مداركها فى مواجهة ما يعترضها من الظروف. بالإضافة إلى حقيقة أخرى، هى أن تجربة تلك الكائنات - إن صح أن لها تجربة على الإطلاق ، إذ التجربة قرينة الوعى - هى هى ، أو تكاد تكون هى هى خلال القرون المتعاقبة ، ليس فيها جديد يؤبه له ، وينتفع فيه بعبرة التاريخ .

فالحمار الأول لا يفترق كثيرا عن الحمار الأخير ، لا فى طعامه ، ولا عاداته ، ولا درجة ذكائه ، ولا فى تصرفاته المختلفة ، فضلا عن كون الفروق الفردية بين أفراد نوعه ضئيلة إلى أكبر حد ، وفضلا عن كون تصرفاته تمليها الغريزة ولا مجال فيها للاختيار. وإن بدا لنا أحيانا أنه يختار، فخياراته - المحدودة النطاق - محكومة بالغريزة فى النهاية ، ليس فيها إرادة حقيقية ولا وعى .

ومن ثم فإن الحمار ليس له تاريخ! ومثله بقية الكائنات حتى القردة العليا التى يقول دارون إن واحدا منها هو الجد الأعلى للإنسان[1] ..

أما الإنسان فهو من مبدأ حياته كائن له تاريخ .

---

١) هو الشمبانزى أو الغوريلا كما تقول الداروينية ! (أى مع استبعاد العائلتين الباقيتين وهم الجيبون والأورانج أوتانج) والداروينيون يرجحون أن يكون هو الشمبانزى وإن كانوا لا يستبعدون الغوريلا بصورة قطعية. وهناك بطبيعة الحال نظريات علمية أخرى ترفض الغرض الداروينى من أساسه .

ليس ذلـك فقط لأنـه دون تاريخـه بالفعـل بصـورة من صور التدوين . . بالرسم على جدران الكهوف أو بالكتابة على الجدران أو الأوراق، ولكن قبل ذلك، لأنه الكائن ذو الوعى الذى يعقل تجربته على الأرض، ويضيف إليها على الدوام من خلال احتكاكه بالكون المادي، أو احتكـاكـه مع غيره من أبناء جنسه. ومن خلال تراكم التجربة تنشأ له مواقف جديدة، فيتكون له تاريخ . .

ومن جهـة أخـرى فإن الإنسـان هو الكـائن الـوحيد الـذى له «إنتاج» . . سواء كان إنتاجه فى عالم المادة، أو فى عالم الفكر، أو فى عالم الروح . . ومن خلال تنوع إنتاجه وتعاقبه يتكون له تاريخ . .

●●●

نقطة البدء إذن هى الإجابة على هذا السؤال : ما الإنسان؟

وعلى بساطة السؤال، وكونه يبدو لأول وهلة بديهية لا تحتاج إلى سؤال ، فإن شيئا كثيرا يتوقف على إجابته، وإن كثيرا من الاختلاف القـائم فى الأرض بين فكر وفكر، ومنهج ومنهج - فى مجالات الحياة المتعددة - قد نشأ أصلا من الاختلاف على إجابة السؤال .

ومهـما يكن من أمر هذا الخلاف فى ميادين المعرفة المتنوعة، وفى ميادين التـطبيق الواقعى لثمار المعرفة، فربما كان على أشد صوره فى مجال الـرؤية التاريخية، حيث تتأثر الرؤية تأثرا كبيرا ومباشرا بمعرفة حقيقة الإنسان، أو بما يتخيله المؤرخ من هذه الحقيقة، سواء كانت تصوراته عنها واضحة فى ذهنه، حاضرة فى وعيه، وهو يقوم بعملية

التفسير وعملية التقويم ، أم كانت مستترة فى باطن فكره ، توجه أفكاره من حيث لا يشعر فى أثناء عملية التفسير وعملية التقويم .

ولنلق شيئا من الضوء على القضية . .

فحين يكون الإنسان فى التصور الداروينى الذى يحكم فكر أوروبا اليوم هو نهاية خط التطور الحيوانى ، وصل إلى وضعه الحالى دون قصد من أحد ولا غاية.. وإنما بتأثير الظروف المادية البحتة التى جعلته ينتصب على قدميه ليقطف ثمار الأشجار، فاعتمد رأسه على جذعه بدلا من أن يكون معلقا فى الهواء متدليا من عنقه . فأتيح لمخه أن ينمو، فتعلم الكلام وصار يفكر. ومن ثم صار إنسانا . .

حين يكون هذا هو التصور عن الإنسان، فهل يعقل أن يكون لحياة ذلك الإنسان غاية؟! وهل يعقل أن تكون الأخلاق جزءا من تكوينه الذاتى؟ أو جزءا من مقومات حياته؟ وهل يكون الحكم الأخلاقى هو المرجع فى الرؤية التاريخية التى تتابع وجوده على الأرض، وتفسر مراحل ذلك الوجود؟!

بل هل يتصور أن يكون هذا المخلوق التزام نحو خالقه ـ أيا كان تصورهم لخالقه(1) ـ وهل يرد على الخاطر أن يرسل الله ـ إن اعترفوا به ـ رسلا لهدايته ، وكتبا لتعليمه، وأن يبعثه ذات يوم ليحاسبه على ما عمل فى أثناء حياته؟!

1ـ يقول دارون (الطبيعة تخلق كل شىء ولا حد لقدرتها على الخلق)
Nature creates everything and there is no limit to its creativity. ويقول الماديون إن المادة أزلية أبدية متطورة وإن الإنسان هو أعلى تطور للمادة.

أم يكون تفسير الدين ـ وهو واقع تاريخى لا سبيل إلى إنكاره ـ أنه شيء صنعه الإنسان لنفسه ـ بتأثير عوامل معينة مرت به فى حياته ـ ويكون تفسير الأخلاق ـ وهى كذلك واقع تاريخى لا سبيل إلى إنكاره ـ أنها أمور تواضع الناس عليها لتيسير وجودهم المشترك على الأرض لحماية بعضهم من عدوان بعض . . وفى الحالين يكون الدين والأخلاق صناعة بشرية بحتة؛ يشكلها الإنسان حسب ظروفه وحاجاته ، وهى رهن مشيئته، إذا شاء أبقاها. وإذا شاء استغنى عنها ، وقد عنّ له فى آخر طور من أطواره على الأرض، أن يلغى الدين جملة، وأن يعدل الأخلاق جملة، وذلك من حقه ولا تثريب عليه فيه؟!

وحين يكون الإنسان فى التصور الأوروبى المعاصر إلها متصرفا ـ وهذا من التناقضات الواقعية القائمة فى الجاهلية المعاصرة، حيث تراه مرة بعين الداروينية حيوانا ممتدا فى نسبه إلى واحد من القردة العليا الأربع[1]، وتراه تارة أخرى على ضوء منجزاته العلمية والتكنولوجية إلها متصرفا يصنع نفسه كما يشاء، ويصنع حياته كما يشاء[2] ـ حين يكون هذا هو التصور فهل يعقل أن يحاسب الإله على عمل من أعماله فيقال له إن هذا خطأ وهذا صواب ؟ أم إن أعماله كلها تصبح صوابا وتصبح مبررة لمجرد صدورها عنه؟!

(١) هى الشمبانزى والغوريلا والجيبون والأورانج أو تانج كما سبقت الإشارة فى حاشية سابقة.

(٢) أنظر كتاب (الإنسان يصنع نفسه) و(الإنسان يقف وحده) Man makes himself, Man stands alone.

وهل يعقل أن يخضع هذا الإله لإله ؟ أو أن يستجيب لأوامره ونواهيه ؟ أم يكون المنطقى مع هذا التصور أن يقال إن الإله الذى عبده الإنسان ردحا من الزمن، كان شيئا من تصوراته الخاصة بسبب من ملابسات خاصة مرت به، وإنه الآن ـ بعد أن تعلم وسيطر على البيئة ـ قد تحرر من ذلك الوهم الذى عرقل تقدمه فترة من الزمن وأصبح طليقا يصنع بنفسه ما يشاء ـ بعد أن أخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل فى عصر العجز و الجهل على عاتق الله ، ومن ثم أصبح هو الله ! [١] ـ ويكون المنطقى أن يقال إن الأخلاق أمر نسبى دائم التغير، فهى فى كل مرحلة من مراحل حياة الإنسان تصاغ صياغة تناسب أحواله وظروفه وملابساته، ثم تتغير وتتغير وتتغير مع كل تغير جديد يصيب أحواله وملابساته، حتى يصل إلى مرحلة يفتت فيها كل أخلاقياته القديمة ويلقى بها فى البحر، ويصطنع أخلاقا جديدة ليس فيها أخلاق ؟!

من هنا يتضح لنا كيف يتسق التفسير المادى للتاريخ بقسميه (الشرقى والغربى) مع تصور القوم للإنسان. ويتضح لنا كيف أن الانحرافات التى نحسبها جزئية فى ذلك التفسير ليست جزئية فى الحقيقة، ولا هى عارضة بحيث يمكن التجاوز عنها، إنما هى أصيلة فيه، نابعة من نقطة مركزية فى بنيانه الأساسى، هى نظرته المبدئية للإنسان.

---

(١) هذه أقوال جوليان هكسلى فى كتابه (الإنسان فى العالم الحديث)

وحين نعيد قراءة التاريخ الذى تقدمه لنا أوروبا على ضوء هذه الحقيقة لا نعجب حين نرى الإشادة الضخمة بالجاهليات الفرعونية والرومانية والإغريقية وغيرها . . ونرى فى الوقت ذاته «التعتيم» على فترات الهدى فى حياة البشرية .

إنه أمر لا يأتى جزافا! ولا هو هوى شخصى لهذا المؤرخ أو ذاك . . إنما هو اتجاه عام له منشؤه فى حياتهم ، وله تفسيره فى أفكارهم ومعتقداتهم . . نابع كله من نظرتهم الأساسية للإنسان .

حقيقة إن النفور من الدين الذى أورثتهم إياه الكنيسة الأوروبية بفظاظتها وحماقاتها له تأثيره الخفى أو الواعى فى إشادتهم بتلك الجاهليات الوثنية ـ مكايدة للكنيسة وإلهها الذى استعبدت باسمه الناس!ـ وله تأثيره كذلك فى التعتيم على فترات الهدى، والتقليل من شأنها، ومحاولة إسقاطها من التاريخ، لذات الهدف وهو مكايدة الكنيسة، ومحاولة الإيهام بأن المعنى الرئيسى الذى كانت الكنيسة تقف من أجله ـ وهو الدين ـ أمر لا وزن له فى تاريخ البشرية !

كل ذلك حقيقة، وهو يكفى وحده لتفسير مسلكهم فى التفسير التاريخى . . ولكن حين تضاف إليه الحقيقة الأخرى الخاصة بتصورهم لحقيقة الإنسان، وهى فى تصورى أهم وآكد ، يصبح الأمر واضحا تماما، ولا يصبح شىء مما يقولونه فى تاريخهم موضع العجب أو الاستغراب. ويصبح موقف «الطيبين» منا، الذين يعتقدون أن المنهج الغربى منهج «علمى» سليم فى أصوله ولكن به «بعض» الانحرافات

التى يمكن أن نتلافاها نحن أو نتجاوز عنها . . يصبح هذا الموقف فى حاجة إلى تعديل جذرى على ضوء هذه الحقيقة وتلك .

●●●

لابد أن نبدأ من هذه النقطة المبدئية . . ما الإنسان ؟

وحين ننطلق من هذه النقطة نقع مع المنهج الغربى فى إشكال آخر إذ أنه : من أين نستمد معرفتنا بالإنسان ؟

يقول المنهج «العلمى» الغربى إنه لا يجوز لنا أن ننطلق من مقررات مسبقة فى بحثنا عن أية حقيقة من الحقائق - بما فى ذلك حقيقة الإنسان - إنما نبدأ من مشاهدتنا المحسوسة ، من تجربتنا «المعملية» ، من دراستنا «الموضوعية» ، ثم ننتهى إلى النتائج التى تؤدى بنا إليها هذه التجربة المعملية الموضوعية .

وحين نتعامل مع المادة يكون هذا المنهج صحيحا تماما . ولنذكر أن أوروبا قد تعلمت هذا المنهج أول مرة من المسلمين فى الأندلس والشمال الإفريقى وغيرهما من أماكن العلم . حيث كان المسلمون هم الذين أنشأوا المنهج التجريبى فى البحث العلمى أول مرة ، بعد إذ كان العلم على يد الإغريق نظريا فلسفيا لا يتجه إلى التجريب .

وحين نتعامل مع الحيوان يكون هذا المنهج صحيحا كذلك . . وذلك لأن المادة والحيوان يستجيبان بصورة واحدة تقريبا فى الظروف المتماثلة ، بحيث نستطيع أن نستخرج من التجارب المتعددة قانونا نركن إليه فى تفسير سلوك المادة وسلوك الحيوان . وإن كان العلم ذاته هو الذى قرر فى الفترة الأخيرة أنه لا حتمية فى ذلك القانون حتى مع المادة

كما كان العلماء يتوهمون من قبل وهم يتحدثون عن «حتمية القوانين الطبيعية»، وإنما هى احتمالات بعضها أقوى من بعض فالاحتمال (أ) أقوى من الاحتمال (ب) والاحتمال (ب) أقوى من الاحتمال (ج) وهكذا .

وإذا كان قانون الاحتمالات قد أصبح فى نظر العلماء هو الأليق فى التعامل مع المادة، فهو بالنسبة للحيوان أوجب، لأن الحيوان لا يستجيب بصورة واحدة تماما فى كل حالة . وإن كانت دائرة الاختلاف محدودة فى النهاية بحدود قريبة، بحيث نستطيع أن نطمئن إلى التجربة العملية فى استنباط القانون الذى يفسر سلوك الحيوان .

أما الإنسان فهو يختلف اختلافا جذريا عن كل من المادة والحيوان .

واستمع إلى هذا الرجل الداروينى الملحد وهو يتحدث عن «تفرد الإنسان» .

يقول «جوليان هكسلى » فى كتاب «الإنسان فى العالم الحديث» :

« وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا، ولكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا، وفى حالات كثيرة لا مثيل له ، ولا يزال تحليل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام .

«وأولى خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصويرى، وإذا كنت تفضل استخدام عبارات موضوعية فقل : استخدام الكلام الواضح . .

«ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية فى الإنسان نتائج كثيرة» وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة .

«ومن أهم نتائج تزايد التقاليد - أو إذا شئت - من أهم مظاهره الحقيقية ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات . .

«وإن التقاليد والعدد هي الخصائص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين الكائنات الحية . . وهذه السيادة البيولوجية في الوقت الحاضر خاصية من خواص الإنسان الفذة . . ولم يتكاثر الإنسان فحسب، بل تطور، ومد نفوذه، وزاد من تنوع سبله في الحياة . .

«ولقد أدى الكلام والتقاليد والعدد إلى كثير من خواص الإنسان الأخرى التي لا مثيل لها بين المخلوقات الأخرى . . ومعظمها واضح معروف . ولذلك أرى عدم التعرض لها حتى أنتهي من التحدث عن الخواص غير المعروفة كثيراً، لأن الجنس البشري - كنوع - فريد في صفاته البيولوجية الخالصة . ولم تلق تلك الصفات من العناية ما تستحق، سواء من وجهة نظر علم الحيوان، أو من وجهة نظر علم الاجتماع .

« . . فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره . .

«وإن خاصية الإنسان الجوهرية ككائن حي مسيطر هي التفكير المعنوي . .

«يجب ألا يعزب عن بالنا أن الفرق بين الإنسان والحيوان في العقل أعظم بكثير مما يظن عادة . .

« . . ولهذه الزيادة في المرونة نتائج أخرى سيكولوجية يتناساها رجال الفلسفة العقلية .

«. . وهذه الخواص التى امتاز بها الإنسان - والتى يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية - تنشأ من خاصة أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية :

[«الأولى : قدرته على التفكير الخاص والعام .

[«الثانية : التوحيد النسبى لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان .

«الثالثة : وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة (يقصد الجماعة الدينية) وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها .

«. . ولكن لا يكفى هنا أن نحصى بعض أوجه النشاط . . ففى الحقيقة أن معظم أوجه نشاط الإنسان وخواصه نتائج ثانوية لخواصه الأصلية . ولذلك فهى مثلها فذة من الناحية البيولوجية .

«ثم إن التخاطب والألعاب المنظمة والتعليم والعمل بأجر وفلاحة البساتين والمسرح والضمير والواجب والخطيئة والذلة والرذيلة والندم ، كلها نتائج ثانوية (لخصائصه الأصلية) . والصعوبة فى الواقع هى إيجاد نشاط للإنسان لا يكون فريدا . بل إن الصفات الأساسية البيولوجية مثل الأكل والنوم والاختلاط الجنسى زينها الإنسان بكل المحسنات الفريدة

«وقد يكون لتفرد الإنسان نتائج ثانوية أخرى لم تستغل بعد . . وبذلك قد يكون الإنسان فريدا فى أحواله أكثر مما نظن الآن . . »(١)

---

(١) ترجمة حسن خطاب ، ومراجعة الدكتور عبدالحليم منتصر من منشورات الألف كتاب ، وزارة التعليم العالى القاهرة . مقتطفات ص ١ إلى ص ٣٦

فإذا كان هذا هو قول الداروينية الحديثة Neo Darwinism في تفرد الإنسان ، فالذين لا يؤمنون بالداروينية أصلا في تفسيرها للإنسان أولى أن يثقوا أن الإنسان كائن متفرد ، لا تنطبق عليه قوانين المادة ولا قوانين الحيوان . فكيف نتعرف على حقيقته ؟

هل يصلح معه أن نذهب به إلى المعمل بغير مقررات مسبقة ثم ننتظر نتيجة التجربة لنستخرج منها قانونا نفسر به سلوكه وفكره وحياته وتاريخه ؟!

إنه لابد لنا في الحقيقة أن نقف عدة وقفات ..

نقف أولا لنسأل: ما القدر الذى يمكن للمعمل أن يتناوله من حياة الإنسان وفكره وسلوكه ؟

يستطيع المعمل ـ مع شيء من التجاوز ـ أن يقيس درجة ذكائه، وأن يقيس درجة تحمله للجهد، وأن يقيس معامل التعب عنده، وأن يقيس تأثير التعذيب البدني والنفسي والعصبي في تغيير أفكاره [1] وأن يقيس ردود الفعل العكسية لبعض المؤثرات . . ولكن كيف يقيس المعمل قيمه ؟ وأخلاقه؟ وأفكاره المجردة؟ وأشواقه الطليقة من قيود الضرورة؟

وأيها هو «الإنسان» في حقيقته ؟

فلنسلم مبدئيا أن الإنسان هو مجموع هذه وتلك . . ولكن أي الجوانب منه هي التي تشكل الجوهر الإنساني الحقيقي الذى له الثقل

---

(1) هذه الناحية بالذات تهتم بها الأنظمة التي تستخدم الوسائل الوحشية في القضاء على معارضيها انظر كتاب الحرب النفسية لصلاح نصر)

فى الإنتاج الحضارى الذى تفرد به الإنسان بين جميع الكائنات ؟

ونقف ثانيا لنسأل : هل العينة التى نذهب بها إلى المعمل عينة صادقة الدلالة، أى أنها تمثل النوع البشرى تمثيلا صحيحا بحيث نستطيع أن نعمم النتائج التى نأخذها منها على النوع كله، ونستنبط منها قوانين صحيحة تفسر سلوك النوع البشرى كله؟!

ألسنا بحكم الأمر الواقع نأخذ العينة من جيلنا الذى نعيش فيه؟ فهل هذا الجيل المتكس المنحرف المليئة حياته بالمشكلات النفسية والعصبية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخمر والمخدرات والجريمة، الواقع تحت تأثير ألوان الفساد المبثوثة فيه - عمدا أو عن غير عمد - من جنون الجنس وجنون السينما وجنون التلفزيون وجنون الفيديو وجنون الكرة وجنون الأزياء وجنون الزينة، وغيرها وغيرها من ألوان الجنون. . هل هذا الجيل بأوضاعه تلك عينة سليمة من الوجهة العلمية، أى ممثلة للنوع بحيث تصلح لتعميم الأحكام منها على النوع كله ؟

فهنا حتى الآن قضيتان: القدر الذى يستطيع المعمل قياسه من الإنسان؛ ثم العينة التى نقدمها للمعمل ودرجة تمثيلها للنوع البشرى فى جميع أعصاره .

فإذا أضفنا إلى ذلك قضية ثالثة هى تفسير التجربة التى نجريها فى المعمل، وهل هو تفسير موضوعى حقيقى أم تفسير شخصى . . إذ لو كان تفسيرا موضوعيا ما جاز أن يختلف فيه مفسر عن مفسر آخر، ولكن الذى نراه فى عالم الواقع، أن علم النفس مدارس مختلفة لا مدرسة

واحدة: كل مدرسة تقدم تفسيرا مختلفا عن التفسير الآخر.

إذا جمعنا هذه القضايا - وهى ليست كل ما يثار فى هذا المجال (١) - فهل يصلح فى التعرف على حقيقة الإنسان أن نذهب به إلى المعمل بغير مقررات مسبقة، ثم ننتظر نتيجة التجربة لنستخرج منها قانونا نفسر به سلوكه وفكره وحياته وتاريخه ؟!

ولكننا إذا لم نعتمد على المعمل فى إعطائنا صورة حقيقية عن الإنسان، ولم نعتمد على النظريات المشبوهة التى تفسر الإنسان عن طريق قوانين المادة أو عن طريق قوانين الحيوان (٢) فهل لدينا مصدر آخر يمكن أن نلجأ إليه لإعطائنا هذه الصورة؟

فأما التفسير الإسلامى للتاريخ فيستمد من المصدر الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . من الوحى الربانى .

●●●

إذا رجعنا إلى كتاب الله نستمد منه الحقيقة، نجد حشدا من المعلومات عن الإنسان.

نجد بادئ ذى بدء معلومات عن تكوين الإنسان :

« إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » (٣).

فأما قبضة الطين فهى الجسد البشرى الذى يحتوى على ذات

---

١) أرجو أن تتاح لى فرصة لعرض هذه القضايا على نطاق أوسع فى بحث آخر.

٢) أى التفسير المادى بشقيه الشرقى والغربى

٣) سورة ص [٧١ - ٧٢]

العناصر التى يتكون منها طين الأرض.[1]) وأما نفخة الروح فلا نعلم شيئا عن كنهها (كما أننا لا نعلم شيئا عن كنه العناصر الطينية فى الحقيقة، وإن كنا نعلم شيئا عن ظاهرها) ولكننا نرى آثارها واضحة فى قبضة الطين. فعن طريقها منح الإنسان كيانه «الإنسانى» المتفرد، الذى تميز به عن المادة وعن الحيوان.

عن طريقها اكتسب الإنسان الوعى:

«والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون» [2]

وكلمة «الفؤاد» و«القلب» تأتى فى القرآن بمعنى العقل، وبمعنى البصيرة:

«أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» [3]

وتأتى بمعنى الوعى والفقه:

«لهم قلوب لايفقهون بها، ولهم أعين لايبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها. أولئك كالأنعام بل هم أضل. أولئك هم الغافلون» [4]

---

(١) لم تكن هذه الحقيقة العلمية معروفة عند الناس وقت نزول القرآن. ولكنها صارت الآن من العلم الشائع الذى يدرسه طلاب المدارس والجامعات

(٢) سورة النحل [٧٨]

(٣) سورة الحج [٤٦]

(٤) سورة الأعراف [١٧٩]

ومن هذا الوعى عرف أن له طريقين لا طريقا واحدا كالمادة وكالحيوان، وعرف أن له القدرة على اختيار أحد الطريقين:

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها» (١)

«وهديناه النجدين» (٢)

«إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا» (٣)

ومن ثم صارت له حاسة خلقية يميز بها بين الطريقين، وإرادة يختار بها أحد الطريقين. ولو كان ذا طريق واحد كالمادة أو الحيوان، لم يكن للأخلاق معنى بالنسبة إليه. ولو لم تكن له القدرة على التمييز بين الطريقين، والإرادة التى يقرر بها سلوك أحد الطريقين، لم يكن كذلك للأخلاق معنى بالنسبة إليه، وإنما صارت له الحاسة الخلقية، وصارت لأعماله قيمة أخلاقية ملازمة لها من هذا التكوين الفطرى الذى فطره الخالق عليه، والذى يستطيع به أن يميز بين طريقين ويختار أحد الطريقين.

وإلى هنا نلحظ فارقا أساسيا بين التصور الإسلامى للإنسان والتصور الغربى المادى الحيوانى، يترتب عليه فارق أساسى فى تفسير التاريخ.

فالعنصر الأخلاقى ملازم للإنسان بطبيعة تكوينه، وليس مفروضا

---

(١) سورة الشمس [٧ - ١٠]

(٢) سورة البلد [١٠]

(٣) سورة الإنسان [٣]

عليه من خارج نفسه كما تذهب المذاهب الشاردة عن الله، الشاردة من ثم عن رؤية الحقيقة فى الكون والحياة والإنسان.

ولم يكن الدين هو الذى ألزم الإنسان بالأخلاق. إنما الدين يحدد معايير أخلاقية معينة يحدد بها ما هو خير وما هو شر، وهى المعايير الصحيحة لأنها من عند الله اللطيف الخبير، الذى يعلم حقيقة الإنسان الذى خلقه، ويعلم ما يصلحه وما يصلح له:

«ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟» (١)

أما الحاسة الخلقية ذاتها، أى التمييز بين طريقين، ووسم أحد الطريقين بأنه خير، ووسم الآخر بأنه شر، فهو من صميم الفطرة الإنسانية، ونتيجة ملازمة لكون الإنسان ذا طريقين لا طريق واحد.

وكل محاولة لإسقاط القيمة الخلقية عن الأعمال الإنسانية مما تصنعه الجاهلية المعاصرة حين تقول إن السياسة لا علاقة لها بالأخلاق، وإن الاقتصاد لا علاقة له بالأخلاق، وإن العلم لا علاقة له بالأخلاق، وإن الفن لا علاقة له بالأخلاق، وإن علاقات الجنسين لا علاقة لها بالأخلاق. كل محاولة من هذا النوع هى اتجاه غير علمى لأنه يخالف أصل الفطرة، فضلا عن آثاره المدمرة فى الحياة الإنسانية، التى نلحظها بوضوح فى الجاهلية المعاصرة.

نعم تبقى قضية أخرى متصلة بالأخلاق هى قضية الثبات والتغير. وقد أفردنا فصلا فى البحث لهذه القضية. ولكننا نشير هنا

---

(١) سورة الملك [١٤]

إشارة سريعة إلى النقطة الرئيسية فى القضية وهى أن الذى يتغير من حياة الإنسان هو الأشكال التى يمارس بها دوافعه الأصيلة، وليست الدوافع فى ذاتها. والأخلاق متعلقة بأصل الدوافع، ومن ثم لا تتغير فى جوهرها. فالعدوان على الآخرين وسلبهم حقوقهم ظلم لايتبدل جوهره مهما تبدلت صوره، وهو شر فى جميع أحواله، ومن ثم يكون الإقطاع ظلما، والرأسمالية ظلما، والشيوعية ظلما لأن كلا منها يمارس لونا من العدوان على حقوق الآخرين، وتكون كلها شرا فى جميع أحوالها لا فى حالة دون حالة. والعدوان على الأعراض ظلم، وهو شر فى جميع أحواله، ومن ثم تكون الفوضى الأخلاقية شرا فى جميع أحوالها لا فى حالة دون حالة. وإفساد أخلاق المجتمع، بنشر التفاهة والانحلال فيه، وجعله يركن إلى لذائذ الدنيا وينسى الآخرة، ويقعد عن الجهاد فى سبيل إحقاق الحق ورفع الظلم عن المظلومين شر فى جميع أحواله، سواء تولاه أفراد معينون عن طريق مباشر، أو تولته الدولة بوسائل إعلامها المختلفة.. وهكذا.. وهكذا.. وهكذا فى جميع الأمور.

والذى يقرر ما هو الظلم وما هو العدل، وما هو الخير، ما هو الشر، هو الله سبحانه وتعالى، وليس أهواء البشر. فالبشر حيثما حكموا بغير الرجوع إلى الهدى الربانى كانت لهم أهواء يحكمونها بوعى منهم أو بغير وعى. وحسبنا هنا شهادة التفسير المادى للتاريخ نأخذها لأنها

صحيحة فى ذاتها [1] ولأنها شهادة شاهد من أهلها، حيث يقول ذلك التفسير: إن الذى يملك هو الذى يحكم، وحين يحكم فإنه يحكم لصالح نفسه (أو لصالح طبقته) فيظلم الآخرين. وهو أمر متكرر فى التاريخ حيثما كان التشريع فى أيدى البشر، ولم يكن البشر خاضعين لشرع الله.

●●●

ونعود إلى «الإنسان» فى التصور الإسلامى.

إن النفخة العلوية من روح الله قد منحته كيانا روحيا متلبسا بالكيان الجسدى. ومن ثم فإنه كيان مادى روحى فى ذات الوقت. لايكون فى أية لحظة من لحظاته جسدا خالصا ولا روحا خالصة. ويفترق بذلك افتراقا حاسما واضحا عن عالم الحيوان وعن عالم الملائكة. فلا هو جسد محكوم بغرائزه مثل الحيوان، ولا هو روح نورانية شفيفة مثل الملك. وإن كان يهبط إلى مستوى الحيوان أحيانا حين يضل، وعندئذ يكون أضل من الحيوان:

«أولئك كالأنعام، بل هم أضل. أولئك هم الغافلون»[2]

ويرتفع إلى مستوى الملك أحيانا حين يسمو بروحه إلى أعلى آفاقه،

---

١) قلنا فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» إن قولنا إن التفسير المادى للتاريخ قائم على قاعدة خاطئة ليس معناه أن كل محتوياته خاطئة، ولا معناه أنه لا يفسر شيئا على الإطلاق من الحياة البشرية، فهو يفسر نطاق الضرورة فى الحياة البشرية ويفسر كثيرا من أمور الناس فى جاهليتهم، ولكنه يعجز عن تفسير فترات الهدى عجزا كاملا، وكذلك يعجز عن تفسير ما فوق نطاق الضرورة حتى فى الجاهليات ذاتها؛ راجع ص ٣٨٥ـ ٣٩١ من كتاب «مذاهب فكرية».

٢) سورة الأعراف [١٧٩]

وعندئذ يكون ـ فى رأى بعض العلماء ـ أفضل من الملك، لأنه يطيع بإرادته ويغالب طبيعته، بينما الملك مفطور على العبادة والطاعة:

«يسبحون الليل والنهار لايفترون» (١)

«لايعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون» (٢)

وقد نشأ عن تكوينه بهذه الصورة ألا تنفصل مادياته عن روحانياته، ولا حسياته عن معنوياته. وألا يكون خضوعه لضروراته قهرا على طريقة الحيوان، وإنما يكون له دائما قدر من الإرادة فى تكييف استجابته للضغوط الواقعة عليه. (٣)

وتلك نقطة ثانية يفترق فيها التفسير الإسلامى للتاريخ عن التفسير المادى بكلٍّ من شقيه، الشرقى والغربى، ويقع الاختلاف فى عدد من المجالات فى وقت واحد:

المجال الأول: أن التفسير الإسلامى للتاريخ يرفض رفضا مبدئيا مبدأ الحتميات، سواء الحتمية التاريخية أو الحتمية المادية أو الحتمية الاقتصادية. ويعتبر ذلك المبدأ زراية حادة بالإنسان، الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق:

«ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا»(٤)

---

(١) سورة الأنبياء [٢٠]

(٢) سورة التحريم [٦]

(٣) سنتكلم عن هذه النقطة فى فصل تال

(٤) سورة الإسراء [٧٠]

فالمقتضى المباشر لمبدأ الحتمية هو إلغاء إيجابية الإنسان وفاعليته، وجعله آلة تاريخية لتنفيذ قدر خارج عن إرادته، لا قبل له بتغييره أو الوقوف في طريقه.

والحتمية الوحيدة في التفسير الإسلامي هي حتمية قدر الله ومشيئته. ولكن هذه الحتمية لا تلغي إيجابية الإنسان وفاعليته، إنما هي حتمية النتائج حين توجد الأسباب. أما الأسباب فهي مجال الاختيار البشري ومجال الابتلاء، لأنه هكذا اقتضت المشيئة الإلهية: أن يكون الإنسان ذا حرية في نطاق معين، يختار فيه موقفه، ويتحمل النتائج المترتبة على هذا الاختيار، في الدنيا والآخرة سواء.(١)

والمجال الثاني: أن التفسير الإسلامي للتاريخ يرفض رفضاً مبدئيا أن يكون تاريخ الإنسان هو تاريخ ضروراته فحسب، أي في الحقيقة تاريخ خضوعه للضرورات، وهو لب التفسير المادي للتاريخ، الذي يعطي الأوضاع المادية والاقتصادية قوة القهر من ناحية، ومن ناحية أخرى يجعل الأفكار والعقائد والمؤسسات والقيم كلها انعكاسا للأوضاع المادية والاقتصادية لا تسبقها، ولا تتأخر عنها، ولا تخرج عن محتواها.

بينما يعتبر التفسير الإسلامي أن كل الإنتاج الذي قام به الإنسان في تاريخه، سواء الإنتاج المادي، أو الفكري، أو الروحي، أو الفني، أو الأخلاقي، هو تعبير عن عنصر أصيل في الكيان الإنساني، له

---

(١) سنتكلم عن هذه النقطة في فصل مستقل.

أصالته الذاتية بصرف النظر عن اشتباكه بغيره من العناصر الأصيلة في ذلك الكيان، والتشابك لاينفى الأصالة، ولايجعل شيئا بالضرورة انعكاسا لشيء آخر.

إن الرغبة الجنسية أصيلة في كيان الإنسان. وهي في ذات الوقت مشتبكة - عند الممارسة الواقعية - بأمور اجتماعية، وأمور اقتصادية، وأمور جمالية، وأمور تشريعية، وأمور .... وأمور ....

ماذا لو قلنا إن الرغبة الجنسية مسألة اقتصادية؟! هل نكون عقلاء؟!

وحين نقول إن الرغبة الجنسية عنصر أصيل في الكيان الإنساني، قائم بذاته، وليس انعكاسا لأى عنصر آخر في ذلك الكيان، فهل ينفى ذلك أنه في صورته التطبيقية مشتبك بالأمور الاجتماعية، والاقتصادية، والجمالية، والاعتقادية، وأنه لا يأخذ صورته التطبيقية إلا من خلال هذه الاشتباكات؟!

إن القضية فيما أحسب واضحة تماما، لاتحتاج إلى كل مماحكات التفسير المادى للتاريخ! فهذا التشابك أمر واقع وملحوظ، وهو هو مزية ذلك المخلوق المتفرد، الناشئة من تكوينه الأصيل من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله مترابطتين متشابكتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى ولا تستقل عنها.

وحين يقضى الإنسان دافع الجنس - مثلا - في صورته «البيولوجية» (الحيوية) البحتة، غير مشتبك في حسه بأى قضية اجتماعية ولا فكرية

ولا وجدانية ولا جمالية ولا اعتقادية ولا تشريعية - إن أمكن هذا أصلا[1] - يكون قد تخلى عن إنسانيته تماما، وصار حيوانا بحتا، وصار عندئذ أضل من الحيوان، لأن الحيوان يقوم بما يقوم به من عمل على هدى غريزته، وهى مهتدية من عند خالقها:

«الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى»[2]

فهو لا يعطل شيئا من كيانه. أما الإنسان الذى أعطى وسيلة هداه على نسق أعلى من الحيوان ثم يعطلها، ويعمل على مستوى الغريزة، فهو يشبه الحيوان فى صورة العمل، ولكنه أضل منه فى الحقيقة، لأنه عطل وسيلة الهدى التى منحها الله إياه.

تلك هى القضية التى يتجاهلها التفسير المادى للتاريخ حين يأخذ التشابك - الذى هو مزية الإنسان على الحيوان - وسيلة لهدم قيم أصيلة فى الكيان البشرى، وجعلها أمورا تابعة لغيرها، ومجرد انعكاس لها. ثم يرتكب ذلك التفسير خطيئة أخرى حين يجعل المادة أو الأوضاع الاقتصادية هى الأصل الوحيد الثابت، وجميع الأمور الأخرى - على إطلاقها - مجرد انعكاس للأوضاع المادية والاقتصادية.

فخطيئته الأولى علمية، لأنها تقصير فى الرؤية العلمية للكيان الإنسانى، بتفسير التشابك القائم بين عناصره تفسيرا يلغى أصالتها لمجرد أنها لا تأخذ صورتها التطبيقية إلا من خلال تشابكها بعضها

---

١) يقول الأولاد والبنات فى غرب أوروبا وأمريكا إن الجنس مسألة بيولوجية لا علاقة لها بالأخلاق! وهذا انعكاس جاهل فكرى يقع فيه هذا الجيل... ومع ذلك فإن ممارستهم للجنس لا يمكن أن تكون بيولوجية بحتة، إنما هى متشربة بهذا «الفكر» وإن كان فكرا منتكسا غير إنسانى!

٢) سورة طه [٥٠]

ببعض (وقد رأينا قصور تلك الرؤية فى مثال الجنس الذى ضربناه للتوضيح).

والخطيئة الثانية تحكمية. لأنها اختيار تحكمى لعنصر معين من بين عناصر التكوين الإنسانى - الأصيلة كلها على مستوى واحد من الأصالة - والزعم بأنه هو وحده الأصيل والباقى كله تبع له، بغير دليل حقيقى. وهو تحكم لايقل تهافتا ولا بعدا عن التدليل الصحيح عن التحكم الذى قام به فرويد حين زعم بأن الجنس وحده هو العنصر الأصيل فى الكيان الإنسانى وبقية الأمور كلها تبع له!

والتفسير الإسلامى للتاريخ لا ينفى أصالة العنصر المادى والاقتصادى فى حياة الناس، أفرادا وأمما وجماعات، وأنه عنصر تقوم عليه حياة الناس:

«ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما» (١)

أى التى تقوم حياتكم عليها.

ولكنه لايقول كما يقول التفسير المادى إنه هو العنصر الوحيد الذى تقوم الحياة البشرية عليه.

فالإيمان بالله واليوم الآخر عنصر تقوم الحياة البشرية عليه:

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط» (٢)

---

(١) سورة النساء [٥]

(٢) سورة الحديد [٢٥]

والزواج والأسرة عنصر تقوم الحياة البشرية عليه:

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة»(١).

والجمال عنصر تقوم الحياة البشرية عليه:

«والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون»(٢)

وهكذا كل مكونات النفس الإنسانية والحياة البشرية، كلها أصيلة على مستوى واحد من الأصالة، وكلها متشابكة لا تأخذ إحداها صورتها التطبيقية إلا من خلال تشابكها بالمكونات الأخرى، دون أن يقدح هذا في أصالتها.

من هنا يقرر التفسير الإسلامى أن تاريخ الإنسان هو تسجيل لمحاولة الإنسان أن يحقق كيانه كله، بكل مقوماته وكل مكوناته، سواء منها توجهه إلى خالقه بالعبادة (أى قضية الدين) أو توجهه إلى إقامة مجتمع فاضل (أى قضية الأخلاق والقيم) أو توجهه للتعرف على الكون المادى (أى قضية العلم) أو توجهه لاستثمار معرفته فى تحسين أحواله المعيشية وترقيتها (أى قضية الحضارة المادية وعمارة الأرض) أو توجهه نحو الكون والحياة بالحس الجمالى (أى قضية الفن) أو توجهه بفكره لمعرفة السنن التى تسير الحياة البشرية ومحاولة استخراج دلالاتها (أى قضية الفكر)..

---

(١) سورة الروم [٢١]

(٢) سورة النحل [٥ ـ ٦]

كلها توجّهات أصيلة، صادرة صدورا مباشرا عن الكيان الإنسانى الشامل المترابط، وليس أحدها انعكاسا لغيره من توجهات ذلك الكيان، وإن كانت كلها تتأثر ببعضها البعض وتؤثر بعضها فى بعض، بدرجات مختلفة، تعتمد على مساحة الدافع فى النفس، ونوعية الفرد أو الجماعة أو الجيل موضع الدراسة، والظروف المادية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التى تواجهه، مما يوجد الاختلاف بين فرد وفرد، وجماعة وجماعة، وجيل وجيل . .

وهنا قد يبدو أن التفسير الليبرالى يقترب من التفسير الإسلامى، لأنه يعطى اعتبارا لهذا المعنى أكبر مما يعطى التفسير المادى الشرقى للمعنى ذاته، إذ يحصر هذا الأخير اهتمامه فى الجانب المادى والاقتصادى ويجعله هو الأصيل وحده، وبقية الدوافع والإنجازات تبعا له.

ولكن الحقيقة أن الاختلاف عميق الجذور بين التفسير الإسلامى والتفسير الليبرالى كما هو عميق الجذور بينه وبين التفسير المادى الشرقى . . فمع أن التفسير الليبرالى أفسح صدرا بدوافع الإنسان فى مجموعها وأكثر اعترافا بأصالتها الذاتية، إلا أن المساحة التى يعطيها للعنصر الدينى والعنصر الأخلاقى فى الإنجاز البشرى أضأل بكثير من حقيقتها ـ وخاصة بالنسبة لفترات الهدى التى يهملها هذا التفسير إهمالا مقصودا كما أشرنا من قبل ـ ثم إن التقويم الأخلاقى لتاريخ الإنسان منعدم فيه أو شبه منعدم، تأثرا بالضلالتين المتناقضتين اللتين يصدر عنهما هذا التفسير، وهما نظرته إلى الإنسان مرة بعين الداروينية

التى تراه حيوانا متطورا ولا زيادة، ونظرته إليه مرة بعين الإنجاز العلمى والتكنولوجى على أنه إله لا يسأل عما يفعل، ولايحاسب على تصرفاته! وفى الحالين يسقط الميزان الأخلاقى من الحساب. وذلك فضلا عن نظرته الى الدين على أنه عنصر «تاريخى» أدى مهمته فى حياة الإنسان فى فترة من فترات تاريخه الماضية واستنفد اليوم أغراضه، ونظرته إلى الأخلاق على أنها قيم متغيرة لا قداسة لها ولا ثبات! وهما أمران يشترك فيهما التفسير المادى الليبرالى والتفسير المادى الشرقى بلا افتراق!

والمجال الثالث: أن الانسان إذ يتحرك بمجموعه فى واقع الأرض، فلا يمكن فى الحقيقة فصل دافع من دوافعه عن دافع آخر، والحديث عنه كأنه كان يتحرك فى التاريخ قائما بذاته غير متشابك مع غيره من الدوافع.

وتلك قضية أخرى مختلفة عن القضية التى تحدثنا عنها فى المجال السابق وإن كانت متداخلة معها، فهناك كنا نركز على شمول الكيان البشرى لعدة دوافع كلها أصيلة على ذات الدرجة من الأصالة وإن اختلفت مساحاتها بعضها عن بعض. وهنا نركز على تشابك تلك الدوافع بحيث يستحيل أن يعمل أحدها مستقلا عن بقية الدوافع، على الرغم من أصالة كل منها على حدة.

وأهمية هذه القضية تتضح حين نرى التفسير الليبرالى بصفة خاصة يتحدث عن «الحياة الفنية» لأمة من الأمم كأنها شىء قائم بذاته، وعن «المنجزات الحربية» كأنها شىء قائم بذاته، وعن «المنجزات

الحضـارية» كأنها شيء قائم بذاته، وعن «العادات والتقاليد» كأنها شيء قائم بذاته، لكل منها مقياسه الخاص الذى لايدخل فيه اعتبار لشيء غيره، على أساس أن «الفن للفن» و«الحياة للحياة» و«الغلبة للغلبة» و«العلم للعلم».. إلى آخر تلك الشعارات الجاهلية المجافية لحقيقة الواقع الإنسانى المتشابك المترابط، الذى لايوجد فيه جانب يعمل مستقلا عن بقية الجوانب!

والحقيقة التى يراها التفسير الإسلامى أن هناك وحدة تشمل هذا كله فى المنبع وفى المصب. فى المنبع عند صدورها من النفس البشرية المتشابكة المترابطة بطبيعة تكوينها، وفى المصب عند تأثيرها فى المجتمع البشرى تأثيرا متجمعا متشابكا وإن جاءت التأثيرات فرادى فى ظاهر الأمر.

فالموقف الفنى لفرد أو لأمة لايمكن فصله - مثلا - عن الموقف الاعتقادى ولا الموقف الأخلاقى، فضلا عن التأثيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمادية التى تؤثر بوعى أو بغير وعى فى الفرد أو الأمة صاحبة الإنتاج الفنى.

ولقد تقول الجاهلية المعاصرة - من بين ما تقول - إن «الفن للفن» لا علاقة له بالدين ولا علاقة له بالأخلاق، إنما يقاس بمقياس الإبداع الفنى وحده..

ولكن الجاهلية المعاصرة تنسى - وهى تقول ذلك - أن هذا نفسه «موقف» معين من الدين والأخلاق، لا علاقة له بمقاييس الإبداع الفنى الخالصة! موقف يبعد الدين ويبعد الأخلاق عمدا عن أن يحكما

واقع الحياة! وأن الفن الذى تنتجه هذه الجاهلية هو التعبير عن هذا الموقف الاعتقادى والأخلاقى، وإن زعمت ـ أو توهمت ـ أنها فى لحظة الفن تنقطع عن كل اعتبار آخر!

كذلك النشاط الاقتصادى الذى تزعم الجاهلية المعاصرة أنه قائم بذاته، ولا دخل فيه للدين ولا الأخلاق! إنه تعبير عن ذات الموقف الذى يبعد الدين والأخلاق عن عمد عن أن يحكما واقع الحياة، وليس استقلالا حقيقيا للنشاط الاقتصادى عن الدين والأخلاق و «الموقف» الإنسانى عامة.

فكون الرأسمالية تسعى للربح أولا وقبل كل شىء، وتتخذ كل الوسائل التى تحقق لها الربح بصرف النظر عن كونها حلالا أو حراما.. خيرا أم شرا.. فتتخذ الربا والاحتكار، والافتئات على حقوق العامل الأجير، وتلجأ إلى الاستعمار، وتنشر الترف فى المجتمع، وتستخدم وسائل الإعلام والإعلان التى تملكها وتسيطر عليها لترويج بضائعها التافهة التى تجنى من ورائها الربح الأكبر كأدوات الزينة وما شابهها.. كل ذلك صحيح. ولكنه ليس قانونا اقتصاديا قائما بذاته كما تزعم ـ أو تتوهم ـ الجاهلية المعاصرة. إنما هو «موقف» معين من الحياة والقيم والدين والأخلاق واليوم الآخر يقفه الإنسان دائما حين يبتعد عن الله ويستحب الحياة الدنيا على الآخرة:

«إن الإنسان لربه لكنود. وإنه على ذلك لشهيد. وإنه لحب الخير لشديد»[1]

---

١) سورة العاديات [٦ ـ ٨]

«كلا! بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة» [1]

«كلا! إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى» [2]

وهو هو الموقف - من حيث الجوهر - الذى وقفه الإنسان الجاهلى من قبل فى عصر الرق وعصر الإقطاع. لم يتغير منه إلا الصور المستحدثة لحب الخير، والصور المناسبة لها من الطغيان.

ويتغير هذا كله حين يتغير موقف الإنسان من الله واليوم الآخر، فتتغير قيم الناس ونظرتهم إلى الأمور، وينشئون قتصادا آخر يقوم على قاعدة أخرى مختلفة.

فليست الرأسمالية إذن قانونا اقتصاديا ولا حالة اقتصادية قائمة بذاتها، تفسر بمقاييس اقتصادية مستقلة، إنما هى موقف إنسانى، يفسر من داخل النفس الإنسانية، ويوزن بالموازين الإنسانية الشاملة التى يمكن تلخيصها فى قوله تعالى:

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها» [3]

وقوله تعالى:

«والعصر، إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» [4]

---

(١) سورة القيامة [٢٠ - ٢١]

(٢) سورة العلق [٦ - ٧]

(٣) سورة الشمس [٧ - ١٠]

(٤) سورة العصر

أما التفسير المفكك الذى يقدمه التفسير الليبرالى للنشاط الإنسانى فهو يعطى نتائجه الخاطئة فى عرض التاريخ، ليس فقط فى إسقاط العنصر الأخلاقى من ذلك العرض، وتبرير مظالم الجاهليات التاريخية وآثامها على أساس المقاييس الذاتية لكل شىء على حدته، وعلى أساس «الغلبة من أجل الغلبة» و«الإمبراطورية من أجل الإمبراطورية» مثلما أنه «الفن من أجل الفن» و «الحياة من أجل الحياة»! إنما يبدو الخطأ كذلك فى تفكيك الحياة البشرية وإخلائها من مضمون حقيقى شامل مترابط، كأنه لا فرق بين حياة الإنسان وحياة السائمة التى تقوم بنشاط حياتها جرعة إثر جرعة بغير ترابط: مرة تجرى ومرة تقف، مرة تأكل ومرة تنسل، مرة تموت حتف أنفها ومرة تقع من شاهق فتهلك.. ولا فرق فى النهاية بين هذا وذاك!

ويفقد التاريخ من ثم دلالاته.. ويكون أقصى «رؤيته» أن تكون هناك قوانين تحكم الحياة البشرية، ولكنها قوانين آلية أو كالآلية.. طفولة ففتوة فشباب فكهولة فشيخوخة ففناء[1]. والبشر مجرد آلات فى يد القدر التاريخى:

«نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر»! [2]

---

(١) هذه نظرية توينبى، وقد تأثر فيها تأثرا واضحا بكلام ابن خلدون فى «المقدمة» ولكن ابن خلدون كان يتكلم عن «الشعب» العربى بصفة خاصة ولم يتكلم عن «أمة» العقيدة. وتوينبى لايفرق فى «قانونه» بين أمة العقيدة وغيرها من الأمم. وفى ظننا أن أمة العقيدة لها وضع خاص. وسنشير إلى ذلك فى فصل تال من فصول الكتاب.

(٢) سورة الجاثية [٢٤]

فى هذه النقطة بالذات يبدو التفسير المادى (الجدلى) مختلفا اختلافا أساسيا عن التفسير الليبرالى فى أنه يعطى «مضمونا» لحركة التاريخ، ويعطى تفسيرا كليا مترابطا للنشاط البشرى، ولايتناوله تفاريق متناثرة خالية من المعنى، تتكرر على ذات النمط، أو على نمط مختلف، بغير ضابط واضح محدد.

ولكنه - مع إعطائه مضمونا للتاريخ، وتفسيرا كليا للنشاط البشرى، مما يتميز به التفسير الإسلامى للتاريخ - يظل أبعد شىء عن التفسير الإسلامى بسبب المحور الرئيسى الذى يدير حوله حركة التاريخ.

إنه تفسير شامل نعم، ولكن كأنما هو تفسير لحركة كائن آخر غير الإنسان الذى خلقه الله! كائن ممسوخ، مسلوب الإرادة، محصور فى نطاق ضروراته، تحركه يد جبارة لا ترحم، لا تستجيب لدعائه، ولاترفق بضعفه، ولا تلتفت أصلا إلى وجوده، إنما تدير الوجود البشرى كله من خلال حتميات تاريخية قاسية، تنقله من ظلم إلى ظلم، ومن عبودية ذليلة إلى عبودية.. لايعتدل مرة ولا يستقيم ولا يلتقط أنفاسه من اللهاث! (١)

والتفسير الإسلامى هو الذى يعطى الصورة الصحيحة لحركة الإنسان كما هى فى واقعها، والإنسان كما خلقه الله.

---

(١) يقول التفسير المادى إن الإنسان قد اعتدل مرتين اثنتين فى حياته: المرة الأولى فى الشيوعية البدائية التى مضت إلى غير رجعة. والثانية فى الشيوعية الثانية والأخيرة. وقد ناقشت تلك المزاعم مناقشة مستفيضة فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة». والواقع المشهود أن الناس فى الشيوعية الثانية أشد لهاثا منهم فى أية جاهلية مضت!

فهو أولا يأخذ الإنسان كله، بكل مكوناته، ويأخذه شاملا مترابطا لا مزقا وتفاريق كما يفعل التفسير المادى الليبرالى. وفى الوقت ذاته لا يفسره تفسيرا تحكميا من خلال عنصر واحد من عناصره كما يفعل التفسير المادى الجدلى. كما أنه لايقتطع حياته الدنيا وحدها فيضع لها تفسيرا مبتوت الصلة بالمنشأ والمصير، كما يفعل التفسير المادى بشقيه الليبرالى والجدلى.

يأخذه كائنا متعدد الجوانب، مترابط الكيان فى ذات الوقت، يتحرك بمجموع كيانه فى واقع الأرض، فينشأ من مجموع حركته تاريخ.. لا هو تاريخ مادى فحسب، ولا روحانى فحسب، ولا فكرى أو علمى أو فنى أو سياسى أو حربى أو اجتماعى فحسب، بل كل ذلك فى وقت واحد، على أصالة فى كل جانب من هذه الجوانب، وترابط وتشابك فى ذات الوقت.

ويأخذ حياته الدنيا غير منقطعة عن المنشأ والمصير.

فهى موصولة بخلق الإنسان الأول من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، متأثرة بهذه النشأة التاريخية فى كل جزئية من جزئياتها، وموصولة فى ذات الوقت بالمصير الذى تئول إليه فى الآخرة، المترتب على كل جزئية من جزئياتها الحاضرة:

«منها خلقناكم، وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى»(١)

«أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا، وأنكم إلينا لا ترجعون»(٢)

١) سورة طه [٥٥]

٢) سورة المؤمنون [١١٥]

«فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره» (١)

ثم هو تاريخ لايجرى بلا نظام. إنما تنظمه سنن ربانية جارية، سواء كان تاريخ فرد أو جماعة أو أمة أو دولة أو نظام... ومن ثم يحمل معه فى كل خطوة دلالاته، كما يحمل معايره (٢)

ثم هو يجرى بقدر:

«إنا كل شىء خلقناه بقدر» (٣)

«وكل شىء عنده بمقدار» (٤)

ولكنه قدر إله رحيم، يستجيب للناس إذا دعوه، ويصوغ لهم حياتهم برحمته وحكمته:

«وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان. فليستجيبوا لي وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون» (٥)

وسنته لا تحابى أحدا ولا تتبدل ولا تتحول:

«فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا» (٦)

ولكنها تجرى من خلال أعمال البشر وبحسبها، إن خيرا فخيرٌ وإن شرا فشر، وهكذا يكون الإنسان ـ من داخل قدر الله ـ هو الذى يقرر لنفسه حركته التاريخية، كما يقرر لنفسه مصيره فى الآخرة، لا تقريرا

(١) سورة الزلزلة [٧ ـ ٨]

(٢) أفردنا فى البحث فصلا للحديث عن السنن الربانية فى الحياة البشرية.

(٣) سورة القمر [٤٩]

(٤) سورة الرعد [٨]

(٥) سورة البقرة [١٨٦]

(٦) سورة فاطر [٤٣]

منقطعا عن قدر الله كما يتوهم التفسير المادى الليبرالى ولا مسلوب الإرادة أمام الحتميات كما يتوهم التفسير المادى الجدلى.

وهذا أعلى وضع للإنسان، وأشمل تفسير لوجوده يقدمه أى تفسير للتاريخ.

●●●

ومن كتاب الله نتعرف على غاية الوجود الإنسانى، والمهمة التى أخرج من أجلها إلى الوجود.

فنجد أولا أن الله قد خلقه ليكون خليفة فى الأرض:

«وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة»(١)

ونجد أنه خلقه لعبادته:

«وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون»(٢)

ونجد أنه خلقه ليبتليه:

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا»(٣)

وهذه الأمور الثلاثة ليست متعارضة فيقع فيها التناقض، إنما هى تفسير لغاية الوجود الإنسانى من جوانب مختلفة، كل جانب يفسر الآخر ويحدد صورته.

فالخلافة فى الأرض أيا يكن اختلاف المفسرين حولها، هل هى

---

(١) ورة البقرة [٣٠]

(٢) سورة الداريات [٥٦]

(٣) سورة الإنسان [٢]

خلافة عن الله أم خلافة لأجناس أخرى كانت تعمر الأرض وخلفها الإنسان . . (١)

هذه الخلافة تتضمن معنى التمكين فى الأرض، والسيطرة عليها، والهيمنة على ما فيها، والقدرة على التصرف فى أمورها، كما تتضمن كذلك عمارتها:

«هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها» (٢)

فالإنسان قد خلق اذن ليكون سيد هذه الأرض، الحاكم فيها بإذن الله ومشيئته

والإنسان قد خلق فى الوقت ذاته ليعبد الله، ولم يخلق لشىء آخر غير العبادة، بدليل النفى والاستثناء فى آية الذاريات :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٣)

ومقتضى ذلك أن تكون الخلافة فى الأرض ـ المتضمنة عمارتها والتصرف فى شؤونها ـ هى العبادة أو جزءا من العبادة التى خلق الإنسان من أجلها، ويكون المقتضى كذلك أن الإنسان فى هيمنته

---

(١) يرى ابن تيميه رحمه الله أن الخلافة عن الله لا تجوز لأن الله حى لا يموت، والخلافة لا تكون إلا عن ميت، ويرى فريق من المفسرين أن الخلافة عن الله جائزة بمعنى آخر. روى ابن كثير فى تفسيره (١ / ١٠٠) عن ابن جرير قوله: فكان تأويل الآية على هذا: إنى جاعل فى الأرض خليفة منى يخلفنى فى الحكم بين خلقى، وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه. (انظر بحثا فى هذه القضية للدكتور أحمد حسن فرحات بعنوان «الخلافة فى الأرض» دار الأرقم بالكويت ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

(٢) سورة هود [٦١]

(٣) سورة الذاريات [٥٦]

على الأرض والتصرف فى شئونها لا يحق له أن يتصرف فيها بهواه ، إنما عليه أن يلتزم بما أنزل الله الذى استخلفه فى الأرض ، ذلك أنه لا يكوَن عابدا لله إلا بطاعته فيما يأمر به ، ومعنى ذلك أن العبادة المطلوبة ـ بمعناها الواسع الشامل ـ هى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى (١)

ثم إن الإنسان قد خلق ليبتلى . . وهذا هو الوجه الثالث من القضية . .

فهو مخلوق لعبادة الله . والعبادة المطلوبة هى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . وهذا ذاته هو موضع الابتلاء فى حياته . فإنه فى أثناء عمارته للأرض يجد فيها من المتاع ما يجذب حواسه ويثير دوافعه :

« زينَ للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » (٢)

« إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٣).

ونقطة الابتلاء ـ أى الاختبار ـ التى يتعرض لها هى موقفه من هذا المتاع الذى يبرز له فى أثناء قيامه بعمارة الأرض : هل يلتزم فيه بما أنزل الله ، وعندئذ يكون قائما بالعبادة كما أمره الله ، وتتم عمارة الأرض على الوجه المطلوب ، وتتحقق الخلافة على وجهها الصحيح ؟ أم يغريه

(١) اقرأ ـ إن شئت «مفهوم العبادة» من كتاب «مفاهيم ينبغى أن تصحح»

(٢) سورة آل عمران [١٤]

(٣) . سورة الكهف [٧]

المتاع فيتجاوز حدود الله ، وعندئذ يخرج الإنسان من دائرة العبادة التى خلق من أجلها، ولا تتم عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، ولا يكون الإنسان قد قام بالخلافة على وجهها؟

هذه قصة الإنسان على الأرض . . منذ أبى البشر آدم إلى أن تقوم الساعة . .

وهى كذلك قضية التاريخ .

فالتاريخ هو تسجيل أعمال « الإنسان » فى الأرض موزونة بالميزان الذى يبين ما فيها من خطأ وصواب ، وزيف وأصالة، وهبوط ورفعة، وانحراف واستقامة.

والمعيار الذى توزن به تلك الأعمال لا يصنعه الإنسان من عند نفسه حسب هواه ، إنما يحكمه قدره الذى قدره الله له بحكمته :

«بل جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض و من فيهن» (١)

المعيار هو مدى تمشى هذه الأعمال أو عدم تمشيها مع غاية الوجود الإنسانى ، والهدف من خلقه :

الخلافة . . العبادة . . عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . . الالتزام بما أنزل الله . .

وقد نلاحظ أن هذا هو الميزان ذاته الذى توزن به أعمال الإنسان فى الآخرة .

ولا غرابة فى ذلك ما دامت الدنيا موصولة بالآخرة ، وما دام الجزاء

---

(١) سورة المؤمنون [٧٠ ـ ٧١]

فى الآخره يترتب على أعمال الإنسان فى الحياة الدنيا. بل الغريب أن يكون للدنيا مقياس وللآخرة مقياس! كيف يكون ذلك والإنسان هو الإنسان ؟! هو بذاته الذى يعيش فى الحياة الدنيا ، وهو بذاته الذى يحاسب فى الآخرة ، ويحاسب على ذات الأعمال التى يقوم بها فى الحياة الدنيا ؟ كيف يكون العمل الواحد حلا لا مرة وحراما مرة ، حسنا مرة وقبيحا مرة ، مستقيما مرة ومنحرفا مرة ؟

إنما يقول ذلك الذين لا يؤمنون بالآخرة ، فيحكمون بأهوائهم بغير حق ، ويضلون عن السبيل :

« يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب . وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب» (١)

●●●

وخلاصة الأمر أن التفسير الإسلامى للتاريخ يلتزم المنهج الربانى فى الحكم على أعمال البشر فى الأرض ، فلا يبرر الأشياء بموجب الأمر الواقع كما يفعل التفسير الليبرالى على أساس حيوانية الإنسان من جهة ، وألوهيته من جهة أخرى ! وكما يفعل التفسير الجدلى على أساس أن ما وقع بالفعل لم يكن يمكن أن يحدث غيره بموجب

---

(١) سورة ص [٢٦ - ٢٩]

الحتميات التى تحكم حياة البشر على الأرض .

كذلك فإن التفسير الإسلامى لا يقدم التاريخ بلا ميزان يتبين به الصواب والخطأ، والاستقامة والانحراف فى مسيرة الإنسان فى الأرض ، لأن هذا يخلى التاريخ من مضمونه الحقيقى ، ويخليه من العبرة الكامنة فيه، والتى من أجلها كان التوجيه الربانى للسير فى الأرض ، والنظر فى أحوال الغابرين :

«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » [1]

« أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فلما جاءتهم رسلنا بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون»[2]

●●●

أمر آخر لابد من الإشارة إليه فى هذه الخلاصة . .

إن التاريخ ـ أيا كان التفسير الذى يقدم به : الإسلامى ، أو الليبرالى ، أو الجدلى ـ لا يدرس الوجود الإنسانى فى الأرض فى الحقيقة

---

١) سورة آل عمران [١٣٧]

٢) سورة غافر [٨٢ ـ ٨٥]

مجردا عن القدر الذى يحكم ذلك الوجود ، فهناك دائما معادلة ما بين «الإنسان» ومشيئة «الإله» الذى خلق الكون والحياة والإنسان، سواء وعاها المؤرخ الذى يكتب التاريخ أم كانت فى تفكيره الباطن على غير وعى منه .

فأما فى التفسير الجدلى فهى واعية تماما وإن لم يصرح المؤرخ بأن هناك إلها يحكم الكون والحياة والإنسان ، فهو يقول بفمه : لا إله ، والكون مادة ، كما ينص الدستور الشيوعى . ولكنه يجعل المادة أزلية أبدية ، فيضفى عليها صفة من صفات الألوهية ، ثم يجعلها متطورة ، ويجعل الحياة واحدا من منتجات تطورها فيجعلها بصورة من الصور خالقة ، ثم يجعل الإنسان هو أعلى صور تطور المادة ، ولكنه يخضعه فى ذات الوقت لقوانين المادة . فتكون المادة فى تصوره هى الخالق وهى الإله المتحكم، وهى التى ترسم للإنسان قدره على الأرض، المتمثل فى الحتمية التاريخية والحتمية المادية والاقتصادية.

وأما التفسير الليبرالى فقد لا يبدو لأول وهلة أنه يؤله شيئا ، أو يخضع الإنسان لقدر من أى نوع .. والحقيقة ليست كذلك.

إن الجاهلية المعاصرة فى الغرب هى وريثة الجاهلية الرومانية والجاهلية الإغريقية الوثنيتين ، وقد ورثت عنهما فيما ورثت الصراع بين البشر و«الآلهة» الذى تمثله أسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة .

تزعم الأسطورة ـ وهى إغريقية ـ أن « زيوس » إله الآلهة (أو رب الأرباب) خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ، وسواه على النار

المقدسة (التى ترمز إلى المعرفة)[1] ثم أهبطه إلى الأرض وحيدا يعيش فى ظلام دامس (رمزا للجهل الذى كان عليه الإنسان الأول) فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى بروميثيوس ، فسرق النار المقدسة من عند الإله (رمزاً لتعلم الإنسان بعد جهله) وأعطاها له . فغضب عليه زيوس (وإن كان قد عجز عن استرداد النار المقدسة!) فعاقبه بأن وكل به نسرا يأكل كبده طول النهار ، وتنبت له كبد جديدة فى الليل فيعود إليها النسر يأكلها فى النهار ، هكذا فى عذاب أبدى. وغضب كذلك على الإنسان (المسمى فى الأسطورة إيبيمثيوس) لحيازته للنار المقدسة التى هى اختصاص الإله أصلا ، ومشاركته بذلك فى صفة من صفات الإله (وهى المعرفة) فأرسل إليه مخلوقة أنثى (تسمى فى الأسطورة باندورا) بحجة إينامه فى وحدته التى يعيش فيها، وأرسل معها صندوقا هدية. فلما فتحه إذ به مملوء بالشرور التى تناثرت فملأت وجه الأرض ، وكان هذا هو الانتقام الإلهى من الإنسان الذى خلقه الإله ليكون خاضعا له ، فأراد أن يشارك الإله فى ألوهيته!

والأسطورة كما ترى تحمل شيئا من الحق مشوها بتصورات الجاهلية الفاسدة .

فخلق الله للإنسان من قبضة من طين الأرض حقيقة ، وتمرد الإنسان الضال على خالقه ، ومحاولته أن يجعل نفسه إلها من دون الله حقيقة، ولكن الأسطورة الجاهلية جعلت من الألوهية أوثانا عدة ،

---

(١) انظر كيف تأخذ الأسطورة أصلا سماويا فتحرفه بتأثير الجاهلية الوثنية!

وجعلت الله الخالق هو كبير هذه الأوثان! ثم تصورته محدود القدرة عاجزا عن أن يسترد شيئا سلب منه ! وأنكى من ذلك ـ وهو موضع الشاهد فى الأسطورة ـ أنها جعلت «المعرفة» التى ينالها الإنسان غصبا مغتصبا من الإله، يغضب الإله من حصول الإنسان عليها ، ويعذبه ويشقيه من أجلها ، ويعجز فى الوقت ذاته عن استردادها منه .
وجعلت العلاقة بين الإله وبين الإنسان هى علاقة الكره المتبادل ، الإنسان متمرد أبدا على الإله، والإله ساخط أبدا على الإنسان يسعى إلى تحطيمه كلما حقق نجاحا فى الأرض .

ويقول جوليان هكسلى ـ الداروينى الملحد الذى سبقت الإشارة إليه ـ إن هذه الأسطورة ما تزال تعمل فى العقل الباطن للأوروبى المعاصر . ففى حسه أن العجز والجهل وحدهما هما اللذان أخضعاه من قبل لله . وأنه يسعى دائما إلى المعرفة والسيطرة، وأنه كلما تعلم وسيطر ارتفع درجة وهبط الإله فى مقابله درجة حتى يأتى اليوم الذى يخلق فيه الإنسان الحياة ، فيصبح هو الله ! (١)

والعبرة لنا من الأسطورة ومن تعليق هكسلى عليها أن التفسير الليبرالى للتاريخ لا يتصور الإنسان طليقا من قدر ما يسيطر عليه ويرسم له حياته ، وأنه حين يتصوره إلها ، ويبرر واقعه على أساس أنه ما دام صادرا عنه فهذا يكفى لتبريره ، إنما يصنع ذلك متأثرا بالأسطورة الوثنية الخبيثة ، كأنه يكتب حلقة فى الصراع بين الإنسان

---

(١) اقرأ ذلك فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث»

وبين الإله ، يرسم فيها «محاولة» الإنسان للتأله ، ولكنه يرسم فشله «المأساوى» فى النهاية فى تحقيق ألوهيته ، وعجزه البشرى الملازم له بوصفه قدره المقدور له فى الأرض!

أما التفسير الإسلامى فهو و اضح تماما فى هذه القضية ككل لقضايا التى يتناولها :

إن الإنسان يتحرك فى داخل قدر الله ، محكوما به فى الصغيرة والكبيرة :

« إنا كل شىء خلقناه بقدر »[1]

« وكل شىء عنده بمقدار »[2]

« ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير »[3]

ولكن الله ـ فى قدره ـ ليس عدوا للإنسان يريد أن يشقيه ويعذبه ، ولا هو خصم له ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ يريد تحطيمه وإذلاله ، ولكنه يريد من الإنسان فقط أن يكون فى مقامه الحقيقى إزاء الله ، مقام العبودية إزاء مقام الألوهية ، وله عندئذ كل رفعة وكل تكريم ، وله التمكين فى الأرض فى الحياة الدنيا والجنة والرضوان فى الآخرة .

---

١) سورة القمر [٤٩]

٢) سورة الرعد [٨]

٣) سورة الحديد [٢٢]

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم؟ وكان الله شاكرا عليما (1)

« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا » (2)

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا» (3)

« ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم » (4)

●●●

تلك قضايا « الإنسان » الرئيسية التى يتناولها التاريخ ، وذلك موقف التفسير الإسلامى للتاريخ من هذه القضايا بإجمال. وفى الفصول التالية شىء من التفصيل.

---

(1) سورة النساء [147]

(2) سورة النساء [28]

(3) سورة النور [55]

(4) سورة النساء [13]

الإنسان وقدر الله

رأينا فى الفصل السابق كيف أن التاريخ - فى أى تفسير من تفسيراته - يتناول فى الحقيقة قضيتين فى آن واحد : قضية الإنسان وقضية الألوهية. أو بالأحرى يتناول معادلة ذات طرفين : الإنسان من جهة، وقدر الله من جهة أخرى. وتختلف المعادلة بين التفسيرات الثلاثة، ويختلف مع كل منها وضع الإنسان، وتقدير مدى فاعليته فى الأرض.

ونريد أن نرى فى هذا الفصل أى التفسيرات الثلاثة أصدق تفسيرا للواقع الذى يعيشه الإنسان بالفعل، التفسير الذى يرسمه فى صراع دائم مع قدر الله، يريد أن يثبت ذاته بالتمرد على ذلك القدر، فينجح فى المدى القصير - أحيانا - ثم يبوء بفشل مأساوى فى النهاية. أمْ التفسير الذى يرسمه مقهورا دائما، مغلوبا على أمره، لا يملك أن يتجه إلا حيث تسيره عجلة التاريخ بحتمياتها القاسية التى لا ترحم، أم التفسير الذى يرسمه متحركا فاعلا بإرادته فى نطاق معين - داخل قدر الله - مواجها نتائج عمله فى كل مرة، متحملا - فى الدنيا والآخرة - تبعة اختياره ونتائجها الحتمية.

ونحن لا نتحدث هنا عن عقيدة المسلم فى هذه القضية. فعقيدة القضاء والقدر عند المسلم معروفة. ولكنها حجة على المؤمن وحده،

الذى آمن بالله وملائكته وكتبه و رسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره[1]

إنما نريد أن نعالج القضية مع المؤمن وغير المؤمن ، لنرى ـ بطريقة موضوعية ـ أى التفسيرات الثلاثة يفسر واقع التاريخ الإنسانى .

وأول ما نلحظه على التفسير الغربى ـ بشقيه ـ أنه يتناول التاريخ البشرى الجاهلى ، ويعرضه ـ عامدا ـ على أنه هو التاريخ! ويهمل إهمالا متعمدا فترات الهدى فى حياة البشرية ـ وخاصة فترة الإسلام الكبرى ـ لا بعدم إدراجها فى سجلاته ، فهذا أمر غير ممكن ! ولكن بالتقليل من شأنها ، وعرضها كأنها غير ذات أثر فى مجرى التاريخ البشرى !

وحين يركز ذلك التفسير على تاريخ الجاهلية البشرية فإنه يجد ـ فى ظاهر الأمر ـ مصداقا لرؤيته التاريخية فى بعض الجوانب من هنا ومن هناك ، فيحسن إليه ـ أو يخيل للناس ـ أنه تفسير صحيح! بينما يبدو قصور ذلك التفسير واضحا لو عرض التاريخ البشرى بأكمله ، ووضعت فيه فترات الهدى فى مكانها الصحيح ، ووضع تأثيرها فى مجرى التاريخ البشرى فى مكانه الصحيح !

وتلك نقطة على غاية من الأهمية . ونحن المسلمين أولى الناس بالالتفات إليها ، والالتفات إلى الإهمال المتعمد بشأنها فى كلا

---

١) جاء فى حديث « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » قال وما الإيمان ؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره . رواه مسلم

التفسيرين ، بما يعطى فى النهاية عرضا خاطئا لتاريخ البشرية كله ودوافعه الكبرى ، ومكان الإنسان فيه .

وفيما يختص بالقضية التى نتناولها فى هذا الفصل ، فإننا حين نعرض التاريخ البشرى فى مجموعه ـ مشتملا على فترات اهدى وفترات الضلال ـ يتبين لنا عوج موقف التفسيرين الغربيين من القدر الذى يتحرك الإنسان فى إطاره .

فالتفسير الليبرالى ـ وريث الجاهلية الإغريقية ـ الذى يصور قدر الله خصما دائما للإنسان ، يريد تحطيمه والانتقام منه وإذلال كرامته عقابا له على محاولته إثبات ذاته والتمكن فى الأرض ، لا يستقيم مع إرسال الله الرسل للإنسان من أجل هدايته ، وإخبار البشر ـ على يد الرسل ـ أن الله راض عنهم حين يؤمنون به ، ومبارك لهم فى حياتهم ، وممكن لهم فى الأرض ، وهاديهم إلى الطيب من القول والفعل ، ومثيبهم فوق ذلك كله بالجنة والرضوان فى الآخرة .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية . جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه » (١)

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » (٢)

---

(١) سورة البينة [٧ ـ ٨]

(٢) سورة الأعراف [٩٦]

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ».[1]

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »[2]

ثم إن الواقع التاريخى لفترات الهداية ـ وبخاصة فترة الإسلام الكبرى ـ يثبت هذه الحقيقة : حقيقة التمكين الربانى من جهة ، وإحساس المؤمنين بتأييد الله لهم ورضاه عنهم من جهة أخرى .

ومن هنا يعجز التفسير الليبرالى عن تفسير الواقع الإسلامى ، ويجده مصادما لرؤيته التاريخية مصادمة صريحة .

أما تفسيره للجاهلية ـ الذى قد يبدو للوهلة الأولى صحيحا ـ فليس صحيحا كذلك .

ففى الجاهلية يتمرد الناس ـ بعضهم على الأقل ـ على الله وقدره ، ليثبتوا ذواتهم وليتألهوا ويتجبروا فى الأرض ، فيملى الله لهم ، فيخيل إليهم بسبب هذا الإملاء أنهم نجحوا ، وتغلبوا على الله وقدره ! ثم تأتى الخاتمة (المأساوية !) بتدمير الله عليهم ، فينتهى ذلك النجاح المؤقت ، وينتهى معه مصيرهم فى الحياة الدنيا :

« فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء ، حتى إذا

---

(١) سورة النور [٥٥]

(٢) سورة الأعراف [١٥٦]

فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين »[1]

« وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة، ثم أخذتها وإلى المصير »[2]

وهنا يبدو خطأ التفسير الليبرالى - حتى بالنسبة للتاريخ الجاهلى - فى أمرين :

الأول : أن فترة النجاح التى مارسها الإنسان المتمرد على الله وقدره لم تكن انتصارا منه على الله ، كما يعرضه ذلك التفسير الجاهلى ، إنما كانت إملاء مقصودا من الله سبحانه وتعالى ، لحكمة يريدها الله :

« ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم . إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين »[3]

« ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم »[4]

ولم تكن عجزا من الله عن الانتقام من ذلك المتمرد على سلطانه ، بدليل حدوث التدمير فى النهاية ، وفى اللحظة التى يظن أهلها أنهم صاروا فى قمة القوة والسلطان :

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس »[5] -

---

١) سورة الأنعام [٤٤ - ٤٥]

٢) سورة الحج [٤٨]

٣) سورة آل عمران [١٧٨]

٤) سورة النحل [٢٥]

٥) سورة يونس [٢٤]

والأمر الثانى . أن انتقام الله من هذا المتمرد على سلطانه ليس «موقفا» تجاه «الإنسان» كما يصوره ذلك التفسير الجاهلى إنما هو عقوبة ربانية على جريمة التكبر على الخالق ، والإفساد فى الأرض بهذا التكبر ، وهى بهذا ليست ظلما واقعا من الله على نوع الإنسان :

«وما ظلمهم الله . ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» (١)

ولا هى رغبة من الله الرحيم سبحانه فى التنكيد على هذا المخلوق الذى خلقه بمشيئته ، وكرمه ، وأضفى عليه من فضله :

« ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم ؟ وكان الله شاكرا عليما» (٢)

« ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (٣)

« وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم » (٤)

والنجاح ، والتمكين فى الأرض ، ليس بالذى يغضب الرب ، وهو قدر منه سبحانه وتعالى ، إنما يغضبه عدم شكر النعمة الربانية ، والتبجح بالجحود ، أما الذين يمكنهم الله فيستقيمون على أمر ربهم

---

(١) سورة النحل [٣٣]

(٢) سورة النساء [١٤٧]

(٣) سورة الإسراء [٧٠]

(٤) سورة النحل [١٨]

فهم موضع الرضا والنصر من عند الله:

«ولينصرن الله من ينصره، إن الله لقوى عزيز، الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور» (١)

ومن هنا نرى موقف التفسير الليبرالى من قضية القدر ساقطا من جميع وجوهه، غير صالح للتفسير.

●●●

وإذا كان هذا موقف التفسير الليبرالى فالتفسير المادى الجدلى لا يقل فسادا وعجزا عن التفسير.

إنه كالتفسير الليبرالى يسقط فترات الهدى فى تاريخ البشرية، وبخاصة فترة الإسلام الكبرى، لأنه يعجز عجزا كاملا عن تفسيرها بحتمياته التى يفرضها على التاريخ.

فإنه لا توجد حتمية واحدة كما أسلفنا - فى الفصل الأول - تفسر ظهور الإسلام ولا سرعة انتشاره، ولا احتواءه على ما احتوى عليه من المبادئ والقيم التى لم تكن شعارات مرفوعة، بل كانت واقعا معاشا فى أعلى درجة من درجات التطبيق.

وحين يسقط التفسير الجدلى كل مقومات النفس الإنسانية والحياة البشرية إلا القيم المادية والأوضاع الاقتصادية، ويبنى عليها أطواره التاريخية الحتمية: الشيوعية البدائية، والرق، والإقطاع،

(١) سورة الحج [٤٠ - ٤١]

والرأسمالية، والشيوعية الثانية والأخيرة . . و حين يصر على أن الفكرة لا تسبق المادة ، وأنه ليست معتقدات الناس وأفكارهم هى التى تشكل حياتهم ، ولكن الأوضاع المادية والاقتصادية فى حياتهم هى التى تشكل أفكارهم وعقائدهم . .

حين يصنع ذلك فهو لا يعجز فقط عن تفسير فترات الهدى ـ وفترة الإسلام خاصة ـ بل يعجز عن تفسير بعض ما حدث فى الجاهليات ذاتها ، مما كان المفروض ألا يند عنه ، ومن بين ذلك ـ كما أشرنا فى غير هذا الكتاب ـ (١) انتقال كل من روسيا والصين رأسا من الإقطاع إلى الشيوعية ـ مخالفين للحتمية التاريخية ـ وبقاء بريطانيا دولة رأسمالية إلى هذه اللحظة ، وهى التى كان ماركس يتنبأ ـ حسب حتمياته التاريخية ـ أنها ستكون أول دولة تصيبها الشيوعية !

ثم إن هذا التفسير يلغى فاعلية الإنسان إلغاء كاملا إزاء « القدر » المتحكم فيه من خارج وجوده . . أى إزاء « الحتميات » .

فلقد صور هذا التفسير الأوضاع المادية والاقتصادية على أنها إله قاهر يتحكم فى الإنسان من خارجه ويرسم له وجوده بصورة حتمية لا فكاك له منها. فلا هى صادرة عن إرادته، ولا له إزاءها من تصرف سوى الخضوع لضغطها القاهر .

فأين هذا من الواقع التاريخى للإنسان ؟

فأما فترات الهدى ـ وفترة الإسلا م بصفة خاصة ـ فهى خارجة

---

١) راجع إن شئت كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » فصل « الشيوعية »

بالضرورة عن نطاق ذلك التفسير ، لأنها « اختيار » بشرى لموقف معين ، يترتب عليه تغيير شامل فى الحياة كلها . . السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية . . الخ . وهو فوق ذلك اختيار مبنى على «عقيدة» معينة فى الله واليوم الآخر ، أى على «فكرة». وهم ينفون نفيا باتا ـ وفى صورة عصبية انفعالية! ـ أن تكون الفكرة شيئا قائما بذاته، أو سابقة فى وجودها على المسببات المادية والاقتصادية والطور التاريخى الحتمى الذى يمكن أن تظهر فيه . . !

وكفى بذلك التفسير فسادا أن يعجز عن تفسير هذا الواقع التاريخى ، وهو واقع عريض شغل مساحة كبيرة من الزمن ومساحة كبيرة من الأرض ، وكانت له آثاره الواسعة فى الحياة البشرية بجملتها، وليس أقل آثاره ما تعلمته أوروبا فى نهضتها من علم، وبخاصة المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، الذى بنت عليه أوروبا كل تقدمها العلمى ، الذى يجعله التفسير المادى للتاريخ أداة الانتقال من الطور الزراعى إلى الطور الصناعى ، وما تلا ذلك من أحداث ضخمة فى التاريخ .

ولكن فترات الجاهلية ذاتها لا تقع فى نطاق ذلك التفسير، من جهة أنه يضع المحرك الذى يحرك خطوات التاريخ بصورة حتمية ـ بأكمله ـ خارج نطاق الإنسان .

فعلى فرض أن الأوضاع المادية والاقتصادية هى ـ وحدها ـ المحرك الذى يدفع حركة التاريخ ـ وهو فرض لا نوافق عليه البتة ـ فكيف يحركها ؟

لو لم تكن النفس البشرية مفطورة بحيث تكوّن الأوضاع المادية والاقتصادية ضغوطا معينة عليها واستجابات معينة لها ، فهل كان يمكن أن يكون لتلك الأوضاع المادية والاقتصادية أثر فى التاريخ البشرى ؟

بعبارة أخرى نقول : إن الأوضاع المادية (أى البيئة) قد أثرت تأثيرا معينا فى تاريخ الحيوان على الأرض - بحسب ماتقول نظرية التطور [١] - فنمّت بعض الوظائف وجعلت وظائف أخرى تضمر ، وجعلت بعض الأنواع تزدهر. وبعضها ينقرض . . ولكنها لم تجعل للحيوان تاريخا بالمعنى الذى انفرد به الإنسان . . تاريخا يحمل جوانب سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية واعتقادية . . الخ ، فما الفارق ؟ هل يقع الفارق فى الأوضاع المادية ذاتها أم فى النفس البشرية ؟!

وإذا كان الفارق فى النفس البشرية وطريقة استجابتها للضغوط الواقعة عليها[٢]، أفلا يجعلنا ذلك على الأقل نجعلها شريكا فى الأحداث، وطرفا فى المعادلة، بحيث تكون المحصلة التاريخية هى تأثير كل من الطرفين فى الآخر ؟

إنما كان يصح إغفال النفس البشرية ودورها فى حركة التاريخ على فرض واحد : هو استجابتها بطريقة واحدة فى كل مرة تتعرض فيها لذات الضغوط . . وهذا فرض غير علمى ، وغير واقعى ، لا بالنسبة

---

١) لا نسلم نحن بكل ما تفترضه نظرية التطور من فروض تاريخية ليس هناك ما يقطع بصحتها، ولكن أصحاب التفسير المادى يؤمنون بها إيمانا شديدا فنحن نناقشهم من خلال مسلماتهم.

٢) سنتكلم فى فصل قادم عن الضغوط الواقعة على الإنسان واختلاف استجابته بالنسبة لها

للفرد الواحد ، ولا بالنسبة للأفراد المختلفين . .

وإذا كان العلم يقول اليوم - بعد أن تقدم - إن المادة ذاتها لا تستجيب بصورة واحدة حتمية فى جميع الظروف المتماثلة ، فأى جهالة علمية تلك التى تفترض أن النفس البشرية تستجيب بصورة حتمية واحدة فى جميع الحالات المتماثلة؟ وأى مخالفة للواقع ، الذى يشهد باختلاف الاستجابة ، لا بناء على «الموقف الطبقى» وحده كما يزعم التفسير المادى ، بل بناء على الموقف العقيدى والفكرى والشخصى فى الزمن الواحد ، وفى الأوضاع المادية والاقتصادية الواحدة ؟!

ومن جهة أخرى . . فكيف تنبت الأوضاع المادية والاقتصادية فى حياة الناس غير متأثرة بوجودهم النفسى كما يزعم التفسير المادى ؟

يقولون إن اختراع المحراث كان نقطة تحول فى التاريخ ، نقلت الناس من عهد الرق إلى عهد الإقطاع ، وإن اختراع الآلة كان نقطة تحول أخرى فى التاريخ ، نقلت الناس من عهد الإقطاع إلى عهد الرأسمالية .

فهل نزل المحراث أو الآلة من السماء فأثرا فى حياة الإنسان ؟

أم كان المحراث والآلة اختراعا « بشريا » ناشئا من الكيان النفسى للإنسان؟!

ألا يجعلنا ذلك على أقل تقدير نضع الإنسان طرفا فى المعادلة التاريخية مع القدر القاهر المتمثل فى الحتميات!

لقد كان المحراث وكانت الآلة - على فرض أن لهما كل الثقل الذى

ينسبه إليهما التفسير المادى - استجابة لمجموع الكيان البشرى: حاجاته وتطلعاته وقدراته . . المقدرة له بقدر من الله .

فالإنسان هو الخليفة فى الأرض . . المسيطر المهيمن المعمر.

وقد وهب الله له مواهب تعينه على القيام بمهمة الخلافة، من بينها قدرته على التفكير المجرد، الذى يستطيع به أن يركب فى ذهنه صورة لشيء غير موجود بالفعل على تلك الصورة، ثم يحاول إيجاده فى عالم الواقع. ومنها رغبته وقدرته على تحسين الواقع وتجميله وتكميله عن طريق تصنيع الخامات الموجودة بين يديه على صور وأشكال غير ما هى موجودة عليه. ومنها تراكم التجربة فى نفسه وعقله بحيث تدفعه إلى تجربة جديدة لم يخضها من قبل .

وكل ذلك من فضل الله عليه ورحمته به ورعايته له ، ومن قدره المقدور له فى الأرض .

ثم إن الله قد سخر له ما فى السموات والأرض من كنوز وطاقات :

«وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه» [1]

وهذا التسخير مقدر من عند الله ابتداء ، ولولاه ما كان فى إمكان الإنسان أن يحققه، وإذا كان يتم فى عالم الواقع بجهد يقوم به الإنسان بعضلاته وعقله، فهذا قدره: أن يكدح كدحا دائما ليحقق وجوده فى الأرض:

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه »[2]

---

١) سورة الجاثية [١٣]

٢) صورة الانشقاق [٦]

«لقد خلقنا الإنسان فى كبد»(١)

ولكن من رحمة الله به أن هذا الكدح المقدر عليه يثمر ثمرته فى حياته، ويترتب عليه تحقيق قدر من المتاع:

«ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين»(٢)

ثم إن فى نفسه نوازع ودوافع وشهوات ورغائب:

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث»(٣)

وتمثل هذه الشهوات ضغوطا على نفسه، كما أن تحقيقها يعرضه لضغوط مادية واقتصادية وسياسية واجتماعية نتيجة اجتماع البشر على الأرض وتدافعهم على تحقيق هذه الشهوات..

ومن هذا التدافع يتكون التاريخ..

وهو محكوم بقدر الله..

لأن قدر الله هو الذى خلق الإنسان ابتداء، وهو الذى قدر له مهمته التى يقوم بها فى الأرض، وهو الذى ركبه على هذه الصورة التى هو عليها، والتى ينشأ منها التدافع فى الأرض.. الذى ينشئ بدوره حركة التاريخ.

ولكن قدر الله الذى أنشأ الإنسان على هذه الصورة، قد كرمه وفضله، فجعل له إرادة يواجه بها الضغوط الواقعة عليه، سواء ما

---

(١) سورة البلد [٤]

(٢) سورة البقرة [٣٦]

(٣) سورة آل عمران [١٤]

ينبت من داخل نفسه بفعل الشهوات، وما يتعرض له من الخارج وهو يحاول تحقيق هذه الشهوات[1]

ومن حصيلة هذه الضغوط، والإرادة التى يتصرف بها إزاءها، يتحدد سلوك الإنسان فى الأرض.

وهنا يكمن الجانب الحر فى حياة الإنسان.

فهذه الإرادة - وإن كانت لا تلغى الضغوط - فإنها تعدّلها، وتتحكم فى طريقة الاستجابة لها.. فتعطى الإنسان قدرا من حرية التصرف يختلف بها عن الحيوان، ويخرج بها عن «الحتمية» التى يرسمها التفسير المادى للتاريخ.

●●●

تلك هى العلاقة بين الإنسان وقدر الله.

إن الإنسان يتحرك - دائما - فى دائرة قدر الله.

ولكن هذا القدر ذاته هو الذى وسع له دائرة التصرف، فى مقابل التبعة التى يحملها حين يختار بنفسه تصرفه.

وهذه التبعة - مقابل الحرية - هى «الأمانة» التى اختص بحملها الإنسان، وأشفقت من حملها السموات والأرض والجبال:

«إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان..»[2]

---

(١) أفردنا فصلا للحديث عن موقف الإنسان من الضغوط الواقعة عليه

(٢) سورة الأحزاب [٧٢]

وهى تبعة ضخمة فى الحقيقة . . فالمطلوب من الإنسان ـ لكى يؤدى مهمة الخلافة ـ أن يقوم بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى .

وهذا يقتضيه ـ فى كل موقف ـ أن يقف ليسأل نفسه : أى الطريقين يختار؟ الطريق الذى يستجيب فيه للضغوط الداخلية والخارجية؟ أم الطريق الذى يقاوم فيه الضغوط قدر جهده، ويستعلى عليها ، ليثبت وجوده على المستوى الأعلى اللائق «بالإنسان»؟

وبقدر ما يستعلى . . بقدر ما يقاوم الضغوط . . يكون قد أدى «الأمانة» التى حملها بقدر من الله . . وبقدر ما يهبط . . وبقدر ما يخضع للضغوط . . يكون مبتعدا عن أداء الأمانة، فيكون «ظلوما جهولا» كما وصفه الله .

وفى كلا الحالين يتحرك فى داخل قدر الله ، الذى قدر له هذا القدر من الحرية، وحمله مقابلها تبعة الاختيار.

وفى كلا الحالين يتحرك فى داخل سنن معين ، تجرى بمقتضاها حياة البشر على الأرض. كل سنة تحدد نتيجة حتمية لعمل معين ، ولكنها لا تجبر الإنسان على عمل بعينه ، لأنه هو الذى يختار.

وأيما سنة اختارها فهو داخل فى قدر الله!

حين سمع عمر رضى الله عنه بالطاعون فى عمواس أمر جنده بالرحيل عنها ، فقال له أبوعبيدة رضى الله عنه : أتفر من قدر الله ؟ قال : نعم أفر من قدر الله إلى قدر الله !

وهكذا كان عمر رضى الله عنه يفهم العلاقة بين الإنسان وبين قدر الله .

وهكذا تتقرر للإنسان فاعليته وإيجابيته، وتتقرر له كذلك مسؤوليته عما يفعل، وفي كل ذلك لا يخرج عن قدر الله.

فلا هو في أي لحظة من لحظاته فاعل بمفرده، كما يتخيل التفسير الليبرالي في بعض الأحيان، ولا هو ممسوخ مسلوب الإرادة كما يتخيل التفسير الجدلي في كل الأحيان..

إنما هو دائما في حدود قوله تعالى:

«ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها»[1].

«من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم ترجعون»[2]

---

1) سورة الشمس [٧ - ١٠].

٢) سورة الجاثية [١٥]

السنن الربانية

من أهم ما يلتفت إليه المؤرخ المسلم وهو يتدبر التاريخ البشرى، السنن الربانية التى تحكم الحياة البشرية، والتى من خلالها يجرى قدر الله. وإليها يشير التوجيه الربانى إشارة واضحة:

«قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»(1)

فعاقبة المكذبين المشار إليها فى الآية واحدة من تلك السنن الربانية التى يجرى بها الله الحياة البشرية، والتى يطلب من الناس أن يتدبروها لكى لا يقعوا فيها، ولكى يستفيدوا من عبرة التاريخ.

والإسلام يجعل دراسة التاريخ، والاعتبار بالسنن الربانية فى الحياة البشرية فارقا بين أولى الوعى والبصيرة والغافلين الذين لهم أعين لا يبصرون بها، وآذان لا يسمعون بها، وقلوب لا يفقهون بها.

«أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها، أو آذان يسمعون بها؟ فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»(2)

---

1) سورة آل عمران [١٣٧]

2) سورة الحج [٤٦]

ويجعل النظر فى آيات الله فى الكون، وآياته ونذره فى الحياة البشرية فارقا بين المؤمنين وغير المؤمنين:

«قل انظروا ماذا فى السموات والأرض. وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون؟!»(١)

لذلك لابد من دراسة مستوعبة للسنن الربانية، ولابد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، لتكون هذه الدراسة جزءا من التربية المطلوبة لإنشاء «الإنسان الصالح» الذى يهدف الإسلام إلى إخراجه إلى الوجود(٢) وإن المتدبر لكتاب الله ولسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ليجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم، المستقيم على أمر الله.

●●●

من أول مايلحظه الدارس لموضوع السنن فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن هناك سننا عامة ـ وهى الأكثر عددا والأوسع مساحة فى التاريخ البشرى ـ تشمل «الإنسان» كله، مؤمنه وكافره، وإن كانت تحدد للمؤمنين طريقهم، وعاقبة أمرهم إذا استقاموا على الإيمان. كما تحدد للكافرين طريقهم وعاقبة أمرهم، وتبين الفارق الواسع بين حياة هؤلاء وحياة هؤلاء فى الدنيا والآخرة جميعا، وسننا

---

(١) سورة يونس [١٠١]

(٢) انظر إن شئت كتاب منهج التربية الإسلامية الجزء الأول

خاصة - وهى الأقل - تقع للمؤمنين وحدهم أو للكافرين وحدهم، ولكنها رغم خصوصيتها سنن جارية، أى أنها تتكرر للمؤمنين ولا تقع للكفار، أو تتكرر للكفار ولا تقع للمؤمنين [(١)]

والسنن الواردة فى كتاب الله وفى السنة المطهرة كثيرة متعددة، تشمل مجالات كثيرة من الحياة البشرية، وليس من شأن هذا البحث الموجز أن يلم بها جميعا، فهذا متروك للبحوث المتخصصة[(٢)] وإنما حسبنا هنا أن نشير إلى أهمية دراسة السنن وإبرازها فى التفسير الإسلامى للتاريخ، مع إشارة سريعة إلى نماذج منها.

●●●

من السنن الربانية أن الله أعطى عطاءه لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، ليبلوهم أيهم أحسن عملا:

«كلا نمد - هؤلاء وهؤلاء - من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا» [(٣)]

فهو سبحانه لم يخص فريقا منهم بالعطاء دون فريق، لأن سنة الابتلاء يومئذ تنتفى، بينما هى من الغايات الرئيسية فى خلق الإنسان كما بينا من قبل:

---

(١) من أبرزها تحقق التمكين للكفار وهم عصاة، وعدم تحققه للمؤمنين إلا وهم مستقيمون على الطريق.

(٢) انظر رسالة دكتوراه لشريف الخطيب، جامعة أم القرى بعنوان «السنن الألهية فى الحياة الإنسانية».

(٣) سورة الإسراء [٢٠]

«إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه، فجعلناه سميعا بصيرا» (١)

«إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا» (٢)

«الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا» (٣)

فالابتلاء هو لب حياة الإنسان، وهو الذى يجعل لحياته معنى، ولوجوده غاية. والابتلاء يقتضى أن تكون هناك «مادة» يختبر فيها الإنسان. والمادة - كما أشرنا من قبل - هى المتاع المبذول للناس فى الأرض، المزين لهم، الذى يجدونه بين أيديهم وهم يقومون بعمارة الأرض. والاختبار فى هذه المادة هو سؤال جوهرى، يتشعب شعبا شتى، ولكنه فى أصله واحد، وفى غايته واحد: هل يلتزم الإنسان فى تناول هذا المتاع بما أنزل الله؟ أم يتبع الهوى والشهوات؟

.. وكل ماجاء فى الكتاب والسنة من أوامر ونواه وأحكام وتوجيهات هو بيان لما أنزل الله فى شأن هذا المتاع فى مجالات الحياة المختلفة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. إلخ. ويبقى السؤال الوارد فى الاختبار واحدا فى كل حالة: هل التزم الإنسان فى مجالات حياته المختلفة - السياسية والاجتماعية والاقتصادية.. إلخ-بما أنزل الله؟ أم اتبع الهوى والشهوات، سواء كان هواه هو الشخصى أو هوى طائفة

---

(١) سورة الإنسان [٢]

(٢) سورة الكهف [٧]

(٣) سورة الملك [٢]

من البشر، أو هوى البشر جميعا . . كلها سواء .

وإذ كان هذا هو الشأن فى خلق الإنسان وابتلائه، فإن مجرد الاستحواذ على العطاء الربانى ليس فى ذاته معيارا من معايير الوجود البشرى الرئيسية، إنما المعيار الرئيسى هو: ماذا فعل الإنسان بالعطاء الربانى الذى حصل عليه.

صحيح أن الحصول على هذا العطاء هو ذاته له سنن. فهو مبذول من عند الله ابتداء، ولكن تحصيله يحتاج إلى جهد يبذله الإنسان، وهذا الذى أشار إليه عمر رضى الله عنه وهو يقول للكسالى القابعين فى المسجد ينتظرون رزق الله : «لقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة» . .

لابد من بذل الجهد، لأن الكدح للحصول على ما يرغب الإنسان فى تحقيقه هو ذاته من سنن الله :

«يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه»(١)

ولا يستوى القاعدون عن الكدح والقائمون به. لا يستوون فى مقدار العطاء الربانى الذى يحصلون عليه، ولا يستوون فى النتائج المترتبة على سلوكهم، ولا يستوون فى التقويم النهائى لوجودهم على الأرض.

ولكن . . كما أنه فى تقويم «الشخصية» الإنسانية توضع أرقام لبعض الجوانب أعلى مما يوضع لجوانب أخرى، لأهميتها الذاتية فى

---

(١) سورة الانشقاق [٦]

عملية التقويم، بينما توضع لجوانب أخرى أرقام أقل مهما يكن تفوق الإنسان فيها. . فكذلك فى «التقويم التاريخى» يوضع الرقم الأعلى لا لمقدار العطاء الذى حصلت عليه أمة من الأمم، إنما يوضع الرقم الأعلى فى التقويم لطريقة التصرف فى ذلك العطاء، وهل التزم فيه الإنسان بما أنزل الله أم لم يلتزم. . لأن هذا لب الاختبار.

ومن هنا تختلف الصورة فى الحياة الدنيا فى كثير من الأحيان عن الصورة فى الآخرة، ولكن لا يختلف التقويم ولا يختلف المقياس.

خذ مثلا هذه الصورة:

«إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندى. أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا؟ ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون. فخرج على قومه فى زينته. قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم. وقال الذين أوتوا العلم ويلكم! ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا. ولا يلقاها إلا الصابرون. فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين»(1)

---

(1) سورة القصص [٧٦ - ٨١]

وهذه الصورة:

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار. وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون» (١)

فهاتان نهايتان مختلفتان لأفراد يبذلون جهدا للحصول على متاع الحياة الدنيا - المبذول من الله للجميع، يحصلون منه على قدر ما يجتهدون فى تحصيله - ولكن على غير هدى من الله، وعدم التزام بما أنزل الله، وكلتا النهايتين من سنن الله. فإما أن يدمر عليهم فى الحياة الدنيا بعد فترة من التمكين وإما أن يؤجل لهم العذاب إلى الآخرة ويدعهم لمتاعهم الأرضى يستمتعون فيه بقدر ما يجتهدون. ولكن العبرة فى السنة - كما هو واضح من سياق الآيات - ليس بمقدار العطاء الربانى الذى حصلوا عليه إنما بالطريقة التى تناولوا بها ذلك العطاء، فهنا الابتلاء الحقيقى الذى ينالون عليه التقدير النهائى، سواء أمهلوا فى الحياة الدنيا أم لم يمهلوا. ومصيرهم فى الآخرة واحد.

وإذا كان الاختلاف فى النهاية الدنيوية يقع بالنسبة للأفراد فهو لا يقع بالنسبة للمجموع. فإنما هو الدمار فى النهاية فى جميع الأحوال جزاء على مخالفة أوامر الله وتوجيهاته. وتلك سنة حتمية لا تبديل لها ولا تحويل فيها. إنما يقع الاختلاف فى المدة التى تسبق التدمير. أى فى فترة الإملاء:

---

(١) سورة هود [١٥ - ١٦]

«وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير»[1]

فالدمار نهاية حتمية مؤكدة بالنسبة للحائدين عن منهج الله. إنما تختلف سرعة التدمير بقدر من الله. وهذا القدر ذاته يجرى من خلال سنن أخرى عاملة فى الحياة البشرية. فالواقع أن السنن الربانية لا تعمل فرادى، إنما تعمل مجتمعة، وتكون النتيجة الواقعية هى حصيلة السنن العاملة كلها فى آن واحد، أو بالأحرى حصيلة تعامل الإنسان مع مجموعة السنن التى تعرض لها فى أثناء حركته فى الأرض. فحين يكون اجتهاد البشر كبيرا، ومحكما، ومنظما، ومخططا، ومنظورا فيه إلى عوامل كثيرة فى الوقت الواحد، فهو أحرى أن يطول بقاؤه فى الأرض، وأن يكون دماره أبطأ، وإن كان حتمى الوقوع، لأن كل واحدة من هؤلاء تتعامل مع سنة من السنن، وتكون جزءا من الحصيلة النهائية. فليست السنة الوحيدة العاملة فى هذا الأمر هى التدمير النهائى إنما هذه واحدة من السنن، وحين تترافق معها السنن الأخرى فهى تحدد - بقدر من الله - إن كان الدمار سريعا أو بطىء الوقوع.

ولهذا الأمر أهميته العظمى فى دراسة التاريخ.. وبخاصة تاريخ الجاهليات. فإن الجاهليات ذات لألاء بالنسبة للجاهليين! وانظر إلى القوم الذى قالوا: يا ليت لنا مثلما أوتى قارون! وانظر إلى المفتونين بالجاهلية المعاصرة وإنجازاتها..

لذلك يركز القرآن - ويركز مثله التفسير الإسلامى للتاريخ - على

---

(1) سورة الحج [٤٨]

النهاية الحتمية التى يؤول إليها المنحرفون عن المنهج الربانى - وهى الدمار - وذلك لأن عمر الفرد القصير المحدود لا يتسع لرؤية السنة بأكملها متحققة فى عالم الواقع، فيبهره اللألاء ويغفل عن النهاية لأنه لا يراها، وقد تنقضى أجيال كثيرة قبل أن تحدث، فتغفل عنها أجيال بأكملها، لذلك لابد من تنبيه الغافلين حتى لا يأخذهم البريق الزائف فينسيهم عاقبته.

ونحن نرى فى التفسير الليبرالى خاصة ذلك الانبهار الشديد بجاهليات التاريخ، وبخاصة الجاهلية الفرعونية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية. وسواء كانت الإشادة بهذه الجاهليات مقصودة - كما نرجح - انتقاما من الكنيسة ودينها، ومكايدة لها بإبراز الجاهليات الوثنية على أنها أعظم أثرا وأضخم قيمة وأثقل وزنا من الفترة التى حكمت فيها الكنيسة العالم المسيحى.. أو كانت أمرا طبيعيا بالنسبة للجاهليين، إذ يبهرهم الإنجاز المادى والحسى ويهملون عالم القيم، فتبهرهم من ثم تلك الجاهليات بما تحتوى عليه من إنجاز مادى وحسى، ولا يحسون بما فيها من انحراف ونقص فى الجانب الروحى ومايشتمل عليه من قيم وعقائد..

سواء كان هذا أو ذاك هو السبب (وهما غير متعارضين فى حقيقة الأمر) فإن التفسير الإسلامى للتاريخ ينبغى أن يتصدى لهذه القضية بالذات، فيزيل عن الجاهليات ذلك البريق الزائف الذى يبهر الجاهليين، ويعرضها فى حقيقتها الربانية، من خلال السنن الربانية

التى توضح حقيقتها.

فأما ما فيها من إنتاج مادى فهو من ذلك العطاء الذى يمد الله به جميع البشر:

«كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا»(١)

وهى نتيجة اجتهاد قاموا به فأعطاهم الله ثمرته فى الحياة الدنيا:

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون»(٢)

كما أنه جار على سنة الإملاء للكفار وتمكينهم تمكين الاستدراج ليزدادوا إثما:

«إنما نملى لهم ليزداودا إثما ولهم عذاب مهين»(٣)

«فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء»(٤)

ولكن نهايتها الحتمية هى الدمار.

وسواء جاء الدمار بسبب الترف الذى يصيب تلك الجاهليات بعد أن تمكن فى الأرض:

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها فحق عليها القول، فدمرناها تدميرا» (٥)

---

١) سورة الإسراء [٢٠]

٢) سورة هود [١٥]

٣) سورة آل عمران [١٧٨]

٤) سورة الأنعام [٤٤]

٥) سورة الإسراء [١٦]

أو بسبب تسليط ظالم على ظالم فيديل دولته :

«قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض»(١)

أو نتيجة بروز قوة مهتدية يدفع الله بها الفساد :

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين»(٢)

أو بغير ذلك من الأسباب . . فهى كلها من الأسباب التى بينتها السنن الربانية ، وجعلتها وسائل للدمار الأخير.

والتفسير الإسلامى للتاريخ ينبغى أن يركز على هذه النقطة من أجل تصحيح المعايير التى يقاس بها أمر الجاهليات .

●●●

من السنن التى يرد ذكرها كثيرا فى القرآن والسنة ، بيان حال المؤمنين وحال الكفار فى الحياة الدنيا ، وبيان مصيرهم فى الآخرة .

فهؤلاء وهؤلاء يمكنون ، ولكن يختلف نوع الحياة بين هؤلاء وهؤلاء اختلافا كبيرا ، رغم اشتراكهما الظاهرى فى التمكين ، لأن كلاًّ منهما ممكن لأسباب مختلفة عن الآخر. المؤمنون ممكنون تمكين الرضا ، والكافرون ممكنون تمكين الاستدراج .

ويختص المؤمنون ـ فى تمكنهم ـ بصفتين لا تنالان الكفار أبدا : البركة والطمأنينة :

---

(١) سورة الأنعام [٦٥]

(٢) سورة البقرة [٢٥١]

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (١)

«الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب» (٢)

بينما الكفار - رغم تمكنهم - محرومون من البركة والطمأنينة، يعيشون معيشة ضنكا ولو حصلوا على الرفاهية المادية، ويتمتعون - حين يتمتعون - متاع الأنعام.

«ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا، ونحشره يوم القيامة أعمى» (٣)

«والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم» (٤)

وتلك أيضا من السنن التى ينبغى أن يبرزها التفسير الإسلامى للتاريخ، لذات السبب الذى ألمحنا إليه فى الحديث عن السنة السابقة.

فالذين لا يؤمنون بالآخرة أصلا، والذين خف فى حسهم ثقل اليوم الآخر حتى إن كانوا يؤمنون به بصورة من الصور، ينظرون إلى الحياة الدنيا وحدها، أو يوجهون اهتمامهم الرئيسى إليها، فينظرون إلى

---

(١) سورة الأعراف [٩٦]

(٢) سورة الرعد [٢٨]

(٣) سورة طه [١٢٤]

(٤) سورة القتال [١٢]

الجاهليات ـ وخاصة الجاهلية المعاصرة ـ فيجدون نجاحا وتمكنا، وقوة ذات دوى فى الأسماع، فيتوهمون أن كل مافيها جميل، وأن حياة الناس فيها هى النموذج الذى يهفو الإنسان إلى الحياة فى مثله، ولا ترى أعينهم ما فيها من عوج، وما فى حياة الناس فيها من شقاوة، فيحسبون أن مايقوله «الدين» عن حال الكفار فى الدنيا إن هو إلا «مواعظ» يقصد بها فقط عدم افتتان الناس بالدنيا، ولكنه ليس حقا فى ذاته. فهو من باب «الدعاية» الموجهة، التى يجب أن تقابل بما تستحقه من عدم الاهتمام!!

ثم يجىء التفسير الليبرالى فيؤكد هذه المعانى تأكيدا فى نفوس الناس، باحتفاله الشديد بالجاهليات، وإغفاله المتعمد لفترات الهدى فى حياة البشرية.

أما التفسير الجدلى فهو يعطى صورة قاتمة عن التاريخ كله[1] بوصفه تاريخا «عبوديا»، استعبد فيه المالكون غير المالكين وأذلوا إنسانيتهم، ولكن الماديين يرفضون رفضا مبدئيا أن توزن هذه القتامة بالمقاييس الدينية أو الأخلاقية! ولايحبون أن يقال إنها ظالمة أو فاسدة لأنها مخالفة لأوامر الله ومنهجه! ذلك لأنهم ـ فى تفسيرهم للتاريخ ـ يريدون أن يضعوا الدين كله فى الفترة العبودية، بوصفه انعكاسا للأوضاع الاقتصادية القائمة فى عهود العبودية الثلاثة: الرق، والإقطاع، والرأسمالية، وبوصفه هو ذاته أداة استغلالية يستغل

---

(١) إلا فترة الشيوعية البدائية والشيوعية الثانية كما سيجىء.

المالكون بها غير المالكين ليخضعوهم لسيادتهم ويسخروهم لتحقيق مصالحهم! ومن هنا لايحبون - بل لا يطيقون - أن يكشف أحد للناس أن التفسير الديني - ونحن نقصد الإسلامي بطبيعة الحال - يستنكر - من المنطلق الديني - كل ماحدث في عهود الرق والإقطاع والرأسمالية من مظالم بشعة، ويقرر أن سببها الرئيسي هو تشريع البشر لأنفسهم، وعدم التحاكم إلى شريعة الله.

ثم إن الماديين - كالليبراليين - يغفلون فترات الهداية من منطلقهم الخاص (بالإضافة إلى منطلقات الليبراليين) لأنها لا تخضع لتفسيراتهم، ولايمكن أن تشملها مقرراتهم ومبادئهم. ونفي ما لايمكن تفسيره في عرفهم جائز[1].

ولكنهم يبرزون فترتين اثنتين في التاريخ، يضفون عليهما من الجمال والخير والملائكية كل ما في جعبتهم من أوصاف.. هما فترة الشيوعية البدائية، وفترة الشيوعية الثانية والأخيرة. وهما فترتان جاهليتان لاتزيدان عن ذلك في الميزان الإسلامي، لأنهما لاتحكمان بما أنزل الله، وينطبق عليهما - بصورة أو بأخرى - كل ماينطبق على الجاهليات.

والتفسير الإسلامي للتاريخ ينبغي - كما قلنا - أن يبرز الواقع الذي تشير إليه السنن الربانية، والذي يقرر أن الذين كفروا يتمتعون المتاع الحيواني، لا المتاع الإنساني، وأن معيشتهم ضنك وإن وصلوا من الناحية المادية إلى درجة الترف والرفاهية.

---

(١) ناقشت طريقتهم في التدليل وإخفاء أو نفي ما لا يروق لهم من الوقائع في فصل «الشيوعية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» مناقشة مستفيضة، يرجع إليها من شاء.

والجاهلية المعاصرة بين أيدينا نستطيع رؤيتها عن قرب، إن تعذر علينا رؤية الصورة الحقيقية الكاملة للجاهليات القديمة.

وليس هنا مجال التفصيل فى شأن هذه الجاهلية (١) . إنما نشير إشارات سريعة إلى بعض انحرافاتها. خذ مثلا الفوضى الجنسية المتفشية فيها: هل هذا متاع إنسانى أم متاع حيوانى؟! وخذ ما يسجلونه فى إحصائياتهم من حالات القلق والجنون والانتحار والأمراض العصبية والنفسية وإدمان الخمر وإدمان المخدرات والجريمة ونسبة الطلاق المرتفعة ونسبة الهاربين والهاربات من بيوت الزوجية الذين تقوم مؤسسات خاصة بالبحث عنهم ومحاولة إرجاعهم إلى ذويهم!! هل يدل هذا كله على الراحة والسعادة والطمأنينة أم هى معيشة ضنك رغم كل الرخاء الاقتصادى والإنتاج المادى الوافر الفائض عن الحد؟!

أما الشق الآخر من الجاهلية المعاصرة فحسبه - من واقعه - التراجعات المستمرة التى قام بها من أجل ما ظهر فى التطبيق الواقعى من مصادمة النظام للفطرة.. من إباحة التفاوت فى أجور العمال - فضلا عن الفوارق القائمة بين الفرد العادى من الشعب وعضو الحزب الشيوعى - ومن إباحة ملكية قدر من الإنتاج الزراعى تشجيعا للإنتاج بعد ما ثبت أن الملكية الجماعية قد أدت إلى نقص الإنتاج حتى

---

(١) فى النية كتابة بحث آخر بعنوان «رؤية إسلامية لواقع العالم المعاصر» لوصف الواقع العالمى المعاصر على ضوء السنن الربانية.

أصبحت روسيا تشترى القمح من أمريكا! وحين يكون النظام مصادما للفطرة فهل تكون هناك الراحة والسعادة أم الضيق والعنت وهو بعض معنى «الضنك» الذى تشير إليه السنة الربانية ؛ أما القهر السياسى فحدث عنه ولا حرج، وقد ذاق العالم الإسلامى عينة مخففة منه فيما يسمى «الاشتراكية» فعرف مقدار مافيها من «الطمأنينة» الزائفة، وعرف معنى «الضنك» الحقيقى فى ذلك النظام.

أما حين يعيش المؤمنون فى كنف الله، وفى ظل منهجه، ويطبقون شريعته، وينالون رعايته.. فحال أخرى عرفها المسلمون حين كانوا قائمين بالفعل بما أمرهم الله.

فهناك تتحقق هاتان الخصيصتان اللتان اختص الله بهما المؤمنين: البركة من عند الله، وطمأنينة القلوب.

وليس هنا أيضا مجال التفصيل..

●●●

من السنن الربانية البارزة كذلك: جريان القدر الربانى من خلال أعمال البشر، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر:

«ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس....»(١)

«وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا»(٢)

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (٣).

---

١) سورة الروم [٤١] ٢) سورة الإسراء [١٦] ٣) سورة الأعراف [٩٦]

«وألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا . . .»[1]

وأهمية إبراز هذه السنة فى القرآن الكريم - وفى التفسير الإسلامى للتاريخ - هى ضبط التصور بالنسبة لما يجرى فى حياة الناس فى الأرض، فلا شىء يجرى اعتباطا. ولايوجد عمل من أعمال الإنسان لا تترتب عليه نتيجة، لا فى الآخرة وحدها، وإنما فى الحياة الدنيا كذلك. فإن كان هناك فارق بين حساب الله للبشر فى الدنيا وحسابه لهم فى الآخرة فى نوع العقاب، وفى الإملاء لهم أحيانا فى الحياة الدنيا، ولا إملاء فى الآخرة، فلا خلاف فى المعايير التى توزن بها الأعمال، ولا خلاف فى مبدأ ترتيب النتائج على الأعمال، ولا خلاف فى مبدأ مسؤولية كل إنسان عن عمله.

هناك مسؤولية فردية، يلتزم فيها كل فرد بأن يحسن عمله، ويتحمل فيها - وحده - نتيجة سوء عمله، وهناك مسؤولية جماعية يحمل كل فرد نصيبه منها، ويتحمل نتيجة عدم قيامه بواجبه فيها ولو لم يكن مسيئا بشخصه:

«واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»[2]

«مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنّا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فلو تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على

(١) سورة الجن [١٦]

(٢) سورة الأنفال [٢٥]

أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»[1]

وقد وعت أوروبا هذه القاعدة فى أمور[2]، فكان وعيها من نقط القـوة التى تؤخـر انهيار حضارتها، وأهملت القاعدة فى أمور أخرى جوهرية [3] فكان إهمالها مما يؤدى حسب السنة إلى الانهيار الحتمى، وكلا الأمرين من سنن الله - بطء وقوع الانهيار وحتمية وقوعه فى النهاية - وكلاهما يجرى بقدر من الله، ولكن من خلال أعمال البشر.

ونسى المسلمون المعاصرون سنة الله فى معظم أمور حياتهم، فحل بهم ماحل حسب السنن الربانية التى أهملوها. . وقد كان أعظم ما نسوه هو جريان قدر الله من خلال أعمال البشر، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وأن سنة الله لا تحابى أحدا، ولا تستجيب لأهواء البشر، إنما تتمشى مع أعمالهم، وأن الذين يرثون الكتاب وراثة، ولايترجمون مافيه من التعاليم واقعا سلوكيا ثم يقولون: سيغفر لنا! لا يستجيب الله لهم، حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم الله فى كتابه المنزل:

«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون: سيغفر لنا! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه. ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون، أفلا تعقلون؟!»[4]

---

(1) أخرجه البخارى

(2) فى ضرورة إتقان العمل، وفى التزام القواعد الصحية. وفى ضرورة المحافظة على «المصالح العامة» وعلى حقوق الآخرين . . الخ

(3) فى عبادة الله والالتزام بشرعه والالتزام بأخلاقيات الدين.

(4) سورة الأعراف [١٦٩]

●●●

ومن بين تلك السنن سنة التغيير. وهى كذلك تجرى من خلال أعمال البشر:

«إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»(١)

«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»(٢)

فالأصل أن الله يضفى نعمه على خلقه:

«ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة»(٣)

ثم إذا شكروا يزيدهم من فضله:

[«وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد»(٤)

ثم لا يغير ما بهم من نعمة إلا إذا غيروا ما بأنفسهم من شكر النعمة إلى جحودها:

«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»(٥)

---

(١) سورة الرعد [١١]

(٢) سورة الأنفال [٥٣]

(٣) سورة لقمان [٢٠]

(٤) سورة إبراهيم [٧]

(٥) سورة النحل [١١٢]

وقد من الله على الأمة الإسلامية بالاستخلاف والتمكين والتأمين تحقيقا لوعد الله :

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا»(١)

فلما انحرفوا عن طريق الله، وأصبح الكتاب فى أيديهم «تراثا» يدرسونه ولاينفذون مافيه، أصابهم ما أصابهم من الهوان والذل بدل الاستخلاف والتمكين، لأنهم غيروا ما بأنفسهم فغير الله لهم ؛ ولايعود لهم ما فقدوه إلا بتغيير ما بأنفسهم مرة أخرى، والعودة الصادقة إلى الله.

●●●

من سنن الله كذلك أنه ينصر الحق ويزهق الباطل، ولكن لابد من وجود جنود يؤمنون بالحق وينصرونه فينصرهم الله. وليس الله سبحانه وتعالى عاجزا عن نصرة الحق بغير الأدوات البشرية، وهو الذى يقول للشىء كن فيكون، إنما هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجرى سنته :

«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»(٢)

«ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلو بعضكم ببعض»(٣)

«هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين»(٤)

---

١) سورة النور [٥٥]

٢) سورة القتال [٧]

٣) سورة القتال [٤]

٤) سورة الأنفال [٦٢]

ولابد أن تكون قلوب أولئك الجنود مؤتلفة:

«هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين، وألف بين قلوبهم» (١)

ولابد أن يكونوا صادقى التوكل على الله:

« يا أيها النبى حسبك الله، ومن اتبعك من المؤمنين»(٢) (أى: أنت أيها النبى حسبك الله. ومن اتبعك من المؤمنين كذلك حسبهم الله).

وأن يكونوا قد نذروا أنفسهم لله:

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم»(٣)

وتلك كلها - وغيرها - من الأدوات التى يستلزمها انتصار الحق حسب سنة الله، فلا يأتى القوم خاوين منها ويقولوا: انصرنا يارب! لمجرد أنهم مؤمنون، أو لمجرد دعواهم بأنهم مؤمنون!

●●●

وإن يكن من سنة الله نصر الحق حين يستكمل أهل الحق أدوات النصر، فمن سنته كذلك تداول النصر والهزيمة لحكم شتى:

«وتلك الأيام نداولها بين الناس»(٤)

ففى أحد هزم المؤمنون لمخالفتهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم انشغالا بالغنائم وخوفا عليها، ويوم حنين هزم المؤمنون فى أول

---

(١) سورة الأنفال ٦٢ - ٦٣]

(٢) سورة الأنفال [٦٤]

(٣) سورة التوبة [١١١]

(٤) سورة آل عمران [١٤٠]

المعركة لاعتدادهم بكثرتهم وركونهم إلى هذه الكثرة بدلا من التوكل الحق على الله. وفى كلتا الحالتين كانت الهزيمة درسا تربويا وعاه المؤمنون فى أعماق مشاعرهم فلم يعودوا إلى مثله. وفى كل مرة تكون هناك أسباب ويكون لله فى قدره حكمة، ولكن تبقى سنة التداول ماضية فى الأرض إلى يوم القيامة، لأنها مشيئة ربانية يجرى بها قدر الله فى الأرض، أيا كانت الأسباب والملابسات.

●●●

تلك نماذج من السنن العامة التى تجرى بها الأمور فى الحياة البشرية، وإن كانت تخص المؤمنين بأحوال وتخص الكافرين بأحوال، ولكنا سبق أن أشرنا إلى وجود سنن خاصة، أى أنها تجرى مع المؤمنين وحدهم ولا تجرى مع الكفار، أو تجرى مع الكفار وحدهم ولا تجرى مع المؤمنين. ونلم هنا بأبرز نماذجها.

فالكفار يمكنون فى الأرض رغم عصيانهم - بسنة من سنن الله - بل قد يزدادون تمكينا كلما زادوا كفرا، إلى أن يأتى أجلهم المقدر لهم فى قدر الله فيدمر عليهم. أما المؤمنون فلا يمكن لهم إلا إذا استقاموا على الطريق:

«فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين

ظلموا، والحمد لله رب العالمين»(١)

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا»(٢)

فالكفار نسوا ما ذكروا به ففتح الله عليهم أبواب كل شىء.. بما يحمله التعبير من كل صور القوة المتخيلة والتمكين: القوة المادية والحربية والسياسية والاقتصادية والعلمية.. إلخ (إلا بابا واحدا هو باب البركة والطمأنينة فإنه لايمنحه إلا للمؤمنين الذين تطمئن قلوبهم بذكر الله).. أما المؤمنون فاشترط عليهم لكى يمنحهم الاستخلاف والتمكين والتأمين أن يخلصوا له العبادة ويعملوا الصالح ولا يشركوا به شيئا.

وحقيقة أن الكفار لايمكنون لمجرد كفرهم، إنما - كما ذكرنا من قبل - بمقتضى سنن أخرى مرافقة، هى اجتهادهم لحيازة الدنيا، وبذل الجهد المطلوب لتسخير طاقات السموات والأرض وذخائرها، من علم وعمل وتنظيم وتخطيط، وجدية فى أخذ الأمور وتحمل التبعات... الخ.

ولكن عبرة السنة أن المؤمنين لاينصرون بهذه الأدوات ذاتها إذا

---

(١) سورة الأنعام [٤٤ - ٤٥]

(٢) سورة النور [٥٥]

حادوا عن طريق الله، ولايمكن لهم فى الأرض!

والحكمة فى هذا الأمر واضحة.. أو بعض الحكمة على الأقل.

فالكفار قال فى حقهم:

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لايبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ماكانوا يعملون»[1]

والمؤمنون هم حزب الله، الذين يدخر الله لهم الدار الآخرة. ولايحب لهم أن يفتنوا عنها، ولو مكن لهم مع معصيتهم لفتنهم! ولقالوا لأنفسهم: عصينا الله فنصرنا! فلا علينا من معصيته! فيزدادون انحرافا عن الطريق!

إنما يعاقب المؤمنون فى الدنيا بالذل والهوان والهزيمة إذا عصوا الله ولجوا فى معصيته، وإذا تركوا الجهاد فى سبيل الله بصفة خاصة:

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا ومخافة الموت»[2]

وعلى ضوء هذه السنة تتضح أمور كثيرة فى التاريخ.

---

(١) سورة هود [١٥-١٦].

(٢) أخرجه أحمد وأبو داود.

فتاريخ الجاهليات «العظمى!» يتضح كله على الفور.

فهذه أمم لا تعبد الله ـ تعبد أصناما أو أوثانا أو تشرك مع الله آلهة أخرى ـ ومع ذلك فهى ممكنة فى الأرض، ومفتوحة عليها كل الأبواب، لا لأن العقيدة الصحيحة فى الله لا وزن لها فى واقع الحياة، أو أن وجودها وعدم وجودها لايؤثر فى مجرى التاريخ، كما يوحى بذلك التفسير الليبرالى، وكما يقول ذلك بصراحة التفسير الجدلى، وإنما يجرى هذا بسنة من سنن الله، لها حكمتها عنده من الإملاء للكافرين ليزدادوا إثما، واستدراجهم من حيث لايعلمون، ثم التدمير عليهم فى النهاية حين يلجون فى الغواية ولا يستمعون إلى أوامر الله.. وفوق ذلك كله ـ وأهم من ذلك كله ـ مصيرهم فى الآخرة وهو النار خالدين فيها أبدا. وهذا المصير هو الذى يحرص العاقل أن يتجنبه، ويتجنب ما يؤدى إليه من الأعمال. ومع ذلك فإن العاقل ـ إن كان عاقلا حقا ـ ينبغى أن يتجنب مايؤدى فى الحياة الدنيا إلى المعيشة الضنك، وما يؤدى إلى هبوط الإنسان إلى المستوى الحيوانى، وما يؤدى فى النهاية إلى دمار قومه الذين ينتمى إليهم ولو لم يحدث الدمار إلا بعد أجيال.

كما أن هذه السنة تقدم التفسير الصحيح لما حل بالمسلمين. فليس الذى أصابهم هو التفاف البرتغاليين حولهم فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر الميلادي واستيلاءهم على طرق التجارة ونزعها من يد المماليك، ولا تزايد قوة أوروبا وتجمعها ضد الدولة العثمانية.. ولا.. ولا.. من كل الأسباب التى يفسر بها التاريخ الحديث، وهى كلها

صحيحة فى ذاتها، ولكن الذى أصابها قبل ذلك كله كان تزايد انحرافها عن طريق الله، وكانت كل الأسباب التى توضع لتفسير التاريخ فى الحقيقة نتائج لهذه العلة الأولى، متمشية كلها مع سنة الله مع المؤمنين، وهى عدم نصرهم ولا تمكينهم فى الأرض وهم منحرفون عن الطريق.

وتوضيح هذه الأمور للمسلمين، سواء بالنسبة لتاريخ الجاهليات، أو لتاريخ المسلمين، أمر على أعظم جانب من الأهمية حين ننظر إلى دراسة التاريخ - كما أشرنا فى المقدمة - على أنها درس تربوى فى الحقيقة وليس مجرد سردٍ لأقاصيص التاريخ! . .

●●●

كذلك من السنن الخاصة ابتلاء المؤمنين - قبل التمكين - من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ:

«ألم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين[1]».

«وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين»[2].

والابتلاء سنة عامة، سبقت الإشارة إليها فى صورتها العامة . . ولكنا نتحدث هنا عن سنة خاصة يختص بها الله المؤمنين - الذين

(١) سورة العنكبوت [١-٣]

(٢) سورة آل عمران [١٤٠-١٤١]

اتجهوا إلى الإيمان وساروا فى طريقه ـ ولا يجريها بصورتها تلك ولا لأهدافها تلك على الكافرين.

فهو ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب.. وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار..

أرأيت لو أن قائدا أراد إعداد جنوده للفوز فى معركة صعبة ضارية.. أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون لهم الإعداد، أم تكون الرحمة الحقيقية بهم أن يشدد عليهم فى التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التى يعدّهم من أجلها؟

والمؤمنون هم حزب الله وجنوده ـ ولله المثل الأعلى ـ والمعركة التى يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى : معركة الحق والباطل، التى ينصر فيها الله الحق على يد أولئك الجنود حسبما اقتضت مشيئته وجرت سنته :

والنتيجة المطلوبة من المعركة ليست مجرد النصر.. إنما هى بعد ذلك إقرار المنهج الربانى فى الأرض بكل المعانى والقيم التى يحملها ذلك المنهج، وهى هى الأمانة التى تعرض لحملها الإنسان بقدر من الله.

وحمل الأمانة ـ بعد الانتصار على الباطل ـ لا يصلح له كل الناس. إنما يحتاج لقوم مختارين، يعدون له إعدادا خاصا ليحسنوا القيام به. وقد علم الله أن الابتلاء هو الوسيلة. الوسيلة للتمييز أولا :

«ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب»[1]

والوسيلة للتمحيص والإعداد كذلك.

إن القوم المختارين لحمل الأمانة لن يحسنوا حملها حتى تتصل قلوبهم بالله، وتتعلق به وحده في السراء والضراء، وتتجرد له، فعندئذ يستطيعون أن ينفذوا هذا التوجيه الرباني:

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط، شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين، إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما. فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا. وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا»[2].

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط. ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى. واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»[3]

والابتلاء هو الإعداد الرباني لذلك كله. حيث يوضع المؤمن في الوضع الذي يحيط به الكفار، غالبين منتفشين بباطلهم، ضاغطين بكل قوتهم، ويلتفت حوله - وهو صاحب الحق - فلا يجد قوة واحدة في الأرض تنقذه من بين براثنهم، فيلجأ إلى الله وحده، ويتطلع إليه

---

١) سورة آل عمران [١٧٩]

٢) سورة النساء [١٣٥]

٣) سورة المائدة [٨]

وحده، ويتعلق قلبه به وحده، ويعلم أن لن ينقذه منهم إلا هو وحده، حين يقرر سبحانه بمشيئته وحده..

وعندئذ يتم له التمحيص، ويتجرد لله، فيحمل الأمانة على استواء.

أمر آخر يتم فى أثناء الابتلاء له علاقة و ثيقة بالإعداد لحمل الأمانة.. ففى الحياة الوادعة التى يحياها الإنسان فى معتاد حياته تبدو كثير من الأمور كأنها ضرورات لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها، فيشغل نفسه بتحصيلها، وينفق وقته فى ممارستها، ويتوزع جهده بينها وبين القيم التى قد يتجه إليها...

وفى المحنة يكتشف الإنسان أن كثيرا مما ظنه ضرورات: من الفراش الوثير والطعام الوفير وراحة الجسد وراحة البال وهدوء الأعصاب.. الخ.. الخ. قد انتزع منه انتزاعا ومع ذلك يعيش! بل يجد نفسه يعيش من أجل قيم أعلى، ويمارس مشاعر أشف وأصفى مما كان يمارس من قبل. فيتعلم - فى درس عملى - أن الحياة من أجل القيم العليا أثمن وأعلى بكثير من المتاع الزائل.. فإذا انتهت المحنة، وصار إلى التمكين فى الأرض، لم يشغله المتاع الزائل عن القيم العليا والجهاد من أجلها وبذل الجهد لها، و يتذوق قوله تعالى:

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ للذين

اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله . والله بصير بالعباد الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار»[1]

●●●

هناك دروس مستفادة من دراسة السنن، يعنى بإبرازها التفسير الإسلامى للتاريخ .

من أبرز هذه الدروس التركيز فى التفسير الإسلامى على إيجابية الإنسان وفاعليته فى داخل قدر الله ، واختلاف التفسير الإسلامى فى هذه النقطة عن كلا التفسيرين الغربيين، والتفسير المادى الجدلى بصفة خاصة .

فالتفسير الليبرالى يبرز إيجابية الإنسان وفاعليته ولكنه يكاد يلغى قدر الله . . أو إنه بالأحرى يعرض فاعلية الإنسان فى مقابل قدر الله . امتدادا للميراث الوثنى الذى يصور العلاقة بين البشر وبين الله علاقة صراع وخصام . فبمقدار ما يثبت الإنسان ذاته يكون ـ فى حسهم ـ قد ألغى قدر الله، وبمقدار ما يبرز قدر الله يكون ضعف الإنسان وفشله وانكساره . بينما التفسير الإسلامى يعطى المعادلة الصحيحة ـ كما بينا ـ بين فاعلية الإنسان وفاعلية قدر الله ، ويلغى التعارض الظاهرى بين هذه وتلك .

---

(١) سورة آل عمران [١٤ ـ ١٧]

أما الاختلاف الأكبر فى هذه النقطة فهو بين التفسير الإسلامى والتفسير الجدلى، الذى يلغى فاعلية الإنسان كلها، ويجعله عبدا ذليلا للحتميات.

فمما يلفت النظر فى قضية السنن فى هذا الصدد اختلاف سنن الله فى الكون المادى عن سننه فى الحياة البشرية.. والاختلاف الرئيسى هو أن سنن الله فى الكون المادى تجرى عن طريق القهر:

«ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا: أتينا طائعين»(1)

أما مع الإنسان فالشأن مختلف:

«وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر»(2)

ويشهد واقع التاريخ البشرى أن الناس منهم من اختار الإيمان ومنهم من يختار الكفر. وفى ذلك دليل - إن كان الأمر فى حاجة إلى دليل - على أن تركيب الإنسان غير تركيب المادة، وإن كان مكونا من قبضة من طين الأرض ابتداء، ولكن نفخة الروح العلوية فيه قد غيرت خواصه فلم يعد يتصرف كما تتصرف المادة.

وما كان الأمر فى الحقيقة فى حاجة إلى دليل، لولا الجدل الطويل العريض الذى يقيمه التفسير الجدلى حول قوانين المادة وانطباقها بحذافيرها على الحياة البشرية! وقياس الماديين أحوال الإنسان - من ثم - على أحوال المادة، وانتهاؤهم إلى جبرية القوانين التى تسير حياة

(1) سورة فصلت [11]
(2) سورة الكهف [29]

الإنسان، لا بمعنى ثبات السنن وعدم تغيرها كما يقول رب العالمين، ولكن بمعنى خضوع الإنسان خضوعا جبريا ذليلا للحتميات المادية وعدم حريته فى التصرف إزاءها.

وفى التفسير الإسلامى يتبدى الفارق واضحا بين سنن الله فى الكون المادى وسننه فى الحياة البشرية، ذلك الفارق الناشئ من خلق الله للإنسان على نحو يختلف عن خلقه للمادة، وإعطائه من لدن خالقه فاعلية وإيجابية، وعدم قهر السنن الربانية له على سلوك معين، بل يختار ما يختار لنفسه ثم يتحمل فى كل مرة نتيجة اختياره، وفى ذلك تكريم للإنسان يأباه عليه التفسير المادى، حين يصر على رده إلى المادة، ونفى النفخة العلوية عنه، وإجراء قوانين المادة عليه بكل جبريتها وقهرها!

●●●

من الدروس المهمة كذلك إبراز جدية الحياة البشرية وخلوها من العبث..

إن رؤية الحياة البشرية بغير السنن الربانية التى تحكمها ـ وهو ديدن الجاهلية ـ[1] يؤدى إلى العبثية التى انتهى إليها فكر «سارتر» فى الجاهلية المعاصرة، وهى ذاتها التى انتهى إليها فكر الجاهلية العربية من قبل كما ورد ذكرها فى القرآن الكريم:

«نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر»[2]

---

(١) ربما كانت الجاهلية الوحيدة التى أبرزت «معسونا» للتاريخ هى المادية الجدلية ولكنها ـ كما رأينا ـ أخرجت الإنسان من أخص خصائصه وهى «إنسانيته»! وجعلته مادة!

(٢) سورة الجاثية [٢٤]

وحين تتضح للإنسان - من خلال رؤيته للسنن الربانية - جدية الحياة البشرية، وانتظام جريان السنن فيها، فلابد له - إذا استقام تفكيره - أن ينتهي إلى حقيقتين رئيسيتين: حقيقة الألوهية، وحقيقة اليوم الآخر.

فهذه السنن المنتظمة تنفي - بذاتها - أن تحدث الأمور صدفة، أو اعتباطا، أو بغير موجد، وتشهد - كما تشهد السنن الكونية من جانبها - بوجود خالق مدبر حكيم، ذي قدرة وقصد، فعال لما يريد.

فأما الطبيعة - إله دارون - التي قال عنها إنها تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق، فقد عاد فقال إنها تخبط خبط عشواء، وإنه لا قصد لها من الخلق ولا غاية، فجردها من العلم والحكمة والتدبير والرعاية، ذلك وهو يتكلم عن اطراد السنة التي زعم أن الخلق جرى بمقتضاها وهي سنة التطور!

أما التفسير الإسلامي فهو يبرز - من خلال رؤيته للسنن التي تحكم الحياة البشرية، والسنن التي تحكم الكون المادي كذلك - وجود الخالق، وهيمنته، واتصافه - سبحانه - بالقصد والإرادة، والعلم والحكمة، والقدرة التي لا يعجزها شيء.

كذلك فإن الإيمان بجدية الحياة البشرية وانتظام السنن فيها لابد أن يؤدي إلى الإيمان باليوم الآخر. فبدون اليوم الآخر، وما يشتمل عليه من بعث ونشور، وحساب وجزاء، لا تتحقق للحياة البشرية الجدية التي تؤكدها السنن.

فلو كانت حياة المحسن تنتهى كما تنتهى حياة المسيىء، كلاهما تنتهى حياته بانتهاء عمره المحدود فى الحياة الدنيا ثم ينتهى كل شيء... فما أشد عبثية هذه الحياة وما أظلمها.. وما أبعدها عن الجدية من بدئها إلى منتهاها! فكم من محسن يعيش حياته كلها مبتلى واقعا تحت حكم الطاغوت، وكم من مسيىء يظل فى طغيانه حتى لحظة الموت.. فأين العدل إذن، وأين الجدية، وأين الغاية والقصد؟

إنما يتحقق العدل والجدية، ويتحقق القصد والغاية، حين يكون هناك بعث، ونشور، وحساب وجزاء. وهذا الذى يجعل أولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، يفيئون من تفكيرهم إلى الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب و جزاء، وجنة ونار، فيسارعون إلى الضراعة إلى ربهم أن يجنبهم النار ويدخلهم الجنة:

«إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا! سبحانك فقنا عذاب النار! ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار، ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار. ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا

تخلف الميعاد، فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض. . » (١)

أما الذين انطمست بصائرهم فلم يروا سنن الله فهؤلاء يقال لهم:

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار. أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض؟ أم نجعل المتقين كالفجار؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته، وليتذكر أولو الألباب» (٢)

وهكذا تؤدى دراسة السنن إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، فتتصل اتصالا مباشرا بالعقيدة، بينما هى دراسة موضوعية لخطى التاريخ البشرى فى الأرض. . وذلك من حكم التوجيه الربانى لدراسة التاريخ.

●●●

ولكن لعل أهم الدروس المستفادة من دراسة السنن أن الإيمان ليس دعوى. . إنما هو واقع سلوكى مشهود فى واقع الأرض. .

«ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب. من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا» (٣)

إن هذا الدين لم ينزل ليكون عقيدة مستسرة فى ضمير البشر، ولا

---

(١) سورة آل عمران [١٩٠ - ١٩٥]

(٢) سورة ص [٢٧ - ٢٩]

(٣) سورة النساء [١٢٣ - ١٢٤].

ليكون صلة بالعالم الأخروى فحسب.. إنما نزل لمهمة يؤديها فى الأرض:

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط»[1]

وقيام الناس بالقسط له سنن ربانية تحكمه، ليس منها التمنى مع القعود! وليس منها أن يقول الإنسان للشيء كن فيكون! إنما الشأن بالنسبة للبشر هو الكدح الذى يؤدى نتيجته حسب العقيدة المصاحبة له، وحسب السنن التى تجرى من خلالها الحياة البشرية، وهذه السنن دقيقة كل الدقة، منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تجامل ولا تحابى، ولا تتأثر بالأمانى الطيبة. إنما تتأثر بالأعمال، وهى فى دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء[2]

حدث فى أثناء اكتشاف توابع الشمس[3] أن رؤى أحد الكواكب بالمنظار الفلكى، ولكن مجاله الذى رصده المنظار كان مخالفا لتقدير الفلكيين الذى قدروه له بحساب حجمه، وبعده عن الشمس، وبعده عن الكواكب الأخرى التى كانت قد كشفت فى ذلك الوقت.. فرجح الفلكيون أن يكون هناك كوكب آخر أبعد منه، لا تدركه مناظير ذلك الزمان، يدور فى فلك معين، يؤثر فى مجال هذا الكوكب الذى رصدوه. وبالفعل سعى الفلكيون إلى صناعة منظار أبعد مدى، فوجدوا الكوكب الجديد فى الموضع الذى قدروه له بمقتضى حساباتهم

(١) سورة الحديد [٢٥]

(٢) قد جرت هذه السنن الكونية بحكمة وبقدر، وكذلك [illegible] سنن البشرية بحكمة

(٣) توابع الشمس هى الكواكب المعروفة ومنها الأرض والزهرة والمريخ.. الخ

الفلكية المبنية على دقة الفلك وانضباطه وعدم تذبذب قوانينه .

والسنن الربانية فى الحياة البشرية دقيقة تلك الدقة، منضبطة ذلك الانضباط، وهى تعمل مجتمعة كما أسلفنا القول، فيكون من حصيلتها فى الحياة البشرية ما هو كائن بقدر الله .

ومن ثم فإنه لابد من العمل بمقتضى السنن الربانية للوصول إلى النتائج المحددة المطلوبة . ومخالفة السنن لا يتأتى عنها إلا النتائج المنصوص عليها فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولقد أدرك هذه الحقيقة مفكر غير مسلم، هو «ألكسيس كاريل» حيث يقول فى كتابه «الإنسان ذلك المجهول» :

«قبل أن أبدأ هذا الكتاب كنت أدرك تماما صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريبا، ولكنى شرعت فيه لأننى كنت أعلم أن شخصا ما لابد سيؤديه . . لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية فى مجراها الحالى، لأنهم آخذون فى التدهور والانحطاط . لقد فتنهم جمال علوم الجماد . إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم يتعرض للقوانين الطبيعية -[1] وهى قوانين أكثر غموضا وإن كانت تتساوى فى الصلابة مع القوانين الدنيوية[2] - كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم»[3] .

« . . نحن وحدنا المسئولون، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع

---

(1) يقصد السنن الربانية التى تحكم الحياة البشرية

(2) يقصد السنن الربانية التى تحكم الكون المادى

(3) ص ١٠ - ١١ من الترجمة العربية - ترجمة شفيق أسعد فريد طبع مكتبة المعارف بيروت

والمشروع . . لقد نقضنا قوانين الطبيعة، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائما . . إن مبادىء «الدين العلمي» والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو «الحقيقة البيولوجية» . . فالحياة لا تعطى إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة . . هي إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار، لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا، فقبلنا هدايا إياها جميعا بلا تمييز ولا تبصر . ولقد أصبح الفرد ضيقا متخصصا، فاجرا، غبيا، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته»(١)

والمسلمون أولى أن يدركوا سنن ربهم، التي أبرزها لهم إبرازا في كتابه المنزل وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

أولى لهم أن يحسموا تلك القضايا التي أنبتها الفكر الدخيل في عقائدهم وتصوراتهم، ويعودوا فيستمدوا عقيدتهم وتصوراتهم من منابعها الأصيلة : كتاب الله وسنة رسوله وسيرة السلف الصالح الذي تلقى هذا الدين من كتاب الله وسنة رسوله مباشرة بغير فكر دخيل .

إن فكر المرجئة، الذين يقولون إن الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار، وإن العمل خارج عن مسمى الإيمان، هو فكر مصادم مصادمة مباشرة للسنن الربانية .

وإن فكر المتواكلين الذين يضربون على صدورهم ويقولون إن ربك

---

(١) ص ٣٢٢ من الترجمة العربية .

رب قلوب، وما دام قلبك عامرا بالإيمان فلا يهمك العمل! فكر مصادم للسنة الربانية.

وإن فكر القاعدين الذين يقولون إن ربنا سينصرنا بنيتنا الطيبة، فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن أعداء الإسلام ـ من صليبيه عالمية، ويهودية عالمية وإلحاد وشيوعية ـ ستحرقهم الصواعق ويتخطفهم الطير و«المسلمون» واقفون يتفرجون عليهم بغير عمل يعملونه، ولا عدة يعدونها، لمجرد أن أولئك كفار وأن المسلمين مسلمون.. فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن الله سينصرهم دون أن يغيروا ما بأنفسهم من بعد عن طريق الله تصورا وسلوكا.. فكر مصادم للسنن الربانية.

وإن فكر الذين يتصورون أن أى إسلام يمكن أن يجزئ فى معركة الحق والباطل فى مرحلتها الراهنة ـ التى تكتلت فيها كل قوى الجاهلية لمحاولة القضاء على الإسلام ـ ولو كان إسلاما ناقصا، أو محرفا، أو مشوها، أو مبتدعا.. فكر مصادم للسنن الربانية.

والصحوة الإسلامية بالذات هى التى عليها أن تعى هذا الدرس، سواء فى الدعوة إلى هذا الدين، أو فى تربية الجيل الذى تعده لمعركة الحق والباطل.. لكى يسدد الله خطاها، وتنجح فى مهمتها الشاقة.

إن رحمة الله قريب من المحسنين.. ولكن المحسنين هم الذين يسيرون فى طريق الله على بصيرة:

«قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى»[1]

ولن تكون بصيرة بغير تدبر فى كتاب الله . . وفى السنن التى تجرى بها الحياة البشرية بقدر من الله . .

ولا حرج على فضل الله إن أراد أن يستخدم سنته الخارقة فإنه يستخدمها سبحانه حين يشاء وكيف يشاء . ولكننا نحن مأمورون أن نتبع السنن الجارية . . تلك السنن التى تقول :

«ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض»[2]

والتى تقول :

«إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم»[3]

والتى تقول :

«هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم»[4]

والتى تقول :

« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم»[5]

والتى تقول :

«والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين»[6]

---

١) سورة يوسف [١٠٨]

٢) سورة القتال [٤]

٣) سورة القتال [٧]

٤) سورة الأنفال [٦٢ - ٦٣]

٥) سورة الأنفال [٤٦]

٦) سورة العنكبوت [٦٩]

الإنســان والضرورات

كلا التفسيرين الجاهليين يصور الإنسان خاضعا للضرورات. ومن ثم يثقل «الأمر الواقع» فى حسهما، ويرى كل منهما - من زاوية رصده - أن ما وقع بالفعل لم يكن يمكن أن يحدث غيره، لأنه هو محصلة الضرورات المحيطة بالإنسان، فى الزمان المعين والمكان المعين.. والضرورات لها قوة القهر، والإنسان ليس له إلا الخضوع!

فأما التفسير الجدلى فهو واضح تماما فى هذا الشأن، فهو يقيم تصوره كله على أساس القهر الواقع على الإنسان من ظروفه الاقتصادية والطور التاريخى الذى يعيشه، ويقرر أن هاتين الحتميتين هما اللتان تحددان له كل شىء فى حياته: فكره ومشاعره وعقيدته وأنماط سلوكه وأخلاقياته ومؤسساته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وفنه و المصطلحات اللغوية التى يستخدمها!

ويرسم الماديون بمقتضى هذا التصور أطوارا تاريخية حتمية قهرية، لابد أن تمر بها البشرية أرادت أم أبت، هى الشيوعية الأولى، والرق، والإقطاع، والرأسمالية، والشيوعية الثانية والأخيرة.

ثم يرسمون لكل طور قوالبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والشعورية والأخلاقية والسلوكية . . إلخ، ثم يصبون الناس خلال التاريخ فى هذه القوالب صبا، فتعرفهم بسيماهم! هذا إنسان من المشاعية الأولى، وهذا من عهد الرق، وهذا من عهد الإقطاع، وهذا من عهد الرأسمالية، وهذا من عهد الشيوعية الثانية . . كما تعرف الناس فى متحف الشمع من صورهم الأصلية المحفوظة فى ذاكرتك! ولكن مع الفارق! فالذين تعرفهم فى متحف الشمع «أشخاص» بأعيانهم، أما الذين يقدمهم لك التفسير الجدلى فهم «أنماط طبقية»، والناس فى داخل الطبقة الواحدة كلهم نمط واحد، لا يفترق بعضهم عن بعض، لأنهم مصبوبون فى قالب طبقتهم، لا ينقصون عنه ولا يزيدون! وبحكم وجودهم فى طبقتهم فهم يتخذون فكرها وعقيدتها وأنماط سلوكها ومواقفها . . ولا خيار لهم فى ذلك، ولا قدرة لهم على المخالفة ولا التغيير، لأن وجودهم هو الذى يحدد لهم فكرهم ومشاعرهم، وليس فكرهم ومشاعرهم هو الذى يحدد لهم وجودهم!

أما التفسير الليبرالى فقد يكون أقل حدة . . لأن متكأه هو الفرد - وليس الطبقة - فهو معنى بالفروق الفردية أكثر من عنايته بالكيان الطبقى المشترك . ولكن الفرد الذى هو معنى به ليس أرقى كثيرا من زميله هناك فى التفسير الجدلى! فهو محكوم «بظروف البيئة» و«بالأوضاع التاريخية» و«الأفكار السائدة» فى عصره . . فهل تفترق هذه كثيرا عن الحتمية المادية والحتمية الاقتصادية والحتمية التاريخية التى يقول بها التفسير المادى؟!

ثم يضيف التفسير الليبرالى ضرورات أخرى على ضوء ما تفرزه مدارس علم النفس المختلفة، كلها تبرر للإنسان قصوره وانحرافه وخضوعه «للضرورات» . . فيصبح كل شيء مبررا في النهاية : الفساد الخلقي، والفساد الاجتماعي، والفساد الاقتصادي، والفساد السياسي، والفساد الفكري . .

وفي جميع الحالات يسقط «الإنسان»!

وسواء سقط في حمأة العبودية لغير الله، أو حمأة الظلم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، أو حمأة الجنس، أو حمأة الخمر والمخدرات والجريمة فسيجد على الفور شهادة «البراءة» يقدمها له هذا التفسير أو ذلك التفسير! أنه لم يكن في وسع الإنسان أن يكون إلا كما كان!

●●●

ثم نحاول أن نقرأ التاريخ على ضوء هذا التفسير أو ذاك . . هل حقا كان تاريخ الإنسان كله خضوعا للضرورات؟!

كيف إذن ظهر الإسلام؟!

أي «ضرورة» قاهرة أخرجت هذه العقيدة إلى الوجود؟ وأي ضرورة قاهرة جعلت الإسلام يشتمل على ما اشتمل عليه، ويقوم بما قام به؟

هل كان نبذ الشرك والتوجه بالعبادة إلى الله الواحد الحق ضرورة مادية أو اقتصادية أو تاريخية؟ وما تلك الضرورة؟

ونحن بطبيعة الحال لا نأخذ تقديرهم هم لهذا الأمر، فهم يجعلونه - لغايات معينة في نفوسهم - قضية هامشية في تاريخ البشرية، ونحن

نعتبرها مرتكزا رئيسيا، بل نعتبرها - كما وجهنا ربنا - هى المرتكز الرئيسى فى حياة البشرية. ولكننا نأخذ الأمر من ناحية أنه ظاهرة تاريخية، شملت - كما قلنا من قبل - مساحة كبيرة من الزمن، ومساحة كبيرة من الأرض.. فكيف نفسرها من منطلق الضرورات القاهرة التى تشكل حياة الإنسان؟!

ثم إنه فى الإسلام ينزع حق التشريع من البشر، وتحكم شريعة الله. وينتقض المبدأ الذى وضعه التفسير المادى - ولا يعترض عليه التفسير الليبرالى بحكم الأمر الواقع - وهو كون الذى يملك هو الذى يحكم وهو الذى يشرع[1].. وحين يشرع فإنه يعمل لصالح طبقته على حساب الطبقات الأخرى. فإنه لا توجد طبقات أصلا فى التطبيق الصحيح للإسلام، وإن وجد أغنياء وفقراء فى المجتمع[2].. ثم إن البشر ليسوا هم الذين يشرعون - لا أغنياؤهم ولا فقراؤهم - إنما يشرع الله، ويقوم البشر - حاكمهم ومحكومهم - بتنفيذ شريعة الله.

فما الضرورة التى أملت هذا الوضع، وهو لم يوجد حتى هذه اللحظة إلا حيث يعتنق الإسلام؟!

ونحن فى هذا الأمر كذلك لا نأخذ تقديرهم هم، فنحن -

---

(1) يصدق هذا المبدأ على كل جاهليات التاريخ، ولا ينقض إلا فى حالة واحدة، هى تحكيم شريعة الله.

(2) الطبقة فى الاصطلاح الجدلى وضع اجتماعى اقتصادى سياسى يورث جيلا بعد جيل، وليس وضعا فرديا قابلا للتغيير. وهذا الوضع الطبقى يتعلق فى الحقيقة بقضية التشريع، فالمالكون هم حق التشريع وغير المالكين عليهم التنفيذ. أما الغنى والفقر فى المجتمع الإسلامى فليس طبقة لأنه لا تتعلق به حقوق تشريعية.

بمقتضى إسلامنا ـ نعتبره مفرق طريق، يفرق بين منهج للحياة ومنهج، ونوع من الحياة ونوع، فى الدنيا والآخرة على السواء؛ بينما هم ـ لأنهم لا يؤمنون به ـ لا يقدرونه حق قدره، ويعتبرونه مجرد وضع من الأوضاع التشريعية القائمة فى الأرض. ولكننا ننظر إليه من ناحية أنه حدث تاريخى وقع بالفعل، فهل كانت هناك ضرورة ملجئة ـ من حتميات المادة أو حتميات التاريخ ـ اقتضت نزع التشريع من البشر ورده إلى الله؟!

وكان العرب شتيتا متناثرا يملك كل أسباب التجمع ولا يتجمع!

يملك وحدة الأرض، ووحدة اللغة، ووحدة الجنس، ووحدة المعتقدات، ووحدة الثقافة، ووحدة التقاليد. ولكن تمنعه القبلية بثاراتها وغاراتها، وحزازاتها ومنافساتها، أن يتجمع فى كيان واحد.

وكانت هناك قضايا وطنية أو قومية تتعلق بالاحتلال الفارسى لجزء من جزيرة العرب فى الجنوب، والاحتلال الرومانى لجزء من الجزيرة فى الشمال، ولكنه لا يثير قومية العرب، ولا يدفعهم إلى التجمع لطرد الاستعمار، بل يجد «ملوك» العرب راحة فى هذا الوضع تحت ظل الاحتلال الأجنبى. ويهتمون بسلطانهم الشخصى أكثر مما يحركهم الدافع القومى.

وكان هناك طغيان اقتصادى لبعض القبائل ـ على رأسها قريش ـ وفقر مدقع تعيش فيه قبائل أخرى، كما كان فى كل قبيلة أغنياؤها وفقراؤها، وطغيان من أغنيائها على فقرائها، فلا يحرك هذا الأمر أحدا

لتصحيح الأوضاع، وإيجاد نوع من التوازن بين الأغنياء والفقراء فى القبيلة الواحدة، فضلا عن أن يكون بين القبائل بعضها وبعض . .

ثم جاء الإسلام فحقق ذلك كله . .

حقق التجمع فى كيان واحد، وحقق طرد الاحتلال الأجنبى من شمال الجزيرة وجنوبها، وحقق التوازن الاجتماعى والاقتصادى بين سكان الجزيرة جميعا، بغير باعث ذاتى من العرب أهل الجزيرة. بل الذى يلفت النظر أن الإسلام لم يناد بأى قضية من هذه القضايا القومية أو الوطنية أو الاجتماعية لينشئ التجمع! إنما نادى بقضية واحدة أساسية هى قضية لا إله إلا الله، وعبادة الله وحده بلا شريك.

ثم كان من أمر هذه القضية ـ التى قام التجمع عليها وحدها خالصة من أى اختلاط بغيرها ـ أنها هى التى حققت كل القضايا الأخرى التى لم تكن من قبل شاغلا محركا لأحد على الإطلاق! ثم إنها لم تحققها على الأساس القومى أو الوطنى أو الاجتماعى الذى كان يمكن ـ جدلا ـ أن يتحقق من جانب العرب فى يوم من الأيام، إنما على أساس مختلف تماما: على أساس العبودية الخالصة لله وحده دون شريك، ومن ثم تحقيق منهجه فى الأرض، المشتمل على تصحيح الأوضاع الفاسدة كلها فى كل الأرض!

وكان من تلك الأوضاع الفاسدة أن المرأة كانت هملا لا حساب له ولا وزن، تورث ولا ترث، ولا يؤخذ لها رأى فى زواج أو خطبة، إلا أن تكون ذات ثروة فتحترم لثروتها لا باعتبار إنسانيتها! فإذا مات

زوجها لطخت رأسها وثيابها بالطين وبقيت أسيرة فى أهل زوجها حتى يطلقوها ـ إن شاءوا ـ أو يستولى عليها واحد منهم! فضلا عن الفساد الخلقى والإنسانى الذى يجعل المرأة «أداة» من أدوات الاستمتاع الحيوانى.

ثم جاء الإسلام فألغى هذا كله بغير الأداة التى يعتبرها التفسير المادى هى الأداة الوحيدة للتغيير، وهى «الاستقلال الاقتصادى» للمرأة! إنما على أساس «إنسانى» بحت، يعطى المرأة حقوقها الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية من منطلق أنها «إنسان» لا «سلعة» ولا «شىء»..

فما «الضرورة» التى أدت لهذا كله؟!

وكان من تلك الأوضاع الفاسدة كذلك أن الرقيق كان فى مرتبة أدنى من مرتبة الحيوان.. فالحيوان ـ بحكم حاجة صاحبه إليه لينتفع به ـ يجد الطعام والراحة، ويجد الرعاية التى تكفل له حياته، أما الرقيق ـ فبالرغم من حاجة صاحبه إليه لينتفع بجهده ـ لا يجد من وسائل الرعاية ما يجد الحيوان. فيجوز لصاحبه قتله وضربه وتعذيبه وحبسه وتوقيع كل أنواع الإساءة والتحقير عليه، بلا تأثم ولا تحرج، وأشهر أمثلة ذلك الرقيق الرومانى، الذى كان معاصرا لظهور الإسلام.

ثم جاء الإسلام فأعطى الرقيق وضعه «الإنسانى» بادئ ذى بدء، وعمل على تحريره بالعتق والمكاتبة ـ بعد أن حرره من الداخل بإحسان

معـاملتـه[1]ـ وجفف منابع الرق كلها إلا رق الحرب، الذى جعله بدوره يمر فى قنوات التحرير كلها بعد أن يعيش فترة فى المجتمع المسلم فتتطهر نفسه من أرجاس الجاهلية والشرك.[2]

فما الضرورة الملجئة إلى هذا التعامل الإنسانى مع الرقيق، الذى لم تفئ الجاهلية الأوروبية إلى مثله حتى الثورة الفرنسية ؟! والذى ما تزال الهند إلى هذه اللحظة عاجزة عن الارتقاء إليه فى معاملة «المنبوذين»؟!

إن مبدأ خضوع الإنسان الدائم للضرورات القاهرة لا يفسر لنا شيئا من أمور الإسلام!!

●●●

ونهبط درجـات من مرتقى الإسلام العالى إلى الجاهليات ذاتها، فنجد المبدأ فاسدا كذلك!

فإذا كان تاريخ الإنسان هو تاريخ خضوعه للضرورات القاهرة كما يقول التفسيران الماديان، فكيف نفسر الثورات؟

ولسنـا نتحـدث هنـا عن نجاح الثورة أو عدم نجاحها كما فعل

---

١) كان الإنجاز الإسلامى فى تحرير الرقيق أعمق أثرا وأكثر أصالة من الإجراء السطحى الذى اتخذه أبراهام لنكولن فى أمريكا بتحرير الرقيق بجرة قلم دون إعداده قبل ذلك للحرية، أى لتحمل مسؤولية نفسه بعد أن يتحرر، لذلك اضطربت حياة المحررين وعاد كثير منهم إلى الذين كانوا يسترقونهم وقالوا لهم خذونا عندكم مرة أخرى أرقاء. أما الإسلام فقد حررهم من الداخل فاستساغوا الحرية حين حصلوا عليها.

٢) اقرأ إن شئت، فصل الإسلام والرق فى كتاب «شبهات حول الإسلام» مع قراءة مقدمة الكتاب ـ الطبعة السابعة فما بعدها.

التفسير الجدلى، هروبا من مواجهة قضية تنقض مبادئه وتفسيراته، إنما نتحدث عن الثورة فى ذاتها سواء نجحت أم لم تنجح!

لقد قال التفسير الجدلى إن الثورة الناجحة هى التى توافق التغير الاجتماعى الاقتصادى المادى المتوائم مع أهدافها، فتجد بذلك المناخ الملائم لنجاحها فتنجح، وتعدل بنجاحها مسار البشرية، فتنقلها من طور إلى طور، وتحرر قوى كانت مكبوتة، وتقتص من قوى كانت مسيطرة متحكمة.

وما نريد أن نجادل كثيرا فى هذا الأمر، فلنسلم به توفيرا للجدل مع التفسير المادى.

إنما الذى يعنينا هنا كما قلنا هو مبدأ الثورة فى ذاته - نجحت أم لم تنجح - فإن عدم نجاحها لا ينفى دلالتها النفسية، بل لعله يؤكدها! فإن الذى يثور دون أن يدرس الظروف المحيطة به، وهل هى موائمة لثورته أم غير موائمة، أبلغ دلالة فى ثورته على أنه لم يطق الخضوع للضغوط الواقعة عليه، من الذى حسب الظروف والملابسات ثم ثار!

إن ثورة الرقيق الرومانى التى قادها «سبارتاكوس» لم تنجح، لأن الظروف المادية والاقتصادية والاجتماعية فى الجاهلية الرومانية يومئذ لم تكن تؤدى إلى نجاحها. وصلب سبارتاكوس نفسه، وعذب عذابا بشعا لا يطيق وصفه أحد، فضلا عن أن يطيق احتماله أحد، ولكن تبقى دلالة الثورة كما هى رغم فشلها فى تحقيق أهدافها.

لماذا يثور الإنسان إذا كان قدره فى الأرض أن يخضع للضرورات

المفروضة عليه من خارج كيانه؟

إن الثورة لها دلالة واضحة هى عدم خضوع الإنسان لما هو واقع عليه من الضغوط. أما نجاح الثورة أو فشلها فشىء آخر يتعلق بأمور كثيرة فى وقت واحد[1] بل إنها تحمل دلالة أخرى واضحة كذلك هى الرغبة فى تغيير أوضاع يرى الإنسان أنها ظالمة، وأنه لا ينبغى أن يخضع لها، واستبدال أوضاع أخرى بها، تكون أكثر ملاءمة وأنسب للكيان الإنسانى وأكثر تحقيقا للحق والعدل.

وخلاصة الأمر فى جميع الأحوال أن لدى الإنسان أداة للرفض، وليس الموقف الوحيد الذى يقفه هو موقف الإذعان!

●●●

لايزعم التفسير الإسلامى أن الإنسان يرفض الخضوع للضغوط الواقعة عليه أبدا، وأنه دائما يقهر الضرورات ولا تقهره أبدا، فذلك زعم يجافى الواقع الذى عاشه الإنسان ووعاه التاريخ.

ولكن يقول التفسير الإسلامى فى هذا الشأن مقالتين.

المقالة الأولى أن الضغوط تؤثر من داخل النفس البشرية، لا من خارج كيانها. فالضغوط المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية ما كان لها أن تحدث أثرا فى حياة الإنسان أو تشكل حياته لولا تحولها إلى ضغوط فى داخل نفسه، وذلك من خلال المكونات

---

(١) سنشير إلى بعض هذه الأمور فيمايلى من هذا الفصل.

الفطرية لهذه النفس، أو بعبارة أخرى من خلال شهوات النفس ورغائبها ومخاوفها، وفى مقدمتها حب السلامة والأمن، والخوف من الأذى، وكراهة الموت، وهذه هى الضغوط الحقيقية التى تستعبد الإنسان من داخل نفسه، والتى يستغلها الطغاة خلال التاريخ كله لإذلال الناس لطغيانهم.

«إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا، إلا المصلين. . »[1]

ونؤجل الحديث الآن عن الاستثناء الوارد فى الآية لنعود إليه بعد قليل، ونقول الآن إن هذا هو الغالب على أحوال الناس فى الأرض.

إنهم فى هلع دائم على حياتهم يخافون أن يصابوا بسوء؛ يخافون أن يفوتهم المتاع، أو تفوتهم الحياة ذاتها، فيتشبثون بها، ويرضون فى سبيل المحافظة عليها بما يتعرضون له من ضغوط خارجية، أو يتحملونها كارهين دون أن يثوروا عليها أو يحاولوا تغييرها، لأن الثورة عليها أو محاولة تغييرها تعرضهم لغضب أصحاب السلطان، فتعرضهم بالتالى للأذى المخوف، أو لما هو أشد منه وهو فقدان الحياة. وبصرف النظر مؤقتا عن تصنيف الضغوط الداخلية التى تنشأ فى داخل النفس من الضغوط الخارجية، لنتبين منها ما هو ضرورة قاهرة بالفعل، وما هو ضرورة ولكن يمكن الاستغناء عنها دون ضرر يذكر، وما هو منها

(١) سورة المعارج [١٩ - ٢٢].

خارج دائرة الضرورة وإن خيل للإنسان فى بعض الأحيان أنه لايمكن الاستغناء عنه.

بصرف النظر مؤقتا عن هذا التصنيف (وإن كنا سنرجع إليه) فإننا نسأل: إذا كان هذا حال معظم البشر، هلوعين جزوعين، حريصين على الأمن والسلامة ولو أسلمهم ذلك إلى الذل والخضوع لذوى السلطان، فما الفرق بين مقالة التفسير الإسلامى ومقالة التفسير المادى الذى يصور الناس خاضعين أبدا للضغوط المادية والاقتصادية لا يملكون منها فكاكا؟ أليست الحصيلة النهائية واحدة فى الحالين، والواقع واحدا بالنسبة لكلا التفسيرين؟

ونبادر بالنفى.. فالحصيلتان مختلفتان فى النهاية، والواقع ليس واحدا بالنسبة لكلا التفسيرين.

إنه حين تكون الضغوط خارجية.. مادية أو اقتصادية أو تاريخية، أو أيا ما كانت، وتكون مؤثرة بذاتها من الخارج تأثيرا قهريا.. فهنا تصبح المسألة «حتمية» كما يصورها التفسير المادى، وتصبح لعنة مكتوبة على البشر لا فكاك لهم منها ولا انعتاق!

أما حين تكون الضغوط الخارجية غير مؤثرة بذاتها تأثيرا قهريا من خارج النفس، إنما تتخذ ضغطها من خلال شهوات النفس ورغائبها ومخاوفها، وهى مسألة قابلة للتعديل إذا خالطتها أمور معينة أبرزها العقيدة الصحيحة فى الله.. فعندئذ لا تصبح المسألة حتمية، ولا تصبح لعنة مكتوبة على الإنسان.. إنما يظل الأمل قائما فى أنه إذا

أصلحت النفس، بحيث لا تستولى عليها تلك الشهوات وتلك المخاوف، أو بحيث لايكون لها قوة القهر على النفس، فإنه يمكن حينئذ تغيير الأحوال، وتقويم الاعوجاج، ورفع الظلم، وإقامة العدل، حتى يقوم الناس بالقسط.

والفارق التوجيهى - أو التربوى - ضخم جدا بين هذا التفسير وذاك.. فأحدهما يُيْئِسُ الإنسان تماما من أن يصلح بنفسه شيئا من الأحوال الفاسدة، مهما فكر أو اعتقد أو عمل، والآخر يملأ نفسه أملا فى الإمكان الدائم للإصلاح بحسب ما يعتقد، وما يفكر، وما يعمل.. أحدهما يخلع «الأمانة» من عنق الإنسان ويلقيها عنه، بحجة أنه مسير لا يملك شيئا من أمر نفسه، ومن ثم يخلع عنه إنسانيته، ويجعله كالأنعام أو أضل، والآخر يحمّل الإنسان أمانته، ومن ثم يحمّله إنسانيته. أحدهما يحول الإنسان مسخا مشوها خاضعا أبدا لطغيان الطغاة فى الأرض، والآخر يوجهه لكى يصعد إلى آفاقه التى من أجلها خلقه الله.. ليكون خليفة فى الأرض.

●●●

أما المقالة الثانية فهى أن الضغوط ليست كلها على درجة واحدة من الضغط، وأن الناس ليسوا كلهم على درجة واحدة من الخضوع للضغوط، ومن ثم يفترق تاريخ شخص عن شخص فى الحياة الدنيا، كما يفترق تاريخ أمة عن أمة.. أما فى الآخرة فالمدى أبعد:

«انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا»[1]

ونعود إلى التصنيف الذى أشرنا إليه من قبل.

إن الضغوط ليست فى حقيقتها متساوية فى القهر بالنسبة للإنسان.. فمنها ما هو قاهر بالفعل كضرورة الطعام والشراب.. ومنها ما هو ضرورى بالفعل ولكن ليس إلى درجة القهر، كالنوم والراحة والأمن والسلامة وما أشبه.. ومنها ما هو كمالى يلتذ الإنسان بوجوده، ولكنه لايمثل بالنسبة إليه قهرا ولا ضرورة، بل قد يكون ضررا محققا، ولكنه يتحول عند مرضى النفس إلى حاجة لا غنى عنها، أو ضرورة تصل إلى حد القهر كالسيجارة بالنسبة لمدمنها، أو الفراش الوثير عند المترف المترهل.

فإذا كان هذا حال الضغوط الداخلية التى يدوس الطغاة عليها من الخارج لتقهر الناس على الخضوع لهم.. فالناس من الجانب الآخر ليسوا سواء فى الخضوع.

ونستطيع - بصفة عامة - أن نقسم الناس تلقاء الضغوط إلى ثلاثة أقسام كبرى، ناشئة من ثلاثة مواقف مختلفة، فهناك أصحاب العقيدة الراسخة، الذين توهجت العقيدة فى قلوبهم حتى صارت لهم نورا يمشون به فى الناس.

ومنهم أصحاب عقيدة، ولكنها لا تبلغ عندهم ذلك الرسوخ ولا

---

(1) سورة الإسراء [٢١]

ذلك التوهج، فهى موجودة ولكنها ليست دائما هى صاحبة السلطان فى نفوسهم، ومن ثم يتبعونها حينا، ويتبعون الهوى حينا آخر، حين يضعف أثرها فتبرز الشهوات والأهواء.

ومنهم جاهليون أولو عقيدة فاسدة، أو ليست لهم عقيدة فى الله أصلا:

«إذا وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة، خافضة رافعة. إذا رجت الأرض رجا، وبست الجبال بسا، فكانت هباء منبثا، وكنتم أزواجا ثلاثة. فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة. وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة. والسابقون السابقون، أولئك المقربون»[1]

وهى أقسام ثلاثة فى الآخرة تمثل نهاية المطاف بالنسبة للأقسام الثلاثة الذين ذكرناهم من قبل.[2]

وهى فى الوقت ذاته ثلاثة مواقف مختلفة إزاء الضغوط التى يتعرض لها الإنسان فى الحياة الدنيا، سواء كانت ضغوطا مادية أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية... إلخ.

فأما أصحاب العقيدة الراسخة فهم يكتبون سطورا بارزة فى صحيفة التاريخ .. سطورا مشرقة مضيئة، تظل تتلألأ على مدى التاريخ، كتلك التى كتبها سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وجيل الصحابة رضوان الله عليهم.. وهم قلة فى التاريخ كله:

---

١) سورة الواقعة [١ - ١١]

٢) واضح أن الترتيب فى الآيات قد وضع «أصحاب الميمنة» مقابل «أصحاب المشأمة» ثم خص «السابقين» بذكر خاص.

«ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين»[1]

ولكنهم قلة ممتازة فائقة، ترسم نماذج لاستعلاء الإنسان فوق كل الضغوط، وكل الضرورات.. حتى ضرورة الحياة! من أجل «مبدأ». من أجل «عقيدة». من أجل «معنى» أجل فى نفوسهم من كل متاع الأرض.. بل من الحياة ذاتها، التى من أجلها يستعبد العبيد، ويقبلون الخضوع للطغيان.

إنهم قلة، نعم، ولكنها قلة تستحق التسجيل، وتستحق الإشادة، وتستحق أن تفرد لها فى سجل التاريخ صفحات وصفحات، لأنها النموذج الهادى، الذى يشد الناس إلى أعلى كلما ذكروه، أو كلما عرض أمامهم، فيحاولون الارتفاع..

واعجب لهذه الجاهلية! تكتب مئات الصفحات لتشيد بعدّاءٍ كسر الرقم القياسى لسرعة العدو.. ثم لم يصنع شيئا بعد ذلك إلا أن ظل يعدو على سطح الأرض! وتستنكف أن تخصص صفحات من أوراقها للذين كسروا حاجز الخوف، وحاجز الحرص على الحياة، وكل الحواجز التى تقف فى طريق الإنسان، ليستعلوا على الأرض كلها، ويرسموا صورة واقعية للإنسان المثال!

ولقد شاء قدر الله أن يكون سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، وأمثالهم مواقف فردية، يحققون الإنسان المثال فى ذوات أنفسهم، ويمضون رافعى الرؤوس إلى ربهم.. وأن يكون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم نماذج تحقق منهج حياة كامل، بالإضافة إلى

---

(1) سورة الواقعة [١٣ ـ ١٤]

تحقيقهم فى ذوات أنفسهم أرفع مايصل إلى ذروته الإنسان.

والحكمة فى ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، فلا نبى بعده، وأنه مرسل إلى البشرية كافة لا إلى قوم معينين فى زمن معين:

«ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (١)

«قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا...» (٢)

وقد اكتمل الدين فلا إضافة:

«اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام دينا» (٣)

فاقتضت حكمة الله أن تقوم أمة محمد صلى الله عليه وسلم بما كان يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام من التبليغ والدعوة والتطبيق العملى لهذا الدين فى واقع الأرض، والجهاد فى سبيل ذلك كله. وأن يكون الجيل الذى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النموذج الفذ الذى يحمل هذه المعانى كلها، ويمثلها أكمل تمثيل.

وكذلك كان ذلك الجيل بالفعل...

وحقيقة أنه - حتى الآن - لم يتكرر.. وقد لايتكرر بصورته نفسها

---

(١) سورة الأحزاب [٤٠]

(٢) سورة الأعراف [١٥٨]

(٣) سورة المائدة [٣]

إلى نهاية حياة البشر على هذه الأرض، وإن كان التاريخ الإسلامى لم يخل قط من نماذج فردية على ذات المستوى الرفيع الذى كان عليه ذلك الجيل، تحقيقا لتقرير الربانى: «ثلة من الأولين وقليل من الآخرين».

ومع ذلك فقد كتب ذلك الجيل التاريخ!

لا تاريخ نفسه فحسب، بل تاريخ الإسلام!

فتاريخ الإسلام فى الحقيقة هو الامتداد الحى لما حققه ذلك الجيل الفذ من إنجاز إنسانى فائق رائع المثال.

وقد انحرف المسلمون انحرافات شتى فى تاريخهم، تجمعت فى حقبتهم الأخيرة فحولتهم غثاء كغثاء السيل، كأنه أمة أخرى غير أمة الإسلام [1] ولكن هذه لم تكن النهاية، بل جاءت الصحوة الإسلامية لترد الأمة إلى دينها وعقيدتها وتاريخها وذاتيتها [2] وكان المشعل الذى استضاءت به هذه الصحوة ـ ككل صحوة سابقة ـ هو ذلك التاريخ الفريد، لذلك الجيل الفريد.

من أجل ذلك يستحق هذا الجيل أن يفرد له فصل خاص فى تاريخ البشرية، تسلط فيه الأضواء على كل جزئية من جزئياته، وكل دقيقة من دقائقه، لأنه فى كل جزئية وفى كل دقيقة مثال.

ولأنه منهج حياة كامل.. يعطى النموذج الفذ فى كل جانب من جوانب الحياة.

فهذا الجيل هو الذى حقق ـ بعقيدته ـ أعظم تغيير وقع فى تاريخ

---

(١) انظر فصل «خط الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

(٢) انظر فصل «الصحوة الإسلامية» من الكتاب ذاته.

البشرية، بغير بواعث بشرية. فقرر مبدأ ينقض كل المبادئ الجاهلية التى تقدمها التفاسير الجاهلية للتاريخ، هو أن العقيدة - وحدها - حين تتوهج فى قلوب أصحابها كما توهجت فى قلوب ذلك الجيل، يمكن - على هدى الوحى الربانى - أن تنشئ قيما سياسية جديدة، وقيما اجتماعية جديدة، وقيما اقتصادية جديدة، وقيما فكرية وأخلاقية جديدة، غير مسبوقة من قبل، ولا هى «تطور» لواقع كان موجودا من قبل.. وغير مرتكزة على شىء إلا على كيان «الإنسان» بعد تصحيح كيانه ورده إلى الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

أى أنه حقق ما يقول التفسير المادى الجدلى إنه مستحيل!

أما التفسير الإسلامى فيقول إنه واقع فذ ولكنه غير مستحيل! بل يقول إنه واقع قابل للتحقيق كلما تحققت أسبابه فى نفوس البشر.. وإن البشر هم المسؤولون عن تحقيقه، أو على الأقل عن محاولة التحقيق!

لذلك يعنى التفسير الإسلامى للتاريخ بهذا الجيل الفريد خاصة، حتى وإن كان لم يتكرر مرة أخرى فى التاريخ! ويعطيه من الوزن أكثر مما يعطى قرونا بأكملها فى تاريخ إمبراطورية جاهلية، أبدعت ما أبدعت فى عالم المادة، وبلغت ما بلغت من عبقرية «العلم» وعبقرية السياسة وعبقرية الحرب وعبقرية التنظيم.. ثم تركت الإنسان أولا وآخرا لاصقا بالطين، يتحرك حركته الواسعة وهو لاصق بالطين!

●●●

القسم الثانى من البشر هم المؤمنون العاديون.. أصحاب

عقيدة، هى ذات العقيدة التى فعلت فعلها في نفوس ذلك الجيل، ولكنها لا تفعل فى نفوسهم ما فعلت فى نفوس ذلك الجيل الفريد، لأنهم لا يأخذونها بالجدية ذاتها، ولا الصفاء ذاته، ولا التوهج ذاته الذى أخذها به الجيل الأول. . وإن كان تاريخ الإسلام لم يخل - كما قلنا - من نماذج فردية فذة ترتفع إلى ذلك المستوى الرفيع.

هؤلاء تاريخهم خليط من الهبوط والرفعة. من الإقبال والإدبار. من الخير والشر. من العظمة والتفاهة. من الجد والهزل. من الاستقامة والانحراف:

«ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا. فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله»(١)

«ولكل درجات مما عملوا»(٢)

ونأخذ نموذجا لهم مايقرب من اثنى عشر قرنا من قرون الأمة الإسلامية بعد الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم، ونستثنى - مؤقتا - القرنين الأخيرين من حياة المسلمين، والقرن الأخير خاصة، الذى انقلب غثاء كغثاء السيل، حتى نعود إليه بعد حين.

إن وضعهم - بالنسبة للضغوط الواقعة عليهم - ليس وضع المستعلى الذى كان عليه الجيل الأول، ولكنه فى الوقت ذاته ليس موقف المستخذي الخانع الذى يمكن أن تكون عليه الجاهلية التي لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر.

---

١) سورة فاطر [٣٢]

٢) سورة الأنعام [١٣٢]

إن وضعهم قائم بإزاء الضغـوط . . لا فوقهـا ولا تحتهـا . . تارة تغلبهم وتارة يغلبونها، أى أنهم - بعبارة أخرى - يخضعون لشهوات نفـوسهم ورغـائبهـا ومخـاوفهـا تارة، ويستعلون على تلك الشهوات والرغبات والمخاوف تارة أخرى، فتتأرجح حياتهم بين الهبوط والرفعة. بين الإقبال والإدبار. بين الخير والشر. بين الاستقامة والانحراف . .

وليس هنا مجال التأريخ، فإنما نحن هنا نتحدث - فى عجالة - عن التفسير الإسلامى للتاريخ. ولكن لابد لنا من بضع إشارات :

لقد بقى المجتمع الإسلامى - على الرغم من كل ما وقع فيه من انحـرافـات - بعيدا عن صورة الإقـطاع الأوروبى الذى يملك فيه الإقطاعى الأرض ومن عليها من عبيد الأرض، الذين لايملكون حق الانتقال إلا بإذن السيد، والذين يمثل السيد بالنسبة إليهم السلطة التشريعية والسلطة القضائية والسلطة التنفيذية، والذين يجب عليهم أن يطحنـوا غلالهم فى مطحنتـه، ويقدموا إليه الهدايا الإجبارية فى الأعياد والمـواسم، والذى له فى كل زيجة حق الليلة الأولى، يلغ فى أعراض العبيد بغير رادع . .[1]

وكـان الـذى حماهم من «حتمية» الإقـطاع المزعومة تحاكم ذلك المجتمع إلى شريعة الله، برغم كل الظلم الواقع عليهم من حكامهم، الناشئ من تجاوز أولئك الحكام - فيما يتعلق بأشخاصهم - لحدود الله. فهم يتجاوزون حدود الله نعم، ولكن الناس - فى ظلهم - يتحاكمون فيما بينهم بشريعة الله، فتحميهم شريعة الله من الوقوع فى «حتميات» التاريخ!

(١) راجع وصف الإقطاع فى أوروبا فى أى مرجع تاريخى يتكلم عن أوروبا فى العصور الوسطى.

وبقى هذا المجتمع - برغم كل ما وقع فيه من انحرافات - مجتمعا يحرص على نشر العلم، يفتح المدارس، ويوقف عليها من الأوقاف ما يكفل للمتعلمين والمعلمين معاشهم من مسكن وملبس ومطعم. ليخلصوا لطلب العلم وحده غير مشغولين عنه بمشاغل الرزق. وذلك قبل أن تنهض أوربا نهضتها، وتعرف قيمة العلم، وقبل أن تأذن الأرستقراطية الإقطاعية فيها بتعليم العبيد.

وبقى المجتمع - رغم كل انحرافاته - نظيفا إلى حد كبير من الفاحشة الخلقية، بسبب التزامه بتعاليم دينه فى أمر الحجاب، ومنع الاختلاط والتبرج، والزواج المبكر الذى يحصن الشبان والفتيات ويبعدهم عن التفكير فى الفاحشة.

وبقى مجتمعا متآخيا متكافلا مترابطا.. يخرج المسلم فيه من المغرب حتى يصل إلى أندونيسيا لا يقفه حاجز واحد من حواجز «الحدود السياسية» أو «القومية» أو «الوطنية».. يستقبل بالترحاب، ويودع بالمودة، حتى يصل إلى هدفه من رحلته، سواء كان هدفه طلب العلم، أو التجارة، أو الدعوة فى سبيل الله، أو السياحة فى الأرض..

وبقى - برغم كل ما اعتوره من اضطراب الأمن عند ضعف سلطان الدولة - أقل مجتمعات الأرض جرائم، وأكثرها طمأنينة وأمنا، وأكثرها بركة، وأكثرها راحة بال.

وكان السبب فى ذلك كله أن أهله يحاولون جهدهم - برغم تقاعسهم وتخاذلهم - أن يلتزموا بتعاليم دينهم، فيغلبون نفوسهم

أحيانا، وتغلبهم نفوسهم أحيانا . . فيهبطون ـ قليلا أو كثيرا ـ عن مجتمع الذروة، ولكن يظلون فى مجموعهم أعلى وأفضل من الجاهليات .

ثم نأتى إلى القرنين الأخيرين، والقرن الأخير خاصة حيث نحيت شريعة الله فى معظم الأرض الإسلامية، فنجد انتكاسا ذريعا فى أحوال الأمة يحولها إلى ذلك الغثاء الذى أنذرها به ـ وحذرها منه ـ رسول الله صلى الله عليه وسلم :

«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الآكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينتزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله؟ قال حب الدنيا ومخافة الموت»[1]

ونجد خضوعا ذريعا للضغوط . . سواء كان ضغط الاستعمار الصليبى، أو ضغط الغزو الفكرى (الذى يسمى الثقافة)! أو ضغط الفساد الخلقى (الذى يسمى الحضارة)! أو غير ذلك من الضغوط المادية و الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . . الخ . ذلك لأن أثر العقيدة كان قد خبا فى النفوس، فلم يعد لها ضغطها الذى يوازن تلك الضغوط، فضلا عن أن يوقفها ويتغلب عليها . ونجد المجتمعات الإسلامية بذلك قد دخلت فى جاهلية أسوأ من جاهلية الغرب . فلا

---

١) سبقت الإشارة إليه

هى تحكم شريعة الله، ولا هى تملك أسباب القوة التى يمكّن الله بها الكفار حين يجتهدون فيها.

ثم تجىء الصحوة الإسلامية فتبدأ صفحة جديدة فى التاريخ..

وإنها ما تزال فى بدايتها.. وما تزال تخوض معركة قاسية مع أعدائها المتكتلين لإبادتها، ولكنها ترسم خطا بارزا من خطوط التاريخ، لأنها تستعلى بروحها على كل الضغوط..

إنها تحارب حربا بشعة، من أبشع ما وجه للدعوات فى التاريخ. ويعذب أصحابها عذابا وحشيا فوق طاقة البشر.. وتقدم الضحايا تلو الضحايا.. ولكنها تقف مستعلية على متاع الأرض كله، بل على رغبة الحياة ذاتها.. وتعطى النموذج الفذ مرة أخرى: نموذج سحرة فرعون، وأصحاب الأخدود، والجيل الإسلامى الفريد..

وسوف يمضى الله بها قدره، إن استقامت على الطريق، إن ظلت مستعلية على الضغوط. وقدره هو التمكين لدينه فى الأرض:

«هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا» (١)

وإلا فسوف يستبدل قوما آخرين يستقيمون على الطريق:

«وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم» (٢)

«والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (٣)

●●●

(١) سورة الفتح [٢٨] (٢) سورة القتال [٣٨] (٣) سورة يوسف [٢١]

أما القسم الثالث من البشر فهم الجاهليون، الذين لا يحكّمون شريعة الله ومنهجه فى الحياة. وهؤلاء الأصل فيهم هو الخضوع للضرورات، لأنهم بغير عقيدة فى الله واليوم الآخر، يستعلون بها عليها، ويحتمون بها من ضغوطها. كما أن الأصل فيهم هو الخسر:

«والعصر إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر»[1]

وهؤلاء يصدق عليهم ابتداء ما يقوله التفسير المادى للتاريخ من أن الظروف الخارجية هى التى صاغت لهم حياتهم، وحددت لهم أنماط سلوكهم، ونقلتهم من طور إلى طور. و إن كنا ـ حتى مع الجاهليات ـ نتحفظ تحفظين اثنين على هذا التفسير:

الأول: أن الظروف الخارجية لا تؤثر على الإنسان إلا من خلال نفسه، فإذا وجد فى وقت من الأوقات أن تأثيرها هو الغالب، أو أنها تملى فيستجاب لها، فليس ذلك لقوة قاهرة فيها كما يصورها التفسير المادى، وإنما لأن الناس فى الجاهليات لا يقاومون ضغوطها، ولا يستعلون عليها، لأنهم بغير عقيدة فى الله واليوم الآخر، والعقيدة فى الله واليوم الآخر هى أقوى العوامل التى يمكن أن تجابه الضغوط الخارجية (التى تتحول إلى ضغوط داخلية حين تنفذ إلى النفس من خلال رغباتها ومخاوفها) فتلغى تأثيرها، أو فى القليل تصطرع معها فتغلبها مرة وتنهزم أمامها مرة. وفى غياب هذه العقيدة تكون «البيئة»

---

١) سورة "١"

بكل محتوياتها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية هى صاحبة الأثر الأقوى، لا لأية حتمية من حتميات التفسير المادى، ولكن لأنها تعمل دون مقاومة فتنفرد بالتأثير، وتبدو للنظرة السطحية كأنها - فى جميع أحوالها - قوة قاهرة لا تغلب.

والتحفظ الثانى أنه حتى فى غياب العقيدة الصحيحة فى الله واليوم الآخر، فإن هناك حدودا للضغوط الخارجية لا يمكن أن تتجاوزها مهما يكن لها من ضغط، وهى حدود الكيان الإنسانى ذاته، الذى ينفجر بالثورة آخر الأمر حين يتجاوز الضغط مداه.

ولكن الذى يجعل الناظر السطحى، أو المتعجل، يغفل هذه الحقيقة هو مرونة ذلك الكيان، وتحمله لكميات هائلة من الضغط قبل أن ينفجر بالثورة، وإمكان مرور أجيال بكاملها قبل أن يحدث الانفجار!

وكأنما هناك دورة منتظمة لسنن الله فى هذا الشأن:

يحدث الطغيان أول مرة فتثور ضده نفوس، فيعنف الطغيان لإسكات المقاومة فيسكت الناس بعامل الخوف. ثم تولد أجيال فى ظل الطغيان تأخذه على أنه أمر واقع. فتتشكل به حياتهم، وتنطبع به نفوسهم، ويأخذ جولته «التاريخية». ويغريه استنامة الناس له فيشتد طغيانه. وهنا تبدأ أكثر النفوس إباء فتتمرد عليه، فتزداد قسوته للفتك بالمقاومة الناشئة، حتى يأتى يوم يستوى عند الناس أن يعيشوا أو أن يموتوا. وهنا يكسرون حاجز الخوف. فيحدث الانفجار.

وبصرف النظر عما يقوله التفسير المادى عن الظروف اللازمة لنجاح الثورة فإننا هنا نتحدث عن دلالة الثورة فى ذاتها كما أسلفنا القول، لننفى أن الضغوط الخارجية لها قوة قاهرة على النفس البشرية كما يصور التفسير المادى للتاريخ.

ثم نعود إلى مناقشة قضية الظروف اللازمة لنجاح الثورة فنقول إنه فى الجاهليات يحتاج الأمر بالفعل إلى ظروف مادية واقتصادية وسياسية معينة لنجاح الثورة، لأن قوى الصراع كلها من نوع واحد، فينبغى أن تتكافأ أولا ليكون للصراع بينها معنى، ثم ينبغى أن تكون الظروف فى صف القوى الثائرة لتتمكن من التغيير. وإن كان تغييرها يظل دائما جزئيا وغير شامل.

أما فى حالة وجود العقيدة الصحيحة فى الله واليوم الآخر فالأمر يختلف، وليس الاختلاف ناشئا من إلغاء قاعدة التكافؤ فى الصراع، فهذه سنة من سنن الله، لا يلغيها شىء. وإنما ينشأ الاختلاف من «ثقل» العقيدة فى ميدان الصراع:

«يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله. والله مع الصابرين»[1]

---

(١) سورة الأنفال [٦٥ - ٦٦]

وينشأ كذلك من ثقل العقيدة فى ميدان التغيير. فالمنهج الربانى ليس تغييرا جزئيا فى بعض مجالات الحياة: السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، كما هو الحال فى الثورات التى تحدث فى الجاهليات من أجل التغيير. إنما هو تغيير شامل يغير الحياة من الجذور.. من الأساس.. يغيرها من عبادة غير الله إلى عبادة الله - فى العقيدة - ومن عبادة البشر بعضهم لبعض إلى عبادة الله - فى الاتباع (أى فى التشريع) - ومن ثم تكون قوة التغيير أكبر بكثير، وأعمق بكثير، وأفعل بكثير، من قوته حين يكون تغييرا جزئيا فى بعض جوانب الحياة.

ومن ثم تحدث تلك المعجزة التى حدثت فى التاريخ، مخالفة لكل قواعد التفسير المادى للتاريخ، وهى حدوث التغيير الشامل الذى أحدثه الإسلام بغير بواعث بشرية فى البيئة، ولا فى الظروف المادية أو الاقتصادية أو الاجتماعية أو السياسية.. وهو أعظم تغيير حدث فى التاريخ.

●●●

وخلاصة الأمر فى قضية الضغط أن تاريخ البشرية ينقسم بادئ ذى بدء إلى قسمين رئيسيين: تاريخ الإسلام وتاريخ الجاهلية. ثم ينقسم تاريخ الإسلام إلى فترات التوهج العقيدى وفترات الوجود العادى، كما ينقسم تاريخ الجاهلية إلى فترات التبلد والاستنامة للضغوط، وفترات الثورة عليها.

فأما تاريخ الإسلام بشعبتيه فيمثل الإنسان فى واقعه الأعلى،

بدرجات مختلفة تختلف بمدى توهج العقيدة. وأما تاريخ الجاهلية بشعبتيه فيمثل الإنسان في واقعه الأدنى، بدرجات مختلفة تختلف بمدى وعي الناس بما يحيق بهم من الفساد والظلم، ومدى استعدادهم للتغيير.

ويظل تاريخ الإسلام هو الفترة المضيئة في تاريخ البشرية، التي يحقق فيها الإنسان وجوده الحقيقي، ومهمته التي خلق من أجلها، والتكريم الرباني الذي منحه الله اياه.

ويظل تاريخ الجاهلية هو الفترة المظلمة في تاريخ البشرية، مهما حاول الجاهليون إضاءتها بالتقدم المادي أو العلمي، أو القوة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية.. ومهما أحدثوا من محاولات الإصلاح الجزئية التي تغير شراً بشرٍ أشد!

والجاهلية المعاصرة هي المثال الأوضح.. فقد تجمع لها من التقدم المادي والعلمي، وأسباب القوة الحربية والسياسية والاقتصادية ما لم يتجمع لأحد في التاريخ.. ولم يستعبد الإنسان لمخاوفه وشهواته، وللضغوط الواقعة عليه، كما استعبد في هذه الجاهلية بالذات.. ولم يتخبط في محاولة «الإصلاح» بقدر ما تخبط في هذه الجاهلية بالذات.

وتتبين بوضوح تلك الحقيقة التي لا يدركها إلا المؤمنون بالله واليوم الآخر، وهي أنه بقدر تحقيق الإنسان العبودية الخالصة لله تكون درجة تحرره من كل عبودية في الأرض لبشر، أو لقوة مادية أو اقتصادية أو سياسية أو كائنة ما كانت، وتكون درجة انعتاقه من ضغط الضرورة،

وانطلاقه إلى الآفاق العليا الجديدة «بالإنسان» . . وأنه يحقق من الخير في الأرض ـ لنفسه ولبني جنسه ـ بمقدار انعتاقه من ذلك الضغط، وانطلاقه في تلك الآفاق . . وله فوق ذلك جزاء الآخرة: الفوز بالجنة والانعتاق من النار.

صراع الحق والباطل

يحفل التاريخ البشرى بألوان مختلفة من الصراع، سواء صراع فرد وفرد، أو فرد وجماعة، أو جماعة وجماعة، أو أمة وأمة، أو جيل وجيل.

ويبدو للوهلة الأولى أن الصراع سنة من سنن الله فى الأرض، وأن الحياة لا تخلو فى لحظة من لحظاتها من وجود صراع فيها بين بعض البشر وبعض، بل بين بعض الكائنات وبعض.

ولكن ما يبدو للوهلة الأولى يحتاج إلى تدقيق، على الأقل فيما يختص بعالم «الإنسان» فقد يكون الصراع أمرا واقعا فى الحياة البشرية، لا يخلو منه جيل من أجيال التاريخ. ولكن هذا ليس معناه أن كل صراع مشروع كما يقول التفسير الليبرالى، أو فى القليل يحمل مبرر وجوده بمجرد وجوده كما يقول ذلك التفسير صراحة أو ضمنا. وليس معناه كذلك أن الصراع هو الوضع الوحيد للانسان بدعوى أن التناقض من قوانين المادة، فهو يحكم الحياة البشرية بحكم نشأة الإنسان من المادة كما يقول التفسير الجدلى.

إنما أوجد الله الصراع - أو التدافع - فى حياة البشر، وجعله سنة من

سننه التى يُجْرِى بها الحياة البشرية، لغاية معينة . . ومن ثم فهو صحيح ومشروع، بل مطلوب وواجب حين يؤدى تلك الغاية، وهو فاسد وغير مشروع حين يحيد عن الغاية . .

قال تعالى:

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»(١)

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا. ولينصرن الله من ينصره. إن الله لقوى عزيز. الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ولله عاقبة الأمور»(٢)

هذا هو التدافع المطلوب . . وتلك حكمته وغايته.

والحياة بدونه تتعرض للفساد، كما جاء صراحة فى آية سورة البقرة.

ويحدث الفساد من أسباب متعددة فى وقت واحد. فالإنسان - بطبعه - ميال للتفلت من التكاليف، ما لم يدفعه دافع إليها، لأن التكاليف حمل يحمل، وقيد على شهوات الإنسان المحببة إلى نفسه:

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا»(٣)

---

١) سورة البقرة [٢٥١]

٢) سورة الحج [٤٠ - ٤١]

٣) سورة آل عمران [١٤]

وإذا تفلت الناس من التكاليف ولم يدفعهم دافع إلى الالتزام بها، وركن الناس إلى شهواتهم، فسدت الأرض بهذه الشهوات غير المنضبطة، و«ظهر» الفساد بمعنى تمكن واستفحل:

«ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس» (١)

ثم إن الطغيان طبيعة فى بعض البشر، إن لم يكن فى كلهم إذا وجدت دواعيه:

«كلا! إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى» (٢)

أى جنس الإنسان كله.. إلا الذين استثنتهم الآيات فى قوله تعالى: «إلا «المصلين» (٣) «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» (٤)

والطغيان يؤدى إلى الفساد. وأول فساد وأعظمه تأله بعض البشر واتخاذ الباقين لهم أربابا من دون الله، يحرمون لهم ويحلون بغير ما أنزل الله، فيتبعونهم، فيظهر الفساد فى الأرض..

والأمران معا يحدثان فى كل جاهلية.

ففى كل جاهلية طغاة يحكمون بغير ما أنزل الله، وعبيد يأتمرون بأمرهم ويتخذونهم أربابا لهم. وفى كل جاهلية كذلك فساد خلقى

---

(١) سورة الروم [٤١]

(٢) سورة العلق [٦ - ٧]

(٣) سورة المعارج [٢٢]

(٤) سورة العصر [٣]

ينشأ من تفلت الناس من التكاليف إزاء شهوة المال وشهوة الجنس، وشهوة الاستمتاع بلا ضوابط..

ولابد من قوة مقابلة تدفع هذا الفساد. قوة المؤمنين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجاهدون الفساد في الأرض، سواء كانت صورته هي طغيان التأله أو الانفلات مع الشهوات.

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز»(١)

«كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله»(٢)

وظاهر من تقديم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى الآية على الإيمان بالله الذى لا يتقدم عليه شىء فى هذا الدين، أن لهذا الأمر أهميته القصوى فى ميزان الإسلام، بل كأنما يراد أن يقال فى الحقيقة إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو الخلاصة الحقيقية أو الترجمة الحقيقية لهذا الدين فى عالم الواقع. فهو الأداة البشرية التى اختارها الله لتمكين الحق وإزهاق الباطل وتغيير المنكر وإقامة حياة الناس فى الأرض بالقسط.

وكما قلنا من قبل فإن الله لا يعجز عن إزالة الفساد من الأرض،

---

(١) سورة الحديد [٢٥]

(٢) سورة آل عمران [١١٠]

بغير بشر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون فى سبيل الله، لأنه يقول للشىء كن فيكون. ولو شاء الله لخلق البشر منذ البدء بحيث لا يعصون ولا ينحرفون، ولو شاء لقهر الناس على الهدى والاستقامة. ولكن مشيئة الله قد اقتضت أن يكون الإنسان حرا فى نطاق معين، يختار لنفسه الهدى أو الضلال ثم يحتمل تبعة اختياره. فترتب على هذه المشيئة ابتداء أن يكون فى الناس محسنون ومسيئون. ثم اقتضت مشيئته كذلك أن يجرى قدره فى الحياة البشرية من خلال أعمال الإنسان، فترتب على ذلك أن يتم دفع الفساد الذى يحدثه فريق من البشر من خلال عمل يقوم به فريق آخر من البشر، فيبتلى هؤلاء بهؤلاء بقدر من الله.

«ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين»[1]

«ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟»[2]

«ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولكن ليبلو بعضكم ببعض»[3]

من أجل ذلك جعل الله التدافع بين الناس سنة من سنته لكى لا تفسد الأرض، أو لكى لا يستقر الفساد فى الأرض إن قام به فريق من البشر، بل تقوم فئة أخرى من البشر دائما بمدافعته فلا يستقر.

●●●

---

(١) سورة الأنعام [٣٥]

(٢) سورة يونس [٩٩]

(٣) سورة القتال [٤]

ليس كل صراع إذن مشروعا ولا مطلوبا فى حياة البشر.

بل إن معظم الصراع الذى يقع فى الأرض هو من الفساد الذى ينهى الله عنه، ويأمر بالجهاد لإزالته.

يتصارع الناس - فى جاهليتهم - على متاع الأرض.

والمتاع فى ذاته ليس مرذولا ولا ممنوعا ولا محرما:

«قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة» (١)

«ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» (٢)

ولكن الله رسم للمتاع حدودا يعلم سبحانه أنها ترضى الكيان الذى خلقه بعلمه، ويعلم مصلحته وحاجته. ولا تؤدى فى الوقت ذاته إلى الفساد فى الأرض ولا فى الأنفس، وبيّن هذه الحدود فى «الهدى» الذى يتنزل من عنده.

«قلنا اهبطوا منها جميعا، فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٣)

وحين يلتزم الناس بالمنهج الربانى ينحسر الصراع - فى المجتمع المسلم - إلى نهايته الصغرى، إن تعذر أن يزول بالمرة .. وهو فى الحقيقة لا يزول أبدا - حتى فى المجتمع المسلم - لأن الناس لا يصبحون قط ملائكة مهما تعمق الإيمان فى قلوبهم، فهم بشر خطاءون

---

(١) سورة الأعراف [٣٢]

(٢) سورة البقرة [٣٦]

(٣) سورة البقرة [٣٨]

فى جميع الأحوال وإن كانوا - لإيمانهم - سريعى الأوبة إلى الرشد:

«كل بنى آدم خطاء وخير الخطائين التوابون»(١)

«والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين»(٢)

لذلك يقع بينهم الصراع الذى قد يؤدى إلى القتال، كما وقع بالفعل فى صدر الإسلام، ولكنه لا يكون مسفا، ولا يكون على سفاسف الأمور، ولا يهبط بمجموع الناس عن قيمهم العليا، ولا يجعل الناس يخرجون من الإيمان. وإلى ذلك تشير الآية من سورة الحجرات:

«وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين. إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون»(٣)

وهكذا يحدث الصراع فى المجتمع المسلم الملتزم خلافا للأصل، ولكنه لا يبعد مجموع الناس عن مقتضيات الإيمان، ولا يخرجهم منه، ويعودون بعده إلى الأخوة التى تجمع المؤمنين.

---

(١) أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجة والدارمى.

(٢) سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦]

(٣) سورة الحجرات [٩ - ١٠]

وقد كان من عجائب الصراع الذى وقع بين على ومعاوية أن عليا كرم الله وجهه كان إذا حل المساء وانفصل الجيشان جمع القتلى من الفريقين فصلى عليهم، ثم سلم العدو جثث قتلاه ليدفنوها! وهو أدب نفسى رفيع لا يعرفه إلا من ذاق حلاوة الإيمان، وارتفع إلى الآفاق العليا التى يرفع الإيمان إليها القلوب.

يحدث الصراع فى المجتمع المسلم الملتزم خلافا للأصل، ولكن لا يشغل الناس عن القيم الأصيلة فى ذلك المجتمع.

«والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم»[1]

فيظل المجتمع عامرا بألوان من القيم لا يعرفها الناس إلا فى ظل الإسلام.

إلا أن يحدث انحراف شديد لا يقوّم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فتدركه سنة الله، كما أدركت المجتمع الإسلامى بالفعل، فأصبح غثاء كغثاء السيل..

●●●

أما المجتمعات الجاهلية فالأصل فيها هو الصراع!

والسبب فى ذلك أنها لا تلتزم أصلا بالمنهج الربانى، الذى يخفف الصراع فى الأرض إلى أقصى حد ممكن، ولا تلتزم بالحدود التى رسمها الله للبشر ليمارسوا فى داخلها المتاع المباح.

---

١) سورة التوبة [٧١]

وحين يتجاوز الناس الحدود المرسومة يقع الصدام لا محالة ، ويقع الصراع، ويصبح هو الأصل في حياة الناس. يتصارع فرد مع فرد للاستحواذ على قدر أكبر من المال، أو من السلطة، أو من المزايا التي يتيحها المال والسلطة!

وتتصارع جماعة مع جماعة.. وأمة مع أمة..

وتملأ الحروب الأرض، ولكنها حروب لا تهدف إلى إحقاق حق أو إزهاق باطل.. ولا يختلف فيها الغالب عن المغلوب إلا في العدد والعدة وطول النفس في الصراع! أما القيم فهي القيم المادية الهابطة ، التي تهبط مع الغالب وتهبط مع المغلوب!

ولا ينفي ذلك بطبيعة الحال أن يقع في الجاهليات بين الحين والحين صحوة ضمير وسعي إلى قيم أعلى من المتاع الرخيص.

يقول صلى الله عليه وسلم: «دعيت إلى حلف في الجاهلية لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت»

يقصد بذلك حلف الفضول، الذي اجتمعت فيه بعض القبائل وتحالفت على نصرة المظلوم ورد الحق إلى صاحب الحق، وهي صحوة نادرة من صحوات الضمير في الجاهليات، حيث الأصل الدائم هو العدوان.

نعم، يحدث بين الحين والحين أن تقوم صراعات في الجاهلية من أجل معنى من المعاني الجديرة «بالإنسان».. ولكنها قليلة ونادرة، وسرعان ما تطويها الجاهلية في لجتها، ويطويها النسيان، وتبقى الصراعات المدمرة التي تنشر الفساد في الأرض.

فأما التفسير الليبرالى، المتأثر بجانب من الداروينية فهو لا يرى فى ذلك الصراع أمرا واقعا فحسب، بل أمرا مشروعا كذلك، دون نظر إلى أى قيم مصاحبة. إنما هو الصراع من أجل البقاء. فمن حق كل كائن أن يبقى، ومن حقه أن يصارع غيره من أجل أن يبقى. ويزيد الأمر سوءا فى هذا التفسير فيأخذ من الداروينية قول دارون : Survival For the Fittest التى ترجمت بمعنى «البقاء للأصلح» وفسرت بأن الذى يبقى فى هذا الصراع هو بالضرورة أصلح المتصارعين وأحقهم بالبقاء!

وبصرف النظر عن التأويل المضلل لقولة دارون ـ على فرض صحتها ـ فإن دارون لم يكن يتكلم عن عالم الإنسان وما يحدث فيه من صراعات. إنما كان يتكلم بصفة خاصة عن عالم الحيوان (وإن كان كلامه يشمل عالم النبات أيضا) و كان يقول: إنه حين تحدث تحولات فى البيئة، أو تحولات فى تركيب أجسام الكائنات ووظائفها، فإن أنسب الكائنات لبيئته التى هو فيها هو أقدرها على البقاء ومقاومة أسباب الفناء والاندثار. فالصلاحية التى عناها دارون هى التلاؤم مع ظروف البيئة المحيطة، وليست صلاحية ذاتية ولا مزية ذات أفضلية. فإذا حدثت ظروف كالتى حدثت فى العصور الجيولوجية القديمة، فقضت على الأعشاب مثلا نتيجة الجفاف، وأبقت الأشجار فقط، فإن الحيوانات التى يمكنها تركيبها الجسدى من اقتطاف أوراق الشجر هى التى تستطيع أن تعيش، لأنها هى الأنسب لتلك الظروف، بينما تندثر الكائنات التى لا تستطيع أن تطول أوراق الشجر، لأنها لا

تناسب الظروف، بصرف النظر عن كونها أرقى أو أدنى من الأخرى فى سلم «التطور».

ولكن الرأسمالية أخذت الكلمة فحرفت معناها، وجعلتها تعنى المزية والأفضلية، فأضفت على الصراع الجاهلى المدمر شرعية، ثم زعمت أن من يتغلب فى هذا الصراع هو الأصلح للبقاء!!

وفسرت بمقتضى ذلك كل التاريخ! وأصبح المقياس الأول لكل وجود تاريخى هو الزمن والتراب! بمعنى أن الأمة أو الشعب، أو الكيان السياسى الذى يبقى فترة من الزمن أطول، ويحتل مساحة من الأرض أكبر، هو بالضرورة هو «الأفضل» و«الأصلح» بصرف النظر عن مضمونه ومحتوياته!

ومن هنا يحتفل ذلك التفسير احتفالا ظاهرا بالجاهليات التاريخية كلها، لأنها امتدت فترة غير قصيرة من الزمن واحتلت مساحة واسعة من الأرض، وإن كان يختص من بينها الجاهلية الفرعونية والجاهلية الإغريقية والجاهلية الرومانية، ويضفى عليها من آيات المديح ما يخيل للقارئ أنها هى التاريخ! أو على الأقل التاريخ الماضى، [1] بينما التاريخ الحاضر هو الجاهلية المعاصرة! أما بقية الدنيا، وبقية البشر فهم على هامش التاريخ!

وصحيح أن البقاء يحمل دائما مزية ما. وأنه أحيانا يعنى الأفضلية بالفعل، كما تشير الآية الكريمة:

---

١) هناك جاهليات أخرى يشيد بها التفسير الليبرالى للتاريخ كالجاهلية الأشورية، والجاهلية الهندية، والجاهلية الصينية، ولكنه أشد إشادة ولاشك بالجاهلية الفرعونية والإغريقية والرومانية.

«فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض»[1]

ولكن البقاء وحده لا يحمل معنى الأفضلية فى جميع الأحوال حتى تجتمع معه عوامل أخرى أساسية ومهمة. وذلك إذا رجعنا إلى سنة الإملاء التى يملى بها الله للطغيان والكفر، والفساد والانحراف، فيبقى فى الأرض فترة تطول أو تقصر.. لحكمة يريدها الله.

والتفسير الليبرالى إذ يغفل سنة الإملاء لأنه ـ كزميله التفسير الجدلى ـ يفسر التاريخ بعيدا عن سنن الله وقدره، فإنه يسوّى بين نوعى الوجود ونوعى البقاء: البقاء للكيان الذى يكون صالحا بالفعل، والبقاء المؤقت ـ وإن استمر عدة قرون ـ للكيان الفاسد المنحرف رغم فساده وانحرافه، بل قد يزداد الإملاء له كلما زاد فساده.. إلى أمد محدود عند الله.

«فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون، فقطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين»[2]

إنما ينبغى وضع معايير أخرى إلى جانب معيار البقاء، ليتبين إن كان يجرى على سنة «البقاء للأصلح» ـ وهى سنة ربانية بالفعل ـ أم على سنة الإملاء للكفر والطغيان والظلم، وهى سنة ربانية كذلك. والفرق بينهما واضح فى الحياة الآخرة، حيث النعيم المقيم للذين كانوا

---

(١) سورة الرعد [١٧]

(٢) سورة الأنعام [٤٤ ـ ٤٥]

صالحين فى الحياة الدنيا بالمقياس الربانى، والعذاب المقيم للذين كان بقاؤهم فى الحياة الدنيا بقاء الإملاء والاستدراج. ولكنه واضح كذلك فى الحياة الدنيا لا تخطئه عين الفاحص، حيث البركات المفتوحة من السماء والأرض، والطمأنينة التى تملأ القلوب، للنظم والأمم التى يكون بقاؤها جاريا على سنة «البقاء للأصلح» وهى الأمم المؤمنة، المنفذة للمنهج الربانى. وحيث المعيشة الضنك - حتى فى ظل الرخاء الاقتصادى [(١)] - والقلق والاضطراب والحيرة، والصراعات المدمرة والشهوات غير المنضبطة، والهبوط عن المستوى اللائق بالإنسان، فى النظم التى يتحقق لها البقاء فترة من الوقت على سنة «الإملاء» للظالمين..

وقضية «الغلبة» كذلك.. وهى صنو قضية «البقاء».

فالتفسير الليبرالى يتخذها مقياسا من مقاييس الأفضلية، فيجعل الغالب - فى معظم الأحوال [(٢)] - هو الأفضل، وقد تكون الغلبة بالفعل للأفضل، تحقيقا لقوله تعالى:

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون» [(٣)]

---

(١) ليس الضنك المشار إليه فى الآية الكريمة ضنكا اقتصاديا بالضرورة وقد يوجد الرخاء الاقتصادى كما هو الحال فى الجاهلية المعاصرة ومع ذلك يكون الضنك النفسى والعصبى على أشده.

(٢) يستثنون من ذلك هجوم قبائل الهون والقوط المتبربرة على الإمبراطورية الرومانية والقضاء عليها!

(٣) سورة الصافات [١٧١-١٧٣]

«ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون» (١)

«كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز» (٢)

ولكن الغلبة قد تكون أيضا ـ حسب سنة من سنن الله ـ للطغيان والكفر فترة من الوقت، كما كانت للفراعنة والإغريق والرومان، والفرس عباد النار. .

وهى فى كل مرة تدل على مزية ما. . ولكنها لا تعنى الأفضلية إلا مع الاستقامة على المنهج الحق، أى مع وجود القيم التى تتناسب مع الكيان الأعلى للإنسان.

وإذ يسوى التفسير الليبرالى بين كل غلبة وغلبة ـ كما يسوى بين كل بقاء وبقاء ـ فإنه ـ ببساطة ـ يسقط عبرة التاريخ، إذ يسوى بين انتصار الحق وانتصار الباطل، ويجعل القوة فى ذاتها هى الحق كما يقولون فى أمثالهم «Might Is Right» وهو قانون الغاب! حيث القوى هو صاحب الحق، والقوى يأكل الضعيف.

إن الحق يغلب أحيانا وينتصر، بسنة من سنن الله، والباطل يغلب أحيانا وينتصر بسنة من سنن الله كذلك. ويداول الله بين هذه الأيام حسب سنة من سننه:

«وتلك الأيام نداولها بين الناس» (٣)

---

(١) سورة الأنبياء [١٠٥]

(٢) سورة المجادلة [٢١]

(٣) سورة آل عمران [١٤٠]

ولكن هذا ليس معناه أن كلا الانتصارين سواء، أو أنه يجوز لنا أن نسوى بينهما بحال. فحين ينتصر الحق يقوم الناس بالقسط كما أمر الله:

«لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط. وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز»[1]

وحين ينتصر الباطل يسود الظلم، وتضطرب حياة الناس، ولا يجدون ملجأ يحميهم من الطغيان.

ولنضرب مثلا واحدا يشرح القضية..

كان الرومان غالبين فى الأرض، فيما يسميه التفسير الليبرالى «الإمبراطورية الرومانية العظيمة!» وكان معنى غلبهم هو انتشار الظلم فى الأرض، حيث العدل الرومانى الشهير ملك للرومان فقط - وهم السادة وهم القلة - وبقية البشر عبيد مهمتهم خدمة الدولة الأم، يحمونها بدمائهم، ويكدحون من أجل رخائها الذى يصل إلى حد الترف واللهو والمجون.. وكانت مصر جزءاً من تلك الإمبراطورية «العظيمة»! وكان نصيبها الهوان والذل، والاضطهاد والظلم، لسبب إضافى غير شهوة استعباد الآخرين، وهو اختلاف المذهب بين المصريين والرومان، إذ المصريون على المذهب الأرثوذوكسى والرومان على المذهب الكاثوليكى. وكانت السياط الرومانية «الشهيرة» تلهب

---

١) سورة الحديد [٢٥]

ظهور المصريين بسبب الاضطهاد المذهبى الذى تقوم به الدولة، ولا يجدون ملجأ يشكون إليه ما يقع عليهم من الظلم فيكظمون ذلهم، ويستسلمون للظلم والظلام واليأس، ويسلمون كرامتهم للهوان.

ثم جاء الإسلام وفتح مصر فحررها من ظلم الرومان. . ووقعت تلك الحادثة التاريخية ذات الدلالة:

تسابق شاب قبطى مع ابن عمرو بن العاص والى مصر، فسبق الشاب القبطى، فضربه ابن عمرو ضربة بالعصا على ظهره، وقال له: خذها، وأنا ابن الأكرمين!

ولم يطق والد الشاب ضربة العصا التى وقعت على ظهر ابنه، وهو الذى كان بالأمس القريب يحتمل السياط على ظهره، وظهر ولده، ويستكين للظلم. . وقرر أن يرتحل فى الموسم ليشكو الأمر إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى المدينة!

فما دلالة ذلك؟؟

دلالته الأولى أن الإسلام ـ بعدله ـ قد حرر الناس، فرد إليهم كرامتهم الضائعة، وأشعرهم بإنسانيتهم المفقودة.

ودلالته الثانية أن الناس قد وجدوا فى ظل التطبيق الإسلامى الملجأ العادل الذى يشكون إليه حين يقع الظلم عليهم، فصاروا يشتكون، بعد إذ كان الظلم يقع عليهم وهم مستسلمون.

ثم تمضى القصة فتعطى مزيدا من دلالتها. .

أعطى عمر العصا للرجل القبطى، وقال له: اضرب ابن الأكرمين!

وهكذا يُضرَب ابن «السادة» ليطبق العدل الربانى فى الأرض، بينما الخلاف فى العقيدة بين «الغالب» و«المغلوب» ليس خلاف مذهب فى ظل عقيدة واحدة، بل خلاف جذرى فى أصل العقيدة يصل إلى حد الافتراق الكامل.

ثم يلتفت عمر رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص فيقول له على مسمع من القبطى: يا عمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا! فيضع مبدأ من مبادئ العدل الخالدة لم تعرفها البشرية قط بين الغالب والمغلوب.. إلا فى الإسلام!

هذا - باختصار ووضوح - هو الفارق بين غلبة الحق - بسنة من سنن الله - وغلبة الباطل - بسنة من سنن الله - تجعل من المستحيل التسوية بينهما، وتجعل التسوية بينهما إهداراً لعبرة التاريخ! وذلك غير اختلاف المصير فى الآخرة:

«وإن الدار الآخرة لهى الحيوان[1] لو كانوا يعلمون»[2].

●●●

أما التفسير الجدلى فله فى القضية موقف آخر.

إنه يعرف صراعا واحدا فى التاريخ. هو الصراع الطبقى..!

ويرسم ذلك التفسير خطوطه كلها حول ذلك الصراع! فهو الذى ينشىء حركة التاريخ، وهو الذى ينقل البشرية من طور إلى طور فى

---

(١) أى الحياة الحقيقية التى تستحق أن تعاش وأن يحرص عليها الإنسان

(٢) سورة العنكبوت [٦٤]

حلقات دورية، تنقل مركز السلطة من طبقة إلى طبقة خلال التاريخ.

وأبرز ما فى هذا التفسير هو نفيه البات لصراع الحق والباطل، وإسقاطه من دورة التاريخ! فضلا عن سخريته وزرايته بالحق والعدل الأزليين، وسخريته بمن يعتقد أنه كان لهما أى أثر فى حياة الناس..

ولاشك أن الصراع الطبقى له فى الجاهلية مكانه وله أثره فى مجرى الأحداث.. ولكن رد حركة التاريخ كلها - أو حتى حركته الرئيسية - إلى عامل واحد مفرد - أيا كان هذا العامل، وأيا كانت قوته - هو سذاجة علمية، لا تليق بمن يدعون أنهم أصحاب «التفسير العلمى الوحيد» للتاريخ!

إن حركة التاريخ هى حركة البشر القاطنين على سطح هذا الكوكب، بكل ما يعتمل فى نفوسهم من دوافع ورغبات وصراعات، وكل ما يقع منهم وعليهم من تجاذب وتدافع وتصادم، من خلال حيز الزمان والمكان، والتيار الدافع الذى يدفع الجميع.

ومن ثم فكل مكونات النفس البشرية داخلة فى حركة التاريخ، وكل الصدامات والصراعات داخلة فى حركة التاريخ.

بحث الإنسان عن الله. وبحثه عن الطعام. وبحثه عن الحق والعدل. وبحثه عن الجمال. وسعيه إلى الغلبة والسيطرة. وسعيه لإثبات ذاته. وسعيه لتسخير كنوز السموات والأرض. وسعيه إلى الاستحواذ والملك.. هذه هى حركة الإنسان فى الأرض..

وهى تسير فى خطين اثنين: خط الهدى وخط الضلال..

وتقوم فى أثناء حركة البشر على الأرض صراعات كثيرة . . كلها تؤثر فى حركة التاريخ، صراعات مادية ومعنوية. صراعات سياسية واقتصادية واجتماعية. صراعات فكرية وعقيدية. صراعات طبقية وفردية. صراعات عنصرية وقومية ووطنية. صراعات من كل نوع، هى انعكاس للوجود البشرى وما يشتمل عليه من عناصر ومكونات.

واختصار هذه الصراعات كلها إلى صراع واحد، أو إلى صراع واحد رئيسى، هو حماقة مساوية فى حجمها لحماقة اختصار الحياة البشرية كلها إلى جانب واحد من جوانبها، وجعل الجوانب الأخرى كلها مجرد انعكاس للجانب الواحد المسيطر صاحب السلطان، وهى فى الوقت ذاته مسخ للتاريخ البشرى، كما لو تصورنا إنسانا بلا رأس، أو إنسانا بذراع بالغة الطول، وذراع أخرى ضامرة عديمة المفعول. . بدلا من الإنسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم!

●●●

يسجل التفسير الإسلامى - بواقعيته - كل صراعات البشر التى تحدث بينهم خلال حركتهم فى الأرض، والتى ترسم بدورها حركة التاريخ. . ولكنه لا يعطيها وزنا واحدا لأنها فى حقيقتها ليست ذات وزن واحد. ولا يشغله حجم الصراع عن النظر فى نوعيته وأهدافه.

إن صراع روسيا وأمريكا فى الجاهلية المعاصرة قد يكون أكبر صراع شهدته البشرية إذا قسناه بحجم الدولتين، وقدرتهما العسكرية، وقدرتهما العلمية والتكنولوجية، ومطامعهما الشيطانية فى السيطرة على ما يسمى «العالم الثالث» واستغلال طاقاته وخاماته وثرواته . . ولكنه -

فى عالم القيم - لا يزيد على صراع أى وحشين من وحوش الغاب على فريسة مشتركة، يريد كل منهما الاستيلاء عليها وحده، أو الفوز منها بأكبر نصيب.

ما الفرق - فى عالم القيم - بين أن يغلب هذا الوحش أو ذاك؟ ونتيجة الغلبة فى الحالين هى افتراس الفريسة؟[1]

إنما كان هناك فارق ضخم بين انتصار الفرس والروم وانتصار الإسلام، لأن انتصار الإسلام كان معناه تخليص الفريسة من الوحش المفترس، ومنحها الحياة.. لا مجرد الحياة.. ولكن الحياة على مستوى «الإنسان».

من أجل ذلك يحتفل التفسير الإسلامى بصراع الحق والباطل من بين الصراعات كلها القائمة فى الأرض، ويعطيه المقام الأول، وإن كان - فى واقعيته - لا يغفل شيئا من صراعات البشر ولا يغفل أثرها فى حركة التاريخ.

يقول تعالى عن صراعات الحياة الدنيا ومنافساتها ومشاغلها - خلا صراع الحق والباطل:

«اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر فى الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفار نباته، ثم يهيج فتراه

---

[1]) يدعى كل من الوحشين أنه يريد أن يحرر الفريسة من الوحش الآخر! بينما هو يخلصها من الوحش الآخر ليستخلصها لنفسه! ونحن المسلمين معظم العالم الثالث المتنازع عليه! وكلا المعسكرين يكيد للإسلام ويعمل على إزالته من الوجود!

مصفرا، ثم يكون حطاما. وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»(١)

ولكن يقول جل شأنه عن صراع الحق والباطل:

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين»(٢)

ويقول:

«وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»(٣)

ويقول:

«إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن. ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم»(٤)

ويقول:

«فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة. ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما. وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان

(١) سورة الحديد [٢٠]

(٢) سورة البقرة [٢٥١]

(٣) سورة الأنفال [٣٩]

(٤) سورة التوبة [١١١]

الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا. الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله. والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت. فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا»[1]

إن صراع الحق والباطل من بين الصراعات كلها التى تجرى فى الأرض هو الذى يقرر مصير البشرية فى الحياة الدنيا، فضلا عن مصير البشر فى الآخرة. . وهو الذى يحدد اتجاه سير التاريخ.

إن الصراع الرئيسى فى الحياة البشرية ليس هو الصراع بين طبقة وطبقة كما يزعم التفسير الجدلى. وليس هو الصراع بين شعب وشعب، أو بين قائد وقائد، أو بين إمبراطورية وإمبراطورية كما يزعم التفسير الليبرالى. فهذا وذاك ـ مجردين ـ لايغيران شيئا حقيقيا فى حياة الناس.

لا فرق فى الجوهر بين عهد الرق وعهد الإقطاع وعهد الرأسمالية وعهد الشيوعية. كلها عهود عبودية لغير الله. كلها جاهليات. كلها حكم بغير ما أنزل الله. كلها تقسم المجتمع البشرى إلى سادة وعبيد. سادة يشرعون، وعبيد ينفذون ما يشرعه السادة. وهناك ولاشك مئات من الفروق الجزئية الصغيرة بين بعض هذه العهود وبعض، نشأت من أحوال الإنسان المادية والعلمية، ومدى تسخيره لطاقات السماوات والأرض، ومدى طغيان السادة على العبيد فى كل نظام. ولكنها كلها تجتمع فى جوهر واحد هو تحكيم غير شريعة الله، ومن ثم عبودية البشر

---

(١) سورة النساء [٧٤ ـ ٧٦]

بعضهم لبعض، ووقــوع الــظلم لا محالــة، ووقــوع الاضــطراب والتخبط، وهبوط الإنســان عما أراده الله له من الرفعة والتكريم.

ولا فرق فى الجوهر بين هانيبال وأعدائه، ولا بين نابليون وأعدائه، ولا بين هتلر وأعدائه، سواء انتصر هذا القائد أو ذاك.

هناك ولاشك مئات من الفروق الجزئية الصغيرة بين شخصيات أولئـك القـادة «العـظام»! وبين طريقة كل منهم فى تنظيم جيشه، وتخـطيط حربـه، ومنـاورة عدوه. . إلـخ. . إلخ. ولكن لا يختلف الغالب منهم والمغلوب فى شىء حقيقى من الخصال الجوهرية التى تتوقف عليها إنسانية الإنسان، بحيث يتغير التاريخ البشرى لو انتصر المنهزم وتغلب المغلوب!

ولا فرق فى الجـوهـر بين الإمـبراطـورية الفـارسية والإمبراطورية الإغــريقية والإمــبراطـورية الـرومـانية والإمـبراطـورية الـبريطانية والإمــبراطــورية الفــرنسية والإمــبراطــورية الــروسية القيصرية والإمبراطورية الأمريكية والإمبراطورية الروسية الشيوعية. .

هناك ولاشك مئات من الفروق الجزئية الصغيرة بين كل واحدة من هذه الإمـبراطـوريات والأخرى، فى مـساحة الأرض التى احتلتها، والزمن الذى ظلت مسيطرة فيه، وطريقة إدارتها لمستعمراتها، وطريقة تسلطها على غيرها. . إلخ إلخ. ولكن لا تختلف تلك الجاهليات كلها فى وجـود دولـة أم وأتبـاع خاضعين للسيادة، ووجود نزعة للسيطرة واستعباد الآخرين، ونزعة للبطش واستخدام القوة للتوسع لا لإحقاق

الحق وإزهاق الباطل . . فضلا عن كونها كلها لا تحكم بما أنزل الله . . فحين تتصارع لا يختلف الغالب منها عن المغلوب، ولا تختلف أحوال البشر في الأرض من غلبة هذا أو غلبة ذاك.

ولكن هناك فارقا جوهريا بين إنسانين، وأمتين، ودولتين، وتجمّعين . . أحدهما مؤمن والآخر كافر . . فهذا هو الفارق الحقيقي الذي تختلف بحسبه نتيجة الصراع، ويتغير بحسبه واقع الأرض، وتترتب عليه - في التاريخ - أن تكون الصفحة بيضاء أو سوداء.

وحقيقة إنه لا توجد في التاريخ صفحة بيضاء خالصة البياض - إلا صفحة الأنبياء والرسل - ولا صفحة سوداء خالصة السواد إلا ماندر من عهود الطغاة كعهد نيرون، والتتار قبل أن يسلموا، والطغاة الذين يذبحون المسلمين في العهد الحاضر . . وأن الأغلب أن يختلط السواد بالبياض في كل صفحة من صفحات التاريخ . . ولكن هذا لا يدعو إلى تمييع القضية، والتسوية بين صفحات التاريخ. ففرق كبير بين صفحة يملؤها البياض إلا خطوطا سوداء متفرقة هنا وهناك، وصفحة يملؤها السواد إلا خطوطا بيضاء متناثرة هنا وهناك.

ومهمة التاريخ أن يسجل الواقع كما حدث بالفعل، مبينا فيه الأبيض والأسود من كل صفحة ومن كل سطر . .

●●●

يحتفل التفسير الإسلامي احتفالا خاصا بصراع الحق والباطل، ويتتبعه تتبعا دقيقا خلال التاريخ، ويتتبع الآثار التي ترتبت عليه في

واقع البشر، ويهتم بهذا الأمر أضعاف اهتمامه بالصراعات الأخرى التى لم تغير شيئا جوهريا فى الوجود البشرى، وإن كان يسجل الواقع التاريخى بالأمانة والواقعية التى يتناول بها المسلم كل شأن من شؤون الحياة، فيسجل الصراعات كلها كما حدثت فى الواقع، ثم يعطيها حجمها الذى تستحقه، ووزنها الذى تساويه، ولكن فى ميزان القيم الحقيقية التى يقررها المنهج الربانى، لا القيم التى تمليها أهواء البشر المحجوبين عن نور الله:

«ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن»(1)

ويؤمن التفسير الإسلامى بأن الغلبة فى صراع الحق والباطل تكون للحق فى نهاية المطاف:

«ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين، إنهم لهم المنصورون، وإن جندنا لهم الغالبون»(2)

«فأما الزبد فيذهب جفاء، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض»(3)

ولكن لايغفل التفسير الإسلامى عن أمرين رئيسيين فى هذه القضية.

الأمر الأول أن الباطل يمكن أن يتنفش فى الأرض فترة من الوقت،

---

1) سورة المؤمنون [71]

2) سورة الصافات [171 - 173]

3) سورة الرعد [17]

ويستعلى على الحق، حسب سنة من السنن الربانية، هى الإملاء للباطل قبل تدميره:

«فأمليت للذين كفروا، ثم أخذتهم، فكيف كان عقاب؟!»[1]

وسنة أخرى هى ابتلاء أهل الحق وتمحيصهم:

«أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لايفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين»[2]

«وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين»[3]

فانتفاش الباطل فى تلك الفترة - مع وجود الحق، وقيام جماعة من المؤمنين بخوض الصراع من أجله - ليس معناه هزيمة الحق، وليس هو النتيجة النهائية لصراع الحق والباطل.

إنما يملى الله للباطل، ليزداد طغيانا حين يرى انتصاره الموقوت على الحق، فيغريه ذلك بمزيد من الطغيان، حتى يستحق عذاب التدمير كله فى الدنيا فضلا عن عذاب الأخرة . . وذلك شأنه سبحانه:

«إنما نملى لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين»[4]

«ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء مايزرون»[5]

---

١) سورة الرعد [٣٢]

٢) سورة العنكبوت [٢ - ٣]

٣) سورة آل عمران [١٤١]

٤) سورة آل عمران [١٧٨]

٥) سورة النحل [٢٥]

ثم إن التمحيص ـ كما أسلفنا ـ أداة ضرورية من أدوات انتصار الحق . . ففترة انتفاش الباطل هى فى حقيقتها فترة التحضير لانتصار الحق، كما تشير الآية الكريمة فى آل عمران، إذ يجىء التمحيص أولا ثم يجىء بعده محق الكافرين . ومن ثم فإن انكماش الحق فى تلك الفترة أمام صولة الباطل ليس هـــزيمة له فى الحقيقة، إنما يكون الباطل ـ بيديه ـ يدرب الحق للانتصار فى المعركة الفاصلة!

ومما تجدر الإشارة إليه أن المثل الذى ضربه الله لصراع الحق والباطل فى القرآن الكريم قد احتوى لفتة ذات دلالة :

«أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها، فاحتمل السيل زبدا رابيا، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله . كذلك يضرب الله الحق والباطل . فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض، كذلك يضرب الله الأمثال» (١)

«ففتنة» الذهب والفضة على النار هى صهرهما لإخراج الخبث الذى يخالطهما حتى يكونا خالصين ثمينين رفيعين . وفتنة المؤمنين تتم فى نار الابتلاء، التى تصهرهم، فتخرج الخبث من نفوسهم، من شهوات وأهواء، حتى يكونوا خالصين لله، متجردين له، صالحين من ثم لحمل الأمانة التى قدر الله أن يحملها الإنسان، ولا تتم فتنة الذهب والفضة إلا بتلك النار التى يوقدون عليها، ولا يتم تمحيص المؤمنين كذلك إلا بتلك النار التى يوقدها الأعداء . . مع الفارق . . أن الناس

(١) سورة الرعد [١٧]

يوقدون النار على الذهب والفضة وهم يعلمون أن هذا هو السبيل الوحيد لتنقيتهما من الخبث. أما الطغاة فيوقدون النار ـ نار الفتنة ـ على المؤمنين يحسبون أنهم بذلك يقضون عليهم، فيكون من قدر الله أن يتم بذلك تمحيص المؤمنين، ليتم قدره فى محق الكافرين..

أما الأمر الثانى فهو أن التمكين فى الأرض ليس هو الصورة الوحيدة لانتصار الحق على الباطل وإن كانت هى الصورة الغالبة.

فانتصار الحق فى موقف السحرة من فرعون هو قمة من قمم الانتصار فى التاريخ البشرى، وإن كانوا لم يمكنوا فى الأرض بأشخاصهم. إنما كان الانتصار أنهم استعلوا على الباطل كله، وعلى الطغيان كله، وأعلنوا كلمة الحق التى يريد الطاغوت أن يطمسها ويمحوها من الأرض، كما استعلوا فى داخل نفوسهم على الخوف وعلى رغبة الحياة، فأعلنوا بذلك أن الحق أثمن من الحياة! واستمع إلى قولتهم الشامخة لفرعون:

«قالوا: لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا، فاقض ما أنت قاض! إنما تقضى هذه الحياة الدنيا! إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر. والله خير وأبقى»[1]

فأيهما الأعظم، والأرفع، والأروع فى ميزان القيم «الإنسانية» النبيلة: هم؟ أم فرعون الذى قتلهم وصلبهم فى جذوع النخل؟ وأيهما

---

(1) سورة طه [٧٢ ـ ٧٣]

المنتصر الحقيقى : الذين آمنوا بالحق فرفعهم عن متاع الأرض كله، أم الذى استعبدته الحياة الدنيا فأعمته عن الحق؟!

وكذلك قصة أصحاب الأخدود:

عن صهيب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كان ملك فيمن قبلكم وكان له ساحر. فلما كبر قال للملك: إنى كبرت فابعث لى غلاما أعلمه السحر. فبعث إليه غلاما يعلمه، وكان فى طريقه إذا سلك راهب، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه. وكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا خشيت الساحر فقل حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل حبسنى الساحر. فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس. فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل. فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس. فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أى بنى أنت اليوم أفضل منى! قد بلغ من أمرك ما أرى! وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي. وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة فقال: ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى. فقال: إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى الله تعالى، فإن آمنت بالله دعوت الله فشفاك. فآمن بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس، فقال

له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربى. قال: أولك رب غيرى؟!
قال: ربى وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام.
فجىء بالغلام فقال له الملك: أى بنى! قد بلغ من سحرك ما تبرىء
الأكمه والأبرص وتفعل وتفعل؟ فقال: إنى لا أشفى أحدا إنما يشفى
الله تعالى. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب. فجىء
بالراهب فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار
فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. ثم جىء بجليس الملك فقيل له
ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع
شقاه. ثم جىء بالغلام فقيل له ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفر
من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل،
فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه فذهبوا به فصعدوا
به إلى الجبل فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل
فسقطوا وجاء يمشى إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟
فقال: كفانيهم الله تعالى. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا
به فاحملوه فى قرقور وتوسطوا به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه.
فذهبوا به فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت. فانكفأت بهم السفينة
فغرقوا وجاء يمشى إلى الملك. فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟
فقال: كفانيهم الله تعالى. فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل
ما آمرك به. فقال: ماهو: قال: تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبنى
على جذع، ثم خذ سهما من كنانتى ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم

قل: بسم الله رب الغلام ثم ارمنى، فإنك إن فعلت ذلك قتلتنى. فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهما من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام! ثم رماه فوقع السهم فى صدغه، فوضع يده فى صدغه فمات. فقال الناس: آمنا برب الغلام! فأُتى الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرك: قد آمن الناس! فأمر بالأخدود بأفواه السكك فخدت وأضرم فيها النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها، أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبى لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: ياأمهْ! اصبرى فإنك على الحق»[1]

أى روعة لانتصار الحق فى نفوس المؤمنين!

«قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذى له ملك السموات والأرض، والله على كل شىء شهيد. إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا، فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق. إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. ذلك الفوز الكبير»[2]

نعم! ذلك الفوز الكبير. وحين تمتد الصورة حتى تشمل الدنيا

---

١) أخرجه مسلم

٢) سورة البروج [٤ - ١١]

والآخرة معا كما هى فى حقيقتها، لا يكون التمكين فى الأرض شرطا لازما لإثبات الانتصار! فإنما يحدث الانتصار فى الأنفس أولا فستعتلى على الباطل، وعلى شهوات النفس، وعلى متاع الأرض.. ثم يأتى التمكين فى الآخرة أو فى الدنيا والآخرة سواء!

وكذلك قصة أصحاب الكهف:

«أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا. إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشدا. فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا، ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. نحن نقص عليك نبأهم بالحق: إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى. وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا: ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها، لقد قلنا إذا شططا. هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين؟! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟ وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته، ويهيىء لكم من أمركم مرفقا». [1]

هذه صور ثلاث لانتصار العقيدة فى نفوس أصحابها، وانتصار الحق على الباطل دون تمكين فى الحياة الدنيا.. ولكن الصورة الغالبة هى تدمير الباطل فى الدنيا وتمكين المؤمنين:

«.. ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا،

---

١) سورة الكهف [٩ ـ ١٦]

ونجيناهم من عذاب غليظ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد. وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة. ألا إن عادا كفروا ربهم. ألا بعدا لعاد قوم هود»[1]

«.. فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوى العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها، ألا أن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود»[2]

«.. فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وماهى من الظالمين ببعيد»[3]

«... ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، كأن لم يغنوا فيها، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود»[4]

«وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة. إن أخذه أليم شديد»[5]

« فكلا أخذنا بذنبه، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من خسفنا به الأرض، ومنهم من أغرقنا، وما

---

(١) سورة هود [٥٨ - ٦٠]

(٢) سورة هود [٦٦ - ٦٨]

(٣) سورة هود [٨٢ - ٨٣]

(٤) سورة هود [٩٤ - ٩٥]

(٥) سورة هود [١٠٢]

كان الله ليظلمهم، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»[1]

● ● ●

فإذا كانت هذه فى الأمم السابقة سنة غالبة فهى بالنسبة لهذه الأمة وعد:

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا»[2]

ولكنه - كما ترى - وعد مشروط:

«الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات»

«يعبدوننى لا يشركون بى شيئا»

كما أن له شرطا آخر، أو ملابسات أخرى..

فلابد أن يكون قد تبلور وَصَفًا، ووضح فى نفوس أصحابه كما وضح فى نفوس أعدائه:

«وكذلك نفصل الآيات، ولتستبين سبيل المجرمين»[3]

وحين تستبين سبيل المجرمين تكون سبيل المؤمنين قد استبانت كذلك، ولم يعد هناك غبش حول الحق.. عند المؤمنين به والكافرين

---

(١) سورة العنكبوت [٤٠]

(٢) سورة النور [٥٥]

(٣) سورة الأنعام [٥٥]

به سواء. وعندئذ يلتقى الحق والباطل فى المعركة الفاصلة وقد تبين لكل فريق موقفه على وجه التحديد، ووقف موقفه على بينة كاملة لا خفاء فيها:

«ليهلك من هلك عن بينة، ويحى من حي عن بينة» (١)

وعندئذ يكون النصر من عند الله.. وعدا خاصا لهذه الأمة حين توفى بالشرط..

«ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» (٢)

لقد تفضل الله على هذه الأمة بأن أرسل إليها الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم، وجعل رسالته إلى البشرية كافة، ولم يجعل من بعده نبيا يرسل إلى الناس:

«ما كان محمد أبا أحد من رجالكم، ولكن رسول الله وخاتم النبيين» (٣).

فلزم أن تقوم أمته برسالته صلى الله عليه وسلم من بعده، فتدعو إلى الإيمان، وتنشر النور الربانى فى الأرض، وتجاهد لتكون كلمة الله هى العليا، وتكون شاهدة على كل البشرية:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا» (٤)

---

(١) سورة الأنفال [٤٢]

(٢) سورة المائدة [٥٤]

(٣) سورة الأحزاب [٤٠]

(٤) سورة البقرة [١٤٣]

«ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون»[1].

وإذ تفضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بذلك، فقد تفضل عليها كذلك بوعد التمكين فى الأرض.. كلما وفت لربها بالشرط..

ولا يمنع ذلك بطبيعة الحال من أن يكون مصير بعض الأفراد فى فترة الابتلاء أو فترة التمحيص التى تمر قبل التمكين هو مصير سحرة فرعون، أو مصير أصحاب الأخدود، فطريق الدعوة لا يخلو من شهداء يقدمون أنفسهم رخيصة فى سبيل الحق الذى يؤمنون به، ويتخذهم الله شهداء، ويكتب لهم الحياة:

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين»[2]

«ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين»[3]

---

(١) سورة آل عمران [١٠٤]

(٢) سورة آل عمران [١٣٩ ـ ١٤١]

(٣) سورة آل عمران [١٦٩ ـ ١٧١]

معيار الإنجاز البشرى

لقد تبين لنا ـ فيما أحسب ـ من الفصول السابقة كيف يكون المعيار الصحيح الذى نقيس به الإنجاز البشرى.

هناك فى الحقيقة معايير كثيرة، لأن الإنجاز البشرى متعدد الجوانب، متعدد المجالات. فهناك إنجاز مادى. وإنجاز روحى. وإنجاز علمى. وإنجاز حربى. وإنجاز سياسى. وإنجاز ثقافى. وإنجاز فنى.. قد يكون من الأوفق ـ إذا اتفقنا على المصطلح ـ أن نسمى مجموعها «الإنجاز الحضارى» للإنسان.

ومع وجود معيار خاص لكل لون من ألوان الإنجاز المتعددة، فلابد أن يكون هناك معيار أخير، يقوّم به الإنجاز البشرى فى مجموعه، ويعطى «درجة نهائية» تحدد مكانه فى التاريخ.

وهذا المعيار الجامع هو الذى تختلف عليه التفسيرات المختلفة للتاريخ، وهو فى الحقيقة أهم ما تقدمه دراسة التاريخ.

إنه لن يكون هناك خلاف ـ أو لن يكون هناك خلاف كبير ـ فى تقويم الإنجازات «النوعية» للإنسان.

فالعمارة المادية للأرض معيارها: كم مدينة أنشئت؟ وما حجمها؟ وما نوع المنشآت التى أقيمت فيها؟ وما مقدار البراعة فى الإنشاء؟ وكم قرنا بقيت بعد أصحابها؟ وكم كان لها من الأثر فى غيرها من الأمم؟ وكيف كانت الطرق؟ وكيف كانت «الخدمات»؟ وكيف كانت التيسيرات؟ وكم كان من «الجمال» فيها إلى جانب المتانة والرسوخ وطول الاحتمال؟.. الخ..

والإنجاز الحربى معياره: كم معركة خاضتها تلك الأمة؟ وكم نصراً أحرزته؟ ما كان حجم جيوشها؟ ما كان سلاحهم؟ كيف كان قتالهم؟ كم كانت قوة الأعداء؟ كم قائدا بارزا خرجوا من صفوفها.. الخ.. الخ.

والإنجاز السياسى معياره: كم كان الاستقرار فى حياة الأمة؟ كم كانت هيبة حكامها؟ كيف كانت معاملتهم لشعوبهم؟ كيف كانت علاقات الدولة بجيرانها؟ كيف حلت مشاكلها معهم؟.. الخ.

والإنجاز الثقافى معياره: كم مفكرا نبغ فى تلك الأمة؟ ما مؤلفاتهم؟ أى المجالات اتجهوا إلى التفكير والتأليف فيها؟ ماذا بقى من آثارهم الفكرية مما ينتفع به الناس اليوم؟ وماذا اندثر فى وقته لأنه وقتى ومحلى ليست له صفة الشمول ولا العمق والأصالة التى تجعله تراثا «إنسانيا» وإن اصطبغ - بالضرورة - بالصبغة المحلية للأمة.

والإنجاز العلمى.. والإنجاز الفنى.. وغيره من الإنجازات.. كل له معياره النوعى الذى تتفق فيه الأحكام أو تتقارب بين الناس..

ولكن يبقى الخلاف الأكبر فى إعطاء كل إنجاز من هذه الإنجازات مكانه فى التقويم النهائى. أيها فى المقدمة، وأيها فى المؤخرة؟ أيها له القيمة الكبرى، وأيها له القيمة الأقل؟ وهل من بينها شىء لا قيمة له على الإطلاق؟

هنا يختلف تفسير عن تفسير.. وهنا يبرز التفسير الإسلامى بمعياره الخاص.

لقد كانت الأساطير اليونانية تراثا فكريا وأدبيا ضخما فى نظر التفسير الليبرالى... وما تزال.. وكانت فى نظر المسلمين الذين تعلموا الإغريقية ونقلوا علومها إلى العربية عبثا جاهليا لا يستحق أن يلتفت إليه.. فأى النظرتين هى الصواب؟

وكانت الفلسفة الإغريقية فى قضايا الكون والحياة والإنسان وقضية الألوهية تراثا فكريا ضخما فى نظر التفسير الليبرالى، وكذلك خدع فيها المسلمون الذين نقلوا عن الإغريقية، فظنوها شيئا يستأهل النقل، فأصابت الفكر الإسلامى لوثة لم يتخلص من آثارها من قريب، وفقد صفاءه المستمد من صفاء منابعه، ودخلت به الفرق الكلامية فى متاهات ما تزال آثارها قائمة حتى اللحظة تؤثر فى مجرى حياتهم وتحرفهم عن الإسلام.

وكانت الأهرامات الفرعونية قمة فى الإنجاز المادى والعلمى، ما يزال كثير من أسرارها خافيا حتى اليوم، يعجز العلم عن إدراك ما

وراءه. . والتفسير الليبرالى بصفة خاصة يشيد إشادة ضخمة بالإنجاز الفرعونى كله، ومن بينه تلك الأهرامات. . فما التقويم النهائى لها فى المعيار «الإنسانى» الذى يأخذ الإنسان فى مجموعه، ولا يقومه بجانب واحد من جوانبه، ولا مجال واحد من مجالاته؟

●●●

إذا نظرنا إلى التفسير الليبرالى نجده مأخوذا بالإنجاز المادى بصفة خاصة، كما أنه مأخوذ بالإنجاز السياسى والحربى إلى حد كبير، وكذلك بالإنجاز الفكرى. . أما الإنجاز «الروحى» فهو عنده فى ذيل القائمة، إن كان له وزن عنده على الإطلاق!

وتفسير ذلك بالنسبة للتفسير الليبرالى أمر غير عسير، وقد أوضحناه من قبل، من قيام «النهضة» الأوروبية على عداء مع الدين، وامتداد هذا العداء فى أوروبا إلى الوقت الحاضر، بالإضافة إلى كون أوروبا الحديثة هى وريثة «الحضارة» الرومانية الإغريقية، وقد كانت الرومانية بارعة ومزهوة بالإنجاز المادى والحربى، وكانت الإغريقية مزهوة بالإنجاز الفكرى التجريدى. فإذا أضيف إلى ذلك ما تأثرته أوربا بالداروينية فى العصر الحديث، وبفكرة الصراع من أجل البقاء، وكونها غاية الحياة فى جميع الأحياء بما فى ذلك الإنسان، فإن الصراع من أجل البقاء إن تكن وسيلته فى عالم الحيوان هى القتال، فإن وسيلته فى عالم الإنسان هى الحرب والسياسة!

وبذلك تجتمع لدينا كل خيوط التفسير الليبرالى للتاريخ: اهتمامه

الشديد بالإنجاز المادى، وإعجابه بألإنجاز السياسى والحربى والفكرى، وإهماله الشديد للإنجاز الروحى . . وتقويمه للتاريخ بهذا المعيار المختل، الذى أخلت بتوازنه ظروف أوروبا الخاصة، ثم أتاحت الظروف السياسية والعسكرية والمادية لأوروبا أن تغلب على العالم، وتنفث فيه تصوراتها الخاصة، ويتلقفها المهزومون على أنها الحق الذى لا يقبل النقاش، كما حدث للدارسين «المسلمين» من خلال الغزو الفكرى!

أما التفسير الجدلى فلا معيار عنده لشىء إلا مواءمة الطور التاريخى الحتمى أو عدم مواءمته! فإنك لا تلمس فى هذا التفسير إعجابا بشىء أو إشادة بشىء إلا المشاعية الأولى والشيوعية الثانية، لا بدراسة علمية حقيقية، ولكن بالهوى المذهبى وحده.

فالمشاعية الأولى - كما يصورونها بغير سند علمى حقيقى - فترة ملائكية فى حياة البشرية، سبب ملائكيتها عدم وجود ملكية خاصة، ووجود الملكية الجماعية بدلا منها، سواء بالنسبة للأرض، أو بالنسبة للطعام، أو بالنسبة للجنس! فلما وجدت الملكية الفردية بدأت العبودية وبدأ الشقاء، واستمر ينتقل من طور إلى طور؛ من الرق إلى الإقطاع إلى الرأسمالية، إلى ان يدخل العالم فى الشيوعية الثانية، فتتحول الملكية الصناعية والزراعية إلى ملكية جماعية ، وتعود الشيوعية الجنسية الكاملة، وتلغى الأسرة، فعندئذ تعود الملائكة ترفرف على البشر مرة أخرى، وينتهى الصراع إلى الأبد، ويصبح القانون الذى

يسير الحياة: من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته.. فلا يتنازع الناس ما بقيت السموات والأرض!!

وبصرف النظر عن السذاجة غير العلمية فى هذا التصور.. وبصرف النظر عن «أفيون الشيوعية» الأكبر، الذى تخدر به الجماهير الكادحة لترضى بالظلم السياسى البشع الذى يقع عليها من «النظام» على أمل أن تسعد بتلك الملائكية المزعومة فى يوم من الأيام[1].. بصرف النظر عن هذا كله فإننا نبحث هنا عن نقطة واحدة، هى المعيار الذى يقوم به الإنجاز البشرى..

لا معيار!

إن التفسير الجدلى مشغول دائما بتفنيد دعاوى التفسير الليبرالى وتخطئتها، على أساس أنها تهمل الصراع الطبقى الذى هو العنصر الذى يحرك التاريخ، ولا تضع التاريخ على قاعدته الصحيحة - فى نظرهم - وهى المادية الجدلية والمادية التاريخية الحتمية..

ثم يلتقط هذا التفسير بعض الخيوط العريضة من التاريخ البشرى، ليطبق عليها قاعدته، ثم يصيح: انظروا! هذا هو التفسير الصحيح لهذا الحدث أو ذاك!

ولكنه يهمل «الإنجاز البشرى» كله أو جله!

إنه فى الحقيقة ليس معنيا بالإنسان! إنما هو معنى بقوانين المادة التى تفسر - فى زعمه - تاريخ الإنسان! ومن هنا فإن الإنجاز البشرى - حتى

---

١) ناقشت هذه الدعاوى كلها فى فصل «الشيوعية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة»

الانجاز المادى ـ لا يهمه بصفته إنجازاً «للإنسان» إنما يهمه فقط بوصفه انعكاساً للأوضاع المادية والاقتصادية ، وباعتباره حتمية تاريخية !!

إنه يتكلم ـ مثلا ـ عن أثر اكتشاف الزراعة فى إنهاء الفترة الملائكية الأولى ـ وهى المشاعية البدائية ـ ونقل الناس إلى مرحلة الرق.

وعن أثر اختراع المحراث فى نقل البشرية من مرحلة الرق إلى مرحلة الإقطاع. وعن أثر اختراع الآلة فى نقل الناس من مرحلة الإقطاع إلى مرحلة الرأسمالية. . فلا تلمس أنه يتكلم عن الإنسان الذى اكتشف الزراعة،أو اخترع المحراث، أو اخترع الآلة، ولا يتكلم عن الزراعة والصناعة على أنها منجزات بشرية! وكأنما هبط المحراث ذات يوم من السماء أو هبطت الآلة، فأحدثت فى حياة الناس ما أحدثت من تغيير. .

إن التفسير الجدلى لا يتعاطف مع «الإنسان». . إنما هو يتحدث ـ بروح الإعجاب والتوقير والتقديس ـ عن ذلك الإله الجبار الذى يسير حياة الإنسان، وهو المادة وقوانينها الحتمية. . فإذا التفت إلى الإنسان، وصراعاته، ومجزاته، فليسجل فقط كيف تحركت تلك الدمى البشرية بين يدى ذلك الجبار القاهر، مغلوبة على أمرها، لا تملك الرفض، ولا تملك التغيير!

ولقد تلمس فى بعض الأحيان تباكيا على وضع المرأة المظلومة خلال التاريخ، ووضع البروليتاريا التعيسة التى يستغلها السادة المالكون لأدوات الإنتاج، ولكنك حتى عندئذ لا تلمس تعاطفا حقيقيا مع

«الإنسان». فمن معانى «التعاطف» إحساسك وإيمانك بأن الوضع كان ينبغى أن يكـون أفضل من ذلك وأرحم وأعدل . . ودون ذلك تقف «الحتميات» التى تقول إن هذا مستحيل! وإن ما وقع بالفعل هو الشىء الذى تسمح به حتميات المادة وحتميات التاريخ، وإن التفكير فى تغييره أو النـظر إليه من زاوية خلقية، من زاوية الحق والعـدل الأزليين، سذاجة علمية يقع فيها السذج الطوباويون لنقص فى وعيهم التاريخى ووعيهم الجدلى!

وإذن . . فلا معيار!

لا تستطيع فى أى لحظة أن تقول إن هذه الأمة أرقى أو أحط من تلك الأمة، ولا أقوى ولا أضعف، ولا أنشط ولا أكسل، ولا أكثر إنجازا ولا أقل، ولا أجدر بالبقاء ولا أجدر بالفناء . .

إنما أنت فى متحف الشمع التاريخى تستطيع فقط أن تقول: هذا رجل من العصر الزراعى، وهذا من العصر الصناعى. وهذه امرأة من المشاعية الأولى أو من الشيوعية الثانية.

أنت مع مجموعة من «الأنماط» . . ولست مع «الإنسان»!

● ● ●

فى التفسير الإسلامى للتاريخ، تعيش مع الإنسان، ومع قدر الله، ومع السنن الربانية التى يجرى من خلالها قدر الله.

تعيش مع «عملية» الحياة كاملة . .

وتشاهد الإنسان فى جميع أحواله: مقبلا ومدبرا، مستقيما ومنحرفا،

ناشطا ومتراخيا، مهتديا وضالا . . وتشاهد الشبكة الحية التى تصل الأشخاص والأشياء والأحداث، بروابطها الحقيقية، و أحجامها الطبيعية.

ومعيارك الـذى تقيس به الأشخـاص والأشياء والأحـداث هو «الإنسـان» كما ينبغى أن يكون، بحسب المهمة التى خلقه الله من أجلها، وبحسب تكوينه الذى خلقه الله به، وبحسب السنن الربانية التى تحكم حياته.

هل هناك معيار أضبط من هذا المعيار؟ أو أصدق من هذا المعيار؟!

و«الإنسان كما ينبغى أن يكون» ليس صورة مثالية معلقة فى الفضاء لا ظل لها من الواقع، بل صورة واقعية تماما، محسوب فيها «بشرية الإنسـان»، ونقـط ضعفـه البشرى، وعثـراتـه وكبـواتـه، ودوافعـه وشهـواته، ولكن محسوب فيها كذلك مواهبه وقدراته، والآفاق التى خلق من أجلها، والتى يستطيع بالفعل أن يصعد إليها.

هناك حد أدنى لا ينبغى للإنسان أن يهبط دونه، وحين يتجاوزه يكون مسؤولا عن هبوطه، محاسبا عليه بمقتضى السنن الربانية التى تحكم حياته. وهناك حد أعلى مفتوح، يصيب كل إنسان منه بقدر ما يطيق «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها»[1] ويكافأ - بمقتضى السنن الربانية كذلك - على قدر ما يجتهد ويصيب.

كما أن «الإنسـان كما ينبغى أن يكـون» ليس نمطا واحدا محددا

---

[1]) سورة البقرة [٢٨٦]

كأنماط التفسير المادى . . وليس صورة مكرورة حتى فى الظروف الواحدة والمكان الواحد والزمان الواحد . . فتعدد الأنماط فى النوع الواحد ظاهرة ملحوظة فى خلق الله ، حتى فى الجراثيم والنبات والحيوان ، ولكنه أبرز ما يكون فى عالم الإنسان . وليس اختلاف الأنماط واضحا فى تقسيم الناس إلى قسميهم الرئيسيين فقط :

«خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (١)

ولكن فى كل من القسمين أنماط لا تعد ولا تحصى ، حتى يوشك أن يكون كل إنسان فرد نموذجا قائما بذاته غير مكرور!

إنما «الإنسان كما ينبغى أن يكون» اتجاه عام معين ، تندرج تحته أنماط لا عداد لها ، كل نمط يختلف ويتشابه فى ذات الوقت مع غيره من الأنماط .

فحين يقول تعالى :

«وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . إنها ساءت مستقرا ومقاما . والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما . والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون . ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما ،

---

(١) سورة التغابن [٢]

ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا، والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما. أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاما، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما» (١)

أو يقول:

«قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون» (٢)

أو يقول:

«إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا! سبحانك! فقنا عذاب النار» (٣)

---

(١) سورة الفرقان [٦٣ ـ ٧٦]

(٢) سورة المؤمنون [١ ـ ١١]

(٣) سورة آل عمر ن [١٩٠ ـ ١٩١]

فإنه لا يجدد قالبا معينا ذا أبعاد محددة . . إنما يحدد صفات نفسية وسلوكية معينـة ، يمكن أن تؤدى على أنماط متعددة ، كما كان يؤديها أبوبكر وعمر وعثمان وعلى ، ومئات من الصحابة وألوف ، رضوان الله عليهم جميعا ، كل منهم نمط مختلف عن صاحبه وإن اتفقوا جميعا فى الاتجاه .

●●●

«الإنسان كما ينبغى أن يكون» ـ فى نظرة الإسلام الواقعية ـ كائن مترابط متكـامـل ، متـوازن قدر الإمكان ما بين قبضة الطين ونفخة الروح ، عابد لله على المعنى الواسع الشامل للعبادة التى تعنى ـ فيما تعنى ـ عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى[1]

وهذا هو المعيار . .

معيار يقاس به الفرد ، وتقاس به الجماعة ، وتقاس به الأمة . ويقاس به التاريخ . .

فكـل فرد أو جماعة أو أمة استطاعت أن تحقق وجودها على هذا الوضع ، فعبدت الله وحده ، وحافظت قدر الطاقة على توازنها وترابطها وتكاملها ، وقامت بعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، فهى الفائزة فى التقويم الإسلامى ، التى تستحق أن يفسح لها التاريخ صفحاته ، وأن يكتب تاريخها بسطور بارزة فى تلك الصفحات .

وكل فرد أو جماعة أو أمة أخفقت فى تحقيق هذه الصورة الوضيئة

---

١) راجع إن شئت فصل «مفهوم العبادة» فى كتاب «مفاهيم ينبغى أن تصحح» .

فعبدت غير الله، معه أو من دونه، وفقدت توازنها وترابطها وتكاملها ما بين قبضة الطين ونفخة الروح، فتقاعست عن عمارة الأرض، أو عمرتها بغير المنهج الربانى.. فهى متخلفة فى التقويم الإسلامى، لا تستحق أن يسجلها التاريخ إلا فى ذيل الصفحات!

وأول ما قد يخطر فى بال «المثقفين» الذين تعودوا بحكم ثقافتهم - أو بالأحرى بحكم الغزو الفكرى الذى تجرعوه - أن ينظروا بعين أوروبا، هو أن هذا المعيار «متعصب!» أو أنه «غير علمى» لأنه مستمد من «النظرة الدينية»!

أما التعصب فهو غير وارد، لأننا لا نحكم به من عند أنفسنا. إنما هو المعيار الربانى الذى يقوّم به أعمال البشر فى الدنيا وفى الآخرة، والذى تجرى على مقتضاه السنن الربانية التى تحكم الحياة البشرية، والتى لا تتبدل ولا تتحول، ولا تنثنى عن مجراها مجاملة لأحد أو بغضا لأحد!

وهو غير وارد كذلك لأننا لا نحابى به الأمة الإسلامية حين تنحرف عن الطريق، بل نسجل عليها انحرافها[1] ونبين كيف جرت عليها السنن الربانية التى لا تجامل ولا تحابى، ونبين كيف أنها حين اشتد انحرافها صارت أسوأ من الأمم الجاهلية، لأنها لا هى استقامت على المنهج الربانى، ولا هى اجتهدت للدنيا كما تجتهد الأمم الجاهلية الممكنة فى الأرض بحسب السنن الربانية، فأصبحت - كما هو واقعها

---

(١) راجع فصل «خط الانحراف» من كتاب «واقعنا المعاصر».

اليوم ـ غثاء كغثاء السيل، تتداعى عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها [1]

فإذا كان التعصب غير وارد، لا فى ابتداع المعيار ـ فهو ليس من صنعنا ـ ولا فى تطبيقه، لأننا لا نجامل الأمة الإسلامية فى انحرافها، فقد بقيت دعوى «العلمية» التى تقلق بال «المثقفين» إذا ذكر أمر مستمد من «الدين»!

إن أوروبا قد قالت فى دينها ما قالت، وتوجست من أحكامه ما توجست، وأبعدته وأبعدت أحكامه من المجال العلمى، لا لأنه «دين» كما يفهم «المثقفون» بتأثير الغزو الفكرى، ولكن لأنه ليس هو الدين المنزل من عند الله، ومن ثم فلا حجية لأحكامه، ولا «علمية» لها، لأنها من أهواء بشر مشهود لهم ـ أو لغالبيتهم ـ بالجهالة، والتجبر فى الأرض بغير الحق، والحجر على الفكر، ومعاداة العلماء والعلم، بينما لو كان هو الدين المنزل من عند الله لكانت أحكامه صحيحة من جهة، وملزمة من جهة أخرى، لأن الله لايقول إلا الحق، سواء فى التوراة أو الإنجيل أو القرآن أو ما سبقها من الكتب، ولأن مايقوله الله ـ وهو الحق ـ لا يجوز للبشر أن يحيدوا عنه.

«إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء»[2].

(1) راجع فصل «آثار الانحراف» من الكتاب نفسه.

(2) سورة المائدة [٤٤]

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور، ومصدقا لما بين يديه من التوراة، وهدى وموعظة للمتقين»(١)

«وأنزلنا إليك الكتاب بالحق، مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه»(٢)

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»(٣)

«قل: أأنتم أعلم أم الله»(٤)

فليست القضية أن أحكام الكنيسة مرفوضة فى المجال العلمى أو ساقطة الحجية لأنها مستمدة من الدين - كما يتوهم «المثقفون» - ولكن لأنها مستمدة من دين محرف لا حجية له.

أما فى الإسلام فالقضية مختلفة تماما..

فلا قد وقع تحريف أو تبديل فى كتاب الله المنزل، الذى تكفل الله بحفظه:

«إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»(٥)

ولا فى الإسلام كنيسة تحتكر تفسير النصوص الدينية، أو تحتكر

---

(١) سورة المائدة [٤٦]

(٢) سورة المائدة [٤٨]

(٣) سورة الأحزاب [٣٦]

(٤) سورة البقرة [١٤٠]

(٥) سورة الحجر [٩]

صياغة الأفكار للناس! فهو دين مفتوح متاح فهمه لمن يدرك لغته، ومطلوب تدبره من كل الناس:

«أفلا يتدبرون القرآن؟ أم على قلوب أقفالها؟»[1]

«كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»[2]

ثم إن وزن الأمور بغير الميزان الرباني، إن كان مفهوما ممن لايؤمنون بالله، فكيف يتأتى من إنسان يؤمن بالله ربا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، وبالإسلام دينا؟!

وحين يزن البشر جميعا بغير ميزان الله، فهل يغير ذلك شيئا فى الأمر؟!

هل للبشر كون غير كون الله يعيشون فيه، ويدبرون أموره، ويرتبون النتائج فيه على هواهم؟!

فإن لم يكن، فما قيمة أن يقولوا لما قال الله عنه إنه فاسد إنه صالح؟ ولمن أحبط الله عمله إن عمله راسخ البنيان؟!

●●●

وقد يقول «المثقفون» ـ معبرين عن موقف سادتهم، وإن ظنوا أنهم يعبرون عن موقف ذاتى ـ إن هذا المعيار سيسقط أكثر أهل الأرض، لأنهم لم يكونوا مؤمنين بالله ورسالاته!

فما حيلتنا نحن مع البشر؟

---

١) سورة القتال [٢٤]

٢) سورة ص [٢٩]

هل نستطيع أم نزور لهم تاريخا غير تاريخهم الحقيقى، نقول فيه إنهم لم يكونوا وثنيين؟ كما زور المزورون لإخناتون أنه كان أول موحد فى التاريخ؟! بينما كان - كما يقول المزورون أنفسهم - يعبد قرص الشمس بدلا من الله؟! ويقول رب العالمين عن إبراهيم عليه السلام:

«فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى! هذا أكبر! فلما أفلت قال ياقوم إنى برىء مما تشركون! إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين!»(1)

فأين قول المزورين من قول الله؟!

وكون الكثرة من أهل الأرض وثنيين ضالين، والقلة هم المؤمنين المهتدين، لا يغير شيئا فى الموازين! فليس الميزان بالكثرة!

«وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله»(2)

«قل لايستوى الخبيث والطيب، ولو أعجبك كثرة الخبيث، فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون»(3)

●●●

وأخيرا قد يقول «المثقفون» إن هذا معيار أخروى، ونحن نؤرخ للحياة الدنيا؛ وبين الدنيا والأخرة تختلف المعايير!

وهو قول غير صحيح!

---

(1) سورة الأنعام [٧٨ - ٧٩]

(2) سورة الأنعام [١١٦]

(3) سورة المائدة [١٠٠]

فمعيار الدنيا ـ كما أسلفنا القول فى الفصل الأول ـ هو ذاته معيار الآخرة، ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك مادام الحساب والجزاء فى الآخـرة هو على أعمال الإنسان فى الحياة الدنيا! فلا يعقل أن يكون حسنا فى الآخرة ما ليس حسنا فى الحياة الدنيا، أو يكون شرا فى الآخرة ما هو حسن وصالح فى الحياة الدنيا . .

إنما تفترق الدنيا عن الآخرة لا فى المعيار، ولكن فى الجزاء . .

فبالنسبة للأفراد قد يملى الله للظالمين منهم حياتهم كلها، فيموتون على ضلالهم وظلمهم وطغيانهم لا ينتقم الله منهم فى الحياة الدنيا، ويؤجل لهم جزاءهم كله فى الآخرة:

«ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم، ألا ساء مايزرون»(١)

وقـد يقضى المؤمن حياتـه كلها مبتلى، لا ينتقم الله له فى الحياة الدنيا، ويؤجل له جزاءه كله فى نعيم الآخرة :

«إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب»(٢)

«كل نفس ذائقة الموت، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة. فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور»(٣)

---

(١) سورة النحل [٢٥]

(٢) سورة الزمر [١٠]

(٣) سورة آل عمران [١٨٥]

أما المجتمعات فلابد أن تنالها سنة الله فى الحياة الدنيا. ولكن يبقى الفرق بين جزاء الدنيا وجزاء الآخرة أن جزاء الآخرة فورى الوقوع بمجرد انتهاء الحساب. أما جزاء الدنيا فقد لا يحيق بأصحابه إلا بعد أجيال، حسب سنة من سنن الله، هى سنة الإملاء للظالمين قبل أخذهم بالعقاب:

«فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم، فكيف كان عقاب؟!»(١)

«وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها، وإلي المصير»(٢).

فالكافرون الضالون الوثنيون قد يمكنون فى الأرض عدة قرون - إذا اجتهدوا للدنيا وبذلوا فيها جهدهم - قبل أن يلحقهم التدمير، بل قد يفتح الله لهم أبواب كل شىء برغم كفرهم وضلالهم ووثنيتهم، ثم فى النهاية يدمر عليهم:

«فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين»(٣)

والتفسير الإسلامى للتاريخ سيذكر ذلك كله..

سيذكر أن المصريين القدماء كانوا بارعين جدا فى الطب والكيمياء والفلك والهندسة وغيرها من العلوم. وأنهم كانوا يقومون بعمليات فى المخ (عمليات التربنة لمن يصاب بكسر فى جمجمته) وكانوا يصنعون

---

(١) سورة الرعد [٣٢]

(٢) سورة الحج [٤٨]

(٣) سورة الأنعام [٤٤ - ٤٥]

الحديد الصلب والنحاس الصلب أيضا، وكانوا يستخدمون مواد لتلوين النقوش فى معابدهم وجدرانهم مر على بعضها أكثر من خمسة آلاف عام وهى بلمعانها ماتزال كأنما تم نقشها الساعة. وكانوا يحنطون الجثث بطريقة لم يهتد أحد إلى أسرارها حتى اليوم، وكانوا يبنون الأهرام بحسابات دقيقة غاية الدقة، كما استخدموا أصلب الأحجار فى تماثيلهم ومعابدهم. وسيذكر كذلك أنهم كانوا مقاتلين أشداء، وأنهم أسسوا إمبراطوريات شملت مصر والشام وبلاد النوبة. وسيذكر أنهم شعب دمث الأخلاق لين العريكة، وأنهم حافظوا على رباط الأسرة وكثير من الأخلاق الفاضلة.. ولكنه سيذكر إلى جانب ذلك أنهم كانوا يعبدون العجل أبيس! ويؤلهون الفرعون! ويتذللون إليه ويتعبدونه، ولا يحسون مهانة فى أن يكونوا عبيدا له وخدماً يسخرهم فى بناء مجده، ويستخفهم فيطيعونه..

هل يظلمهم التفسير الإسلامى للتاريخ حين يذكر لهم ذلك كله، بإيجابياته وسلبياته، ثم يقول عنهم فى النهاية إنهم كانوا يعيشون فى جاهلية على الرغم من أن الراجح أنهم أرسل إليهم رسول من عند الله؟ (1)

---

1) مما يرجح ذلك ما ورد فى القرآن من معرفتهم الملائكة، إذ جاء فى حديث النسوة فى قصة يوسف «حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم» [سورة يوسف: 31] وجاء فى كتاب الموتى الذى عثر عليه فى بعض مقابرهم وصف دقيق للبعث والحساب والجزاء، لايتجه البشر إلى التفكير فيه على هذا النحو من عند أنفسهم، وعلى أحد جدران معابدهم نقش يصور الإله يحمل عرشه ثمانية من الملائكة أولى الأجنحة. ويقول تعالى: «ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية» [سورة الحاقة: 17] ولكنهم بعد ذلك كله عبدوا الفرعون وعبدوا الشمس، وعبدوا العجل، وأطاعوا فرعون فى كفره وضلاله: «فاستخف قومه فأطاعوه..» [سورة الزخرف: 54]

هل يظلمهم حين يسمى عهدهم كله الذى استمر أكثر من ألفى عام «الجاهلية الفرعونية»؟

وسيذكر التفسير الإسلامى أن الرومان كانوا بارعين فى بناء المدن، ومدها بالماء المحمول ببراعة فوق الأسوار، كما كانوا بارعين فى بناء الطرق، ومن طرقهم ما لا يزال باقيا حتى اليوم، وكانوا بارعين فى القتال، وبرز من بينهم قادة حربيون ذوو قدرة فائقة فى القتال وإحراز النصر وتحطيم قوة الأعداء، كما كانوا بارعين فى السياسة، وأنهم أسسوا إمبراطورية من أكبر إمبراطوريات التاريخ، وأنهم احتلوا بقوتهم العسكرية والسياسية رقعة واسعة من الأرض لفترة طويلة من الزمن، وسيطروا عليها بقوة فلم تفلت من أيديهم، ولم تتمزق وتتبعثر إلا بأحداث جسام..

وسيذكر بجانب ذلك أنهم ظلوا وثنيين فترة طويلة من الوقت. وأنهم كانوا يمثلون الطغيان الاستعمارى بأجلى صوره، وأن الدولة الأم كانت تستعبد الدول المفتوحة وتستغلها لمجدها الخاص. وأن القيصر كان معبودا سواء بسلطة التشريع أو بالطاعة العمياء لكل ما يأمر، وأنهم كانوا يمارسون الاسترقاق على نطاق واسع، وكانوا يعاملون الرقيق بقسوة غير إنسانية، وأنهم كانوا يعيشون فوضى جنسية فى فترات متعددة من حياتهم، وكانوا يفتنون بمتاع الأرض على مستوى اللذائذ الحسية المبالغ فيها..

فهل يظلمهم التفسير الإسلامى حين يسجل لهم هذه وتلك، ويسمى عهدهم «الجاهلية الرومانية» ؟

وسيذكر التفسير الإسلامى أن الإغريق كانوا بارعين فى الفلسفة والعلوم العقلية، وأنهم علموا البشرية الفلسفة وعلموها التجريد العقلى واستخلاص الأحكام العامة من الجزئيات، والنظريات الكلية من النماذج الفردية، وأنهم كذلك كانوا بارعين فى الفنون، وفى الخيال الشعرى، وفى فن المسرحية بصفة خاصة.

وسيذكر إلى جانب ذلك وثنيتهم، وتعدد آلهتهم، وتصويرهم العلاقة بين العبد والرب علاقة صراع ومقت متبادل، الإنسان يتمرد على الآلهة ليثبت ذاته، والآلهة تصب لعنتها عليه كلما أراد أن يرفع رأسه. وأنهم اتخذوا العقل إلها يحتكمون إليه فى كل شىء حتى ما لا يستطيع العقل إدراكه. كما عبدوا الجسد فى صورة تماثيل تجسد الجمال.

فهل يظلمهم التفسير الإسلامى حين يسجل لهم هذا وذاك، ويسمى عهدهم «الجاهلية الإغريقية» ؟

كلا! إن التفسير الإسلامى للتاريخ سيسجل التاريخ كله بأمانة كاملة لايخفى شيئا منه، ولكنه سيعطيه وصفه الذى يستحقه، وتقديره كذلك الذى يستحقه، بغير مبالغة فى السلب، ولا مبالغة فى الإيجاب..

●●●

والمعيار هو المعيار..

هل حقق الإنسان غاية وجوده فى الأرض؟ أم زاغ عنها، ونكل عن

تحقيقها، ضلالا منه، أو اتباعا للشهوات، أو خضوعا للضغوط الواقعة عليه من أصحاب السلطان سواء كانوا فراعنة أو قياصرة، أو كهنة أو سحرة، أو إقطاعيين أو رأسماليين. وسواء كانت أداة القهر التي يستخدمونها مادية أو روحية أو فكرية أو أيا ما كانت الأدوات.

ليس المعيار هو القوة المادية. فالقوة المادية وحدها ـ دون قيم مصاحبة ـ يمكن ـ بل يغلب ـ أن تستخدم أداة للطغيان في الأرض بغير الحق، وأداة للفساد والظلم. فكيف تكون ـ وحدها ـ أداة لتقويم «الإنسان» ؟

صحيح أن فقدانها يعد نقصا يعاب على صاحبه، فمهمة الخلافة التي خلق الإنسان من أجلها تحتاج إلى قوة مادية يتمكن بها الإنسان في الأرض ليؤدي بها مهمته، وقد خلقه الله بحيث يستطيع ـ حين يجتهد ـ أن يحصّل هذه القوة. فعدم تحصيلها تقصير في أمر هو مؤهل له من جهة، وهو مطلوب منه من جهة أخرى. ولكن مجرد تحصيل القوة ليس هو المطلوب حتى يكون معيارا من المعايير التي يقوّم بها إنجازه. إنما هو مطلوب من أجل شيء آخر. من أجل عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني. فإذا لم تؤد الأداة إلى تحقيق الهدف المطلوب من ورائها، فلا يعتبر مجرد تحصيلها معيارا للتقويم.

وليس المعيار هو العمارة المادية للأرض، فهذه العمارة وحدها ـ دون قيم مصاحبة ـ يمكن ـ بل يغلب ـ أن تؤدي إلى الترهل والترف من ناحية، وإلى الفتنة بالحياة الدنيا التي تهبط بالإنسان كلما أوغل فيها، حتى تفقده إنسانيته في النهاية.

وصحيح أن عدم القيام بالعمارة المادية نقص يعاب على صاحبه، لأن هذه العمارة جزء من مهمة الخلافة المطلوبة من الإنسان فى الأرض، ولكنها وحدها لا تشكل معيارا، لأنها ليست مطلوبة لذاتها، إنما لهدف أعلى، هو حمل «الأمانة» التى أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال وحملها الإنسان، فإذا لم تكن أداة معينة لحمل الأمانة، بل كانت على العكس من ذلك أداة لشغل الإنسان عن حملها، فكيف يعتبر مجرد القيام بها معيارا للتقويم؟!

وليست القوة الحربية هى المعيار. فهى دائما - بغير قيم مصاحبة - تؤدى إلى الطغيان والتجبر، والعدوان على الناس بغير الحق، واستلاب الأرض والأقوات من أصحابها، وإذلالهم وتحويلهم خدما لأصحاب القوة المعتدين.

صحيح أن فقدانها تقصير يؤاخذ عليه صاحبه، ويؤدى - فى أغلب الأحوال إن لم يكن فى كلها - إلى الهوان والذل، والتعرض للعدوان ممن يملك القوة. ولكنها - وحدها - ليست هدفا «إنسانيا»، إنما هى أجدر أن تكون هى معيار الوجود بالنسبة للوحوش فى الغاب، فشريعة الغاب الأساسية هى هذه: الحق لصاحب القوة، والقوى يأكل الضعيف! إنما هدفها أن تكون هى الأداة التى يدفع الحق بها الباطل ويزيله من الوجود ليقوم الناس بالقسط:

«إنا أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم

الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوى عزيز.[1]

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض»[2]

فإذا لم تكن أداة لإحقاق الحق، وإزهاق الباطل، بل كانت على العكس من ذلك أداة لتثبيت الباطل ومنع الحق من أن يأخذ مجراه، فكيف يعتبر مجرد الحصول عليها معيارا للتقويم؟!

وليست القوة السياسية هى المعيار.. فهى وحدها ـ بغير قيم مصاحبة ـ هى صنو القوة الحربية فى العدوان على الآخرين!

لقد كانت بريطانيا «العظمى»! سيدة السياسة لمدة قرن كامل من الزمان أو أكثر فماذا فعلت؟ لقد ارتكبت من الجرائم فى حق البشرية خلال هذا القرن الواحد ما لو وزع على التاريخ كله لمزجه! من كذب وخديعة ونقض للعهود وأكل لحقوق الناس وأموالهم وديارهم بالباطل، وإيقاع للخصومات بين الآمنين المتحابين على حسب سياستها الشهيرة: «فرق تسد»؛ ونال المسلمين من ذلك كله النصيب الأوفر، حيث كانت «بريطانيا العظمى!» هى فى الوقت ذاته زعيمة الصليبية القائمة ـ بالتحالف مع الصهيونية ـ على حرب الإسلام، والقضاء على دولته، وسلب أراضيه، وإذلال أهله.

ثم صارت «سيدة السياسة» هى أمريكا، التى ورثت بريطانيا وفرنسا وأجلتهما لتحل محلهما، فماذا فعلت؟ لقد ارتكبت فى أقل من

---

1) سورة الحديد [٢٥]

2) سورة البقرة [٢٥١]

نصف قرن من الجرائم فى حق البشرية ما فاق السيدة الأولى عدة أضعاف! بالانقلابات العسكرية التى يختار لها أشد الناس جنون عظمة وقسوة قلب وبغضا للإسلام خاصة! إذ كانت السيدة الجديدة هى التى تولت زعامة الصليبية فى الوقت نفسه، وجندت نفسها أكثر من السيدة الأولى لخدمة اليهود! فصار همها الأول هو القضاء على الحركات الإسلامية فى العالم الإسلامى، ولا بأس عندها - من باب «السياسة» - من استخدام الشيوعية ذاتها لحرب الإسلام، بشرط واحد، هو أن يظل الحبل بيدها، والسلطان لها! (١)

وبريطانيا وأمريكا كلتاهما هما وريثتا الإمبراطورية الرومانية سيدة السياسة فى التاريخ القديم، بل مؤسسة فن السياسة الميكيافلى، الذى يعطى الشرعية للكذب والنفاق والغش والخديعة ونقض العهود والقتل والظلم والعدوان، بحسب المبدأ الشهير: الغاية تبرر الوسيلة! والغاية والوسيلة كلتاهما هى تحقيق حيوانية الإنسان ووحشيته! والبحث عن «الغلبة» بصرف النظر عن «الحق»! على مبدأ: افعل ماتشاء لكى تصبح قويا، فإذا أصبحت قويا فافعل ما تشاء!!

وصحيح أن القوة السياسية مطلوبة، والنقص فيها يعرض صاحبها للأخطار والمزالق، وهى جزء من «البصيرة» المطلوبة للمؤمن:

«قل هذه سبيلى، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى» (٢)

---

(١) اقرأ إن شئت فقرة «الانقلابات العسكرية واستخدام الاشتراكية لحرب الإسلام» من كتاب «واقعنا المعاصر».

(٢) سورة يوسف [١٠٨]

ولكنها مطلوبة لهدف أكبر هو تثبيت الحق وحمايته، لكى لا يطمع فيه الطامعون. . فإذا انفصلت عن هدفها، وأصبحت غاية فى ذاتها، فهى حينئذ سياسة الذئاب وليست سياسة «الانسان». فكيف تعتبر - وحدها - معيارا للتقويم؟

وليس البقاء الطويل فى الأرض هو المعيار.

حقيقة إنه من سنن الله أن الأمة الصالحة تمكن فى الأرض زمانا طويلا، ولا يغير الله لها التمكين إلا أن تنحرف عن طريقها:

«ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»(١)

«وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون»(٢)

ولكن هذه ليست السنة الوحيدة التى يجرى الله بها أمور البشر فى الأرض. فهناك - معها - سنة الإملاء للظالمين فترة تطول أو تقصر، مع التمكين لهم فى الأرض، مما سبقت الإشارة إليه:

«فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون»(٣)

فالبقاء فى الأرض - وحده - ليس معيارا لشىء إن لم تصحبه القيم

---

(١) سورة الأنفال [٥٣]

(٢) سورة النحل [١١٢]

(٣) سورة الأنعام [٤٤]

الجديرة بالإنسان. و«الزمن» فى ذاته ليس شيئا يوضع فى الميزان، إنما توضع القيم التى ملأت ذلك الزمن فأعطته مضمونه الإنسانى.

إن فترة الخلفاء الراشدين لم تزد على ثلاثين عاما فى عمر الزمن.. ولكنها فى ميزان القيم أثقل من عمر إمبراطورية ظلت قائمة فى الأرض عشرة قرون، بكل ما اشتملت عليه تلك الإمبراطورية من قوة مادية، وعمران مادى للأرض، وقوة حربية، وقوة سياسية، فقد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى قمم صعدتها البشرية فى تاريخها كله، بينما حفلت القرون العشرة بكل أنواع الظلم والطغيان، وإن احتوت على بعض الفضائل المتناثرة هاهنا وها هنا ك!

بل إن الفترة التى حكم فيها عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه لم تزد فى عمر الزمن على عامين اثنين.. ولكن ما أعظمها فى ميزان التاريخ!

إنها الصورة المثالية للتطبيق الإسلامى بعد التمكن فى الأرض، حيث قام - ربما للمرة الوحيدة فى التاريخ - مجتمع ليس فيه فقراء! مجتمع تكفل الدولة فيه كل فرد من أفراده، فإذا لم تجد فقراء تجرى عليهم الأرزاق من بيت المال، بحثت عن كل بكر لم يتزوج فزوجته، وعن كل غارم فأدت عنه دينه.

جاء فى كتاب الأموال لأبى عبيد (ص ٣٥٧ - ٣٥٨)

«كتب عمر بن عبدالعزيز إلى عبدالحميد بن عبدالرحمن - وهو بالعراق - أن أخرج للناس أعطياتهم. فكتب إليه عبدالحميد: إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال. فكتب

إليه : أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه. فكتب إليه: إنى قد زوجت كل من وجدت وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال. فكتب إليه بعد مخرج هذا: ان انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوي به على أرضه فإنا لانريدهم لعام ولا لعامين».

وجاء فيه (ص ٧٣٨): «كتب عمر بن عبدالعزيز: أن اقضوا عن الغارمين، فكتب إليه (الليث بن سعد): إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث. فكتب عمر: إنه لابد للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، ومن أن يكون له الأثاث فى بيته! نعم! فاقضوا عنه فإنه غارم!»

فكم يساوى هذان العامان القصيران من عمر الجاهليات؟!

● ● ●

هذا إذن هو المعيار..

كم حقق الإنسان من غاية وجوده على الأرض؟

والعمارة المادية للأرض، والقوة المادية، والقوة الحربية، والقوة السياسية، والبقاء الطويل فى الأرض، كلها مقومات توضع فى معيار التقويم، لأنها من مقومات الوجود البشرى فى الأرض، ولكنها وحدها - بدون القيم المصاحبة لها - خفيفة الوزن جدا فى ميزان التاريخ! إنما تأخذ وزنها الحقيقى، وتصبح معايير ترجح الكفة حين تمتلىء بمضمونها المتناسق مع غاية الوجود البشرى فى الأرض. فهذا

المضمون هو الثقل الحقيقى فى الميزان، وهو الذى يعطى الأشياء كلها قيمتها الحقيقية ووزنها الحقيقى. بدونه تصبح الحياة الدنيا لهوا عابثا لا قيمة له، وبوجوده تصبح من الباقيات الصالحات:

«والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا» (1)

«وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا! ذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار! أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض؟أم نجعل المتقين كالفجار؟ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب» (2)

●●●

وبهذا المعيار الربانى ينقسم التاريخ ابتداء إلى قسمين كبيرين: تاريخ الأمم المؤمنة وعلى رأسها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، التى ناط الله بها أداء تكاليف الرسالة الخاتمة بعد الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم. وتاريخ الأمم غير المؤمنة، أى تاريخ الجاهليات.

ثم ينقسم تاريخ الأمم المؤمنة إلى فترات ثلاث: الأمم القديمة قبل موسى عليه السلام، أمة نوح عليه السلام، وأمة هود، وأمة صالح، وأمة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم، ومن يكشف البحث عنهم من تلك الأمم. ثم تاريخ اليهود والنصارى حتى مبعث محمد صلى

---

(1) سورة الكهف [٤٦]

(2) سورة ص [٢٧ ـ ٢٩]

الله عليه وسلم[1] ثم تاريخ الأمة الإسلامية من مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى الوقت الحاضر.

ويبين فى هذا التاريخ أن البشرية بدأت مؤمنة موحدة من لدن آدم عليه السلام، ثم طرأ عليها الانحراف بعد ذلك، كما يشار إلى وحدة العقيدة بين هذه الأمم جميعا: لا إله الا الله. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. وأن هذا الأصل الواحد لم يتطور ولم يتغير على مدى التاريخ الإيمانى، وإنما تغيرت الشرائع بما يناسب كل قوم أرسل إليهم رسول. حتى جاءت الرسالة الخاتمة فاكتمل الدين، وأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الأمم كافة.

أما تاريخ الأمة الإسلامية فيركز فيه على فترات ثلاث، ليست فترات زمنية بقدر ما هى فترات «نوعية»: فترة التطبيق الفائق (فترة الذروة) وما صاحبها من تمكين فائق. وفترة التطبيق العادى، وما صاحبها من التمكين العادى، وفترة الانحسار، وتزايد البعد عن حقيقة الإسلام، وما صاحبها من زوال السلطان وغلبة الأعداء، وجريان ذلك كله حسب السنن الربانية التى لا تتبدل ولا تتحول، ولا

---

١) لأنه بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم نسخت الديانات السابقة كلها، ولم يعد أهلها يعتبرون «مؤمنين» إلا إذا دخلوا فى الإسلام. وإذا كان الإسلام يعتبرهم - رغم عدم إيمانهم - «أهل كتاب» فهذا يختص بدستور التعامل معهم فى الحياة الدنيا فى السلم والحرب. أما من ناحية العقيدة فهم ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. أى القرآن ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم.

تحابى أحـدا من البشر. ثم يركـز على الصحوة الإسلامية ودلالاتها بالنسبة للحاضر والمستقبل.

أمـا تاريخ الجاهليات فيمكن أن يتبع فيه التقسيم الذى يتخذه التفسير الليبرالى من قديم ووسيط وحديث، أو أى تقسيم آخر يراه المختصـون المسلمـون من زاوية رصـدهم الخـاصة، على أن يكون العنـوان الشـامـل له هو «تاريخ الجاهليات» أو «تاريخ الحضارات الجاهلية» إن صح التعبير.

ويشار فى هذا التاريخ إلى تشابه الجاهليات كلها فى أصل واحد، هو عبادة غير الله، معه أو دونه، وعدم اتباع المنهج الربانى فى الحياة، ثم تفـترق الجـاهليات بعـد ذلـك فيكـون لكل منها سماتها الخاصة المستمدة من ظروفها الخاصة.

ويمكن أن يشـار فى هذا التـاريخ كذلـك إلى «تـطور» العقـائد الجاهلية، لأنها من صنع البشـر، ومن ثم تتأثر بأحوال البشر، ومدى علمهم بالكون من حولهم، ومدى سيطرة الوهـم والخرافة عليهم.

كما ينبغى أن تخصص مسـاحـة مناسبة لبيان انحرافات الجاهلية المعاصرة، فى السـياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق والفكر والفن. الخ، وبيان مجرى السـنن الربانية مع هذه الانحرافات، من فتح الله عليهم أبـواب كل شىء ـ ما عدا الـبركة والطمأنينة ـ ومن المعيشة الضنك برغم وفرة الإنتاج المادى، ومن بوادر الدمار التى بدأت تلوح فى الآفـاق، مع إشـارة خاصة إلى وضع اليهود المسـيطر فى الجاهلية

المعاصرة، وأسبابه التى أدت إليه، ومن أبرز هذه الأسباب غياب الأمة الإسلامية عن الساحة.

وبهذا التقسيم وبهذا البيان، تتضح معالم التاريخ، وتتضح السنن الربانية التى يجرى من خلالها قدر الله، ويصبح التاريخ كما هو فى حقيقته: قدر الله فى الأرض، من خلال أعمال الإنسان، مرتبطا بسنن الله فى الكون والحياة والإنسان.

الفرد والمجتمع

كان من حق البحث أن ينتهى بانتهاء الفصل السابق، الذى وصلنا فيه إلى تحديد معيار للإنجاز البشرى، وهو حجر الزاوية بالنسبة لتفسير التاريخ.. لولا أن هناك قضيتين تثاران حول تفسير التاريخ، يحسن مناقشتهما ليستكمل البحث خطوطه الرئيسية، هما قضية الفرد والمجتمع: أيهما الذى يكتب التاريخ، وقضية الثابت والمتطور فى حياة البشرية.وقد خصصنا لهما هذا الفصل والذى يليه.

فأما قضية الفرد والمجتمع فقد وقف فيهما كل من التفسيرين الماديين موقف التناظر، فركز التفسير الليبرالى على دور الفرد ـ وإن لم يهمل دور المجتمع إهمالا تاما ـ بينما ألغى التفسير الجدلى دور الفرد وركز على دور المجتمع.

ويبدو تركيز التفسير الليبرالى على دور الفرد واضحا فى تتبعه لتواريخ الحكام واحدا أثر واحد، وتاريخ القواد العسكريين بصفة خاصة، كما يتضح من عدد التراجم، والتراجم الذاتية، التى يحفل بها ذلك التاريخ. وتبدو أحداث التاريخ فى التفسير الليبرالى كأنما هى إنعكاس

لإرادات الأشخاص البارزين من حكام وقواد ومفكرين، أكثر مما هى سنن عاملة فى حياة البشر، وقدر ربانى يجرى من خلال تلك السنن، ويبدو المجتمع بصفة خاصة وكأنما دوره هو الانقياد لإرادات أولئك البارزين.

حقيقة إن كتاب التراجم يعنون بدور المجتمع والظروف المحيطة به فى تكوين الأفراد البارزين فيه. ولكنك إن أنعمت النظر وجدت كأنما دراسة المجتمع وظروفه مجرد «حيلة فنية» لإبراز ميلاد «البطل» .. حتى إذا وقف البطل على قدميه استعد المجتمع للتلقى والانقياد!

ولا ننسى بطبيعة الحال أن المعيار فى كل ما يسجله التفسير الليبرالى هو كون الشيء قد حدث بالفعل! وربما كان مجال النقد الوحيد لتصرفات «البطل» هو أخطاؤه السياسية أو الحربية.. أما المعيار الأخلاقى فهو ساقط من الحساب!

أما التفسير الجدلى فلا يعنيه الأشخاص! إنه يضع الأشخاص جميعا فى متحفه التاريخى على أنهم «أنماط» للأطوار الإقتصادية والأطوار التاريخية.. من أجل ذلك لا تجد فيه دراسة للأفراد ـ ملوكا كانوا أو قوادا أو مفكرين ـ إلا من خلال وجودهم الطبقى إن لزم الأمر، ومن خلال حركتهم فى إطار الطور المادى أو الطور التاريخى، حركة حتمية لا يملكون أن يغيروا شيئا فيها أو يغيروا موقفهم منها. وبذلك تفقد الشخصية الفردية كل معنى لها وتصبح مجرد تجسيد للفكرة أو للقانون!

وفى مجال البحث النظرى يلغى التفسير الجدلى دور الفرد ليبرز دور المجتمع، فيرسم حركة التاريخ من خلال «الطبقة» لا من خلال الفرد، على أساس فكرته المبدئية، وهى أنه منذ ظهور الملكية الفردية توجد دائما طبقة مالكة، هى التى تملك و تحكم وتشرع لصالحها على حساب الطبقة الأخرى التى لا تملك ولا تحكم. ثم يدور الصراع بين الطبقتين. وهذا الصراع الطبقى هو الذى ينقل مراكز الثقل باستمرار، وينقل خطى التاريخ، وذلك بإبراز طبقة جديدة مالكة كلما تطورت وسائل الإنتاج، وطبقة جديدة مستغلة يدور بينهما صراع طبقى جديد.. وهكذا دواليك حتى تصل البشرية إلى الشيوعية الثانية والأخيرة، فتستقر الدنيا، ويبطل الصراع! (ربما كذلك يتوقف التاريخ!)[1]

هذا من الوجهة النظرية.. يلغى دور الفرد ويثبت دور المجتمع. أما فى الحقيقة فالتفسير الجدلى لا يلغى دور الفرد ليبرز دور المجتمع، بل يلغى دور الفرد والمجتمع جميعا، إذ يلغى دور «الإنسان» كله ليبرز دور الحتمية المادية والحتمية التاريخية، وتسييرهما للفرد والمجتمع جميعا!

«فالإنسان» فى التفسير الجدلى ليس هو الذى يعمل أو يتصرف.. إنما يملى عليه عمله ويملى عليه تصرفه، كما يقول إنجلز بصراحة:

---

١) لا يقولون هم إن التاريخ سيتوقف! بل يقولون إن الشيوعية ستحدث تعديلات وتحويرات فى داخل نفسها ولكن عن غير طريق الصراع الطبقى الذى كان هو أداة التغيير خلال ألوف لا تحصى من السنين.

«تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتى : وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها فى عقول الناس، أو فى سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل»

لذلك فإنه من العبث أن تبحث عن دور «الإنسان» فى ظل التفسير الجدلى. ومع ذلك فلنصدق ـ مؤقتا ـ أنهم يلغون دور الفرد ليثبتوا دور المجموع! ولننظر كيف يمكن تفسير التاريخ من خلال المجموع وحده دون الفرد!

●●●

فى التفسير الإسلامى لايوضع الفرد والمجتمع موضع التقابل الحاد، بحيث يصبحان كأنهما معسكران متضادان كل ما يرضى أحدهما يغضب الآخر، ثم يحدث الصراع بينهما لا محالة!

إنما يحدث شىء من هذا فى إحدى حالتين: حين يكبّر الفرد أكبر من حجمه الحقيقى، وتوسع له دائرة «الحرية الشخصية» فيطمع فى مزيد من هذه الحرية، ويحس فى الوقت ذاته أن الذى يمنعه من «تحقيق ذاته» على النحو الذى يشتهيه هو «المجتمع» بتقاليده وأفكاره وروابطه فيكره تلك الروابط وتلك التقاليد، ويسعى إلى تحطيمها لينفلت من القيود أكثر. وتنتهى هذه الحالة ـ كما انتهت فى المجتمع الغربى ـ إلى

تفكيك المجتمع وحل روابطه. . ومع ذلك يوجد فيه من يسعى إلى مزيد من التفكيك - عامدا أو غير عامد - فيقول كما قال سارتر فى إحدى مسرحياته «الجحيم هو الآخرون»(١)

والحالة الثانية حين يسحق كيان الفرد، وتسلب منه كل حرياته: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، ثم يقال له إن هذا يحدث من أجل المجموع! فيكره فى دخيلة نفسه ذلك المجموع الذى يحرم من أجله من جميع حقوقه، وجميع حرياته. والحقيقة أنه لا يحرم من أجل المجموع! فالمجموع محروم مثله ما عدا أفراداً قليلين على رأسهم «زعيم أوحد» مقدس، هم الذين فى يدهم الأمر والنهى والسلطان،وباسم المجموع يسحقون كيان كل فرد من أفراد ذلك المجموع! وبالحديد والنار والجاسوسية تحكم هذه القلة بجموع الناس، وتسحقهم تحت أقدامها، وتقول لكل واحد وهى تسحقه: إنما نسحقك من أجل المجموع!

أما فى غير هاتين الحالتين المتطرفتين، فقد تقع بالفعل صراعات بين الفرد والمجتمع، ولكنها لا تصل قط إلى صورة المعسكرين المتقابلين المتعاديين، اللذين تتعارض مصالحهما دائما، ولا يلتقيان أبدا!

●●●

(١) هذا هو عنوان المسرحية وخلاصتها أن «بطل» المسرحية يظل يتعذب من أول المسرحية إلى آخرها بلا سبب على الاطلاق إلا وجود آخرين حوله وهم لا يؤذونه ولا يتعرضون له أدنى تعرض ولكن وجودهم هو الذى يسبب له العذاب!

الفرد والمجتمع فى الحقيقة بنية حية واحدة مترابطة متشابكة وإن وقع الصراع بينهما فى بعض الأحيان. فمن نفس الفرد نشأ المجتمع. من رغبته فى الاجتماع بالآخرين وأنسه بهم، ومن حاجته إليهم كذلك.

وأيا كانت الضرورات التى يقال إنها أدت إلى نشأة المجتمع الأول فليست العبرة بتلك الضرورات! فلو لم تكن فى نفس الفرد رغبة وفرحة بلقاء الآخرين، ما كانت هذه الضرورات لتنشئ المجتمع، بل كان البشر يهبطون إلى حالة التوحش، ويعيشون كما تعيش الوحوش فى الغاب، كل كيان قائم بذاته، وكل كيان عدو لكل كيان آخر..

بل إن من أنواع الحيوان والحشرات لما يعيش جماعات جماعات[1].. ومنها ما يعيش ممالك منظمة أدق تنظيم[2].. ومنها ما يعيش قبائل ذات مشيخات[3]..!

والإنسان، الأرقى، أولى أن يعيش كذلك.

ولكن الإنسان عجيب التركيب. فهو شعبتان ذواتا أصل واحد: شعبة فردية، وشعبة جماعية. شعبة تجد راحتها فى «تحقيق الذات» فى الشعور بالفردية المتميزة، وفى الخلوة أحيانا بعيدا عن الآخرين. وشعبة تجد راحتها فى الاجتماع بالآخرين، ولو مقابل التنازل عن

١) كالفيلة، وقطعان الماشية.

٢) كالنمل والنحل.

٣) كالقردة.

بعض الحقوق وبعض المشاعر وبعض الأفكار، وتجد ألما فى العزلة والوحدة، لا يزيله إلا الاجتماع!

وبين هاتين الشعبتين يتنقل الإنسان أبدا بمشاعره وأفكاره وسلوكه العملى. ومن هنا يبدو متناقضا أو متأرجحا فى بعض الأحيان، يقف الموقف ويقف نقيضه، أو يقف الموقف ولا يؤدى مقتضياته، لأنه مشدود بمقتضيات الموقف الآخر!

ولكنه فى قدر معين من هذه الحركة الدائمة قائم فى وضعه الطبيعى، الذى خلقه الله عليه، ليؤدى مهمة الخلافة فى الأرض، ولا يحدث الخلل إلا حين يجنح بإحدى شعبتيه على حساب الأخرى، وغالبا ما يكون الجنوح بالشعبة الفردية أكثر. وإن كان الجنوح بالشعبة الجماعية يحدث عند النفوس الضعيفة التى تجزع من احتمال التبعة، فتستسهل اتباع الآخرين.

والإسلام يربى الشعبتين معا، ويوازن بينهما ليمنع الجنوح، سواء كان الجنوح بهذه الشعبة أو تلك.

ويربى الفرد والمجتمع فى آن واحد..

وكل ذلك بمفتاح واحد.. لا إله إلا الله. اعبدوا الله ما لكم من إله غيره!

فعبادة الله الواحد، التى تعنى - فيما تعنى - اتباع المنهج الربانى[1]، تحدث هذه الموازنة فى داخل النفس بين الشعبة الفردية

---

(١) اقرأ إن شئت «مفهوم لا إله إلا الله» و«مفهوم العبادة» من كتاب «مفاهيم ينبغى أن تصحح»

والشعبة الجماعية، وتحدث الموازنة كذلك بين الفرد والمجتمع، فيحدث الانسجام والطمأنينة فى داخل النفس، ويحدث مثل ذلك فى داخل المجتمع بالقدر الذى يطيقه البشر، وبحسب درجة التزامهم بما أنزل الله.

يعطى الإسلام الفرد حقوقه، ويوجب عليه واجباته، ويحمله تبعة عمله فردا لا يحمل أحد عنه شيئا ولو كان ذا قربى، فيرسخ بذلك كله شخصيته الفردية. يصون دمه وعرضه وماله. ويعطيه الحق فى الملكية الفردية. ويعطيه قدرا من حرية التصرف فى البيع والشراء والتعامل مع الآخرين. ويجعله فى الوقت ذاته مسؤولا عن أعماله فى الدنيا والآخرة. ويصله بربه فردا، يعبده ويناجيه ويدعوه ويتضرع إليه ويتطلع إليه.. فيربيه بذلك فردا قائما بذاته.

ثم يوجهه إلى مشاعر الحب والأخوة مع الآخرين، والتعاون معهم على البر والتقوى، والأمر لهم بالمعروف والنهى لهم عن المنكر، وتقبل النصيحة منهم وهى أمر منهم بالمعروف أو نهى منهم عن المنكر.. فيربيه بذلك فردا فى مجتمع.

ويوازن بذلك بين شعبتيه فى داخل نفسه..

ثم يلزمه ـ فردا ـ بواجبات نحو ربه، ونحو أسرته، ونحو مجتمعه. ويلزم الجماعة مجتمعة بواجبات نحو ربها وواجبات نحو كل فرد من أفرادها، فيوازن بذلك بين الفرد والمجتمع.

ومفتاح الجميع واحد.. الإيمان بالله.. واتباع منهجه للحياة.

انظر إلى هذه التوجيهات لكل فرد بمفرده:

«واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين»(١)

«وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان»(٢)

«يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون»(٣)

«ولا تزر وازرة وزر أخرى، وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى»(٤)

«إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا، لقد أحصاهم وعدهم عدا. وكلهم آتيه يوم القيامة فردا»(٥)

«لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت» وإن أساءوا أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس وإن أساءوا ألا تظلموا»(٦)

«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»(٧)

«كل المسلم على المسلم حرام. دمه وعرضه وماله»(٨)

وانظر إلى هذه التوجيهات الجماعية:

«فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة»(٩)

---

١) سورة الأعراف [٢٠٥].
٢) سورة البقرة [١٨٦].
٣) سورة الحشر [١٨].
٤) سورة فاطر [١٨].
٥) سورة مريم [٩٣ - ٩٥].
٦) أخرجه الترمذى.
٧) متفق عليه.
٨) رواه الترمذي وقال حديث حسن
٩) سورة النساء [٧٤].

«إنما المؤمنون إخوة»[1]

«والمؤمنـون والمؤمنـات بعضهم أولياء بعض: يأمـرون بالمعـروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله»[2]

«لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض»[3]

وانـظر إلى هذه التوجيهات الموجهة للجماعة وهى فى الوقت ذاته مطلوبة من كل فرد بمفرده:

«يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة»[4]

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين»[5]

«واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا»[6]

«واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة»[7]

ثم انظر حياة المجتمع الأول فى عهد الذروة، لتعلم كيف خرج من مجموع هذه التوجيهات مجتمع متوازن تكوّن من أفراد متوازنين.

●●●

(١) سورة الحجرات [١٠]. (٢) سورة التوبة [٧١]. (٣) أخرجه البخارى

(٤) سورة التحريم [٦]. (٥) سورة النساء [١٣٥]. (٦) سورة آل عمران [١٠٣].

(٧) سورة الأنفال [٢٥].

يعنى التفسير الإسلامى للتاريخ بالفرد والمجتمع كليهما فى ذات الوقت . .

إنه يرصد تاريخ «الأفراد الممتازين» وعلى رأسهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ثم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ولكنه لا يرصدهم على اعتبار أنهم «أبطال» يوجه إليهم الإعجاب من قبل «الجماهير» كما صنع «كارليل» فى كتابه «الأبطال وعبادة البطولة» ووضع فى مقدمة أبطاله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم (١)

إنهم أفراد ممتازون نعم . . ولكنهم فى ذات الوقت حملة «منهج» والإشادة بهم ذات شقين فى آن واحد : إشادة بالمنهج الذي يحملونه إلى البشر ـ وهو المنهج الربانى- وإشادة بأشخاصهم باعتبار أنهم أصفى الممثلين لهذا المنهج والمترجمين عنه بصفاتهم النفسية وسلوكهم الواقعى . وفى قمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى وصفه ربه تعالى بقوله : «وإنك لعلى خلق عظيم» (٢) وقالت عنه عائشة رضى الله عنها «كان خلقه القرآن» (٣)

ثم إنهم بامتيازهم هذا المتمثل فى المنهج الذى يحملونه ، وفى تحقيقهم للمنهج فى ذوات أنفسهم ، كانوا ذوى أثر ضخم فى حياة البشرية ، هو أكبر أثر فى تاريخ البشرية كله . .

---

(١) قدمه «بطلا» لينفى عنه النبوة ومع ذلك ينخدع به كثير من الناس!

(٢) سورة القلم [٤].

(٣) أخرجه مسلم.

من أجل هذا يحتفل بهم التفسير الإسلامى للتاريخ، ويسجلهم فى أوسع صفحاته.

ليست المسألة إذن بطولة ـ مجرد بطولة ـ ولا عبادة بطولة، كما يصفها كارليل، ممثلا فى ذلك اتجاها رئيسيا للتفسير الليبرالى، إنما هى «الهداية» إلى الله، وإلى منهجه فى الحياة، أثمن ما يقدم للبشر فى حياتهم، وأشد ما يؤثر فى مصيرهم..

ولكن هنا وقفة مع التفسير الإسلامى، حتى وهو يبرز الفرد الممتاز، ويشيد بامتيازه..

إنه لا يكتفى بتقديم صورته الفذة وتسليط الأضواء عليها من أجل إثارة الإعجاب فحسب، أو الإعجاب والحب فحسب، أو الإعجاب والحب والتوقير فحسب.

إن أبرز نقطتين يحتفل بهما التفسير الإسلامى هما: روعة تحقيق النبى للمنهج فى ذات نفسه، وروعة جهاده لتحقيق المنهج فى مجتمع من الناس.

المنهج فى الحالين نقطة ارتكاز.

والفرد الممتاز ـ وهو هنا النبى ـ والمجتمع الممتاز ـ الذى ينشئه النبى ـ هما التجسيد الحى للمنهج فى واقع الحياة، وكلاهما موضع اهتمام عظيم فى التفسير الإسلامى للتاريخ.

ودور المجتمع الذى يهتم به التفسير الإسلامى، ليس مجرد التأثر بشخصية الفرد الممتاز، أو التأثر بأفكاره ومبادئه، إنما هو تحويل ذلك

إلى واقع . وهو عملية إيجابية ضخمة ، تختلف اختلافا رئيسا عن مجرد التأثر أو الحب أو الإعجاب أو التوقير.

يشيد التفسير الإسلامى بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومناقبه الشريفة ، وعظمة شخصيته ، وجهاده الفذ . ويشيد فى الوقت ذاته بالمجتمع الذى أنشأه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه من خلال هذا المجتمع قام الإسلام بمهمته فى الأرض ، وكان ما كان من أثره فى حياة البشرية .

وبخصوص القضية التى أنشأنا من أجلها هذا الفصل من الكتاب نقول : إن الفرد والمجتمع كليهما يكتبان التاريخ . لا الفرد الممتاز بمفرده ، ولا المجتمع بمفرده . إنما هو القائد ، والمجتمع بقيادة القائد ، كلاهما ركن أساسى فى صناعة التاريخ !

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

«هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم»[1]

وهى إشارة ذات دلالة . . بل دلالات . .

يقول تعالى فى غير هذا الموضع : «إن ينصركم الله فلا غالب لكم»[2] فيقرر سبحانه أن من ينصره الله لا يغلب ، فحين يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : «هو الذى أيدك بنصره» فهذه وحدها تكفى للدلالة على أن النصر قد كتب للنبى صلى الله عليه وسلم ، فلا

---

1) سورة الأنفال [٦٢ - ٦٣]

2) سورة آل عمران [١٦٠]

يغلبه أحد من الكفار، ومعنى ذلك هو التمكين له ولدينه صلى الله عليه وسلم.

ولكن الإشارة ذات الدلالة هي قوله تعالى: «هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين» فهنا إشارة وإشادة بالمؤمنين، الذين أيد الله بهم رسوله عليه الصلاة والسلام. وهى فى الوقت ذاته إشارة وإشادة بدور «المجتمع» فى إحراز النصر والتمكين لهذا الدين، وأن هذه سنة من سنن الله: أن يكون هناك مؤمنون مجاهدون متآلفون متحابون يكونون ستارا لقدر الله، فينفذ الله بهم قدره.

ويقول تعالى عن هذا «المجتمع» الذى أصبح «أمة»:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» (١)

فيبرز دور الأمة وواجباتها، ويبين كيف تكتب التاريخ.

لقد كانت هذه الأمة التى أخرجها الإسلام ورباها رسول الله صلى الله عليه وسلم على عينه، هى التى خلفت الرسول صلى الله عليه وسلم فى رسالته، وهى التى فتحت الأرض، وفتحت القلوب للإسلام، بتحقيقها المنهج الربانى فى ذات نفسها، وبدعوتها إلى الله، وبجهادها فى سبيل الله.. وذلك هو نصيبها فى كتابة التاريخ.

وظلت هذه الأمة تمارس المنهج الربانى - وإن تزحزحت عن بعض قيمه ومبادئه - قرونا متوالية، فتكتب بذلك صفحات مجيدة فى التاريخ

---

١) سورة آل عمران [١١٠]

البشرى. ولما زاد انحرافها، مع قلة الأفراد الممتازين - من العلماء والدعاة والمربين والموجهين - لتذكيرها، وردها إلى الطريق، ظلت صفحتها فى التاريخ تنحسر رويدا رويدا حتى كادت تخرج من التاريخ!

ولكن الصحوة الإسلامية ذات دلالة واضحة.. إن الأمة ما زال لها دور تؤديه فى التاريخ، لنفسها وللبشرية كافة كما كان دورها من قبل..

وخلاصة القول أنه فى الأمة المؤمنة - أمة العقيدة - يقوم الفرد والمجتمع كلاهما بنصيبه فى كتابة التاريخ.

فإذا تجاوزنا الأمة المؤمنة - أمة العقيدة - ونظرنا فى تاريخ الجاهليات، نجد الأمر قد اختلف نوعا من الاختلاف، سببه الأول هو سلبية «الجماهير».

وحقيقة إن «الجماهير» فيها - دائما - قدر من السلبية، حتى فى أمة العقيدة. ولقد كانت هذه السلبية فى أمة العقيدة هى التى تسببت فى الإنحراف التدريجى لهذه الأمة عن طريق الله المستقيم، حتى صارت فى النهاية إلى ذلك الغثاء الذى حذرها منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذى ضرب الله بنى إسرائيل مثلا للأمة الإسلامية لكى تحذر الوقوع فيما وقعوا فيه، ولكنهم وقعوا فى نهاية الأمر، فأصابتهم سنة الله التى لا تتبدل ولا تحابى ولا تجامل. ومحور السنة هو تحقيق المنهج الربانى فى واقع الأرض أو اتخاذه «تراثا» يدرس ولا يطبق:

«فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب، يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون: سيغفر لنا! وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه! ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق؟ ودرسوا ما فيه؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون. أفلا تعقلون؟»[1]

ولكن يظل الفارق بين أمة العقيدة والأمة الجاهلية أن «الدين» تبعة، ولا يزال يذكر الإنسان بربه، وبواجبه نحو ربه، ويضبط سلوكه بنوع من الضوابط، تأخذ في المجتمع المؤمن صورة «تقاليد» أصولها مستمدة من تعاليم الدين. فيظل ذلك المجتمع متماسكا مدة أطول، مستعصيا على الفساد والانحلال والذوبان مدة أطول.

وقد تعرض المجتمع الإسلامي - أو الأمة الإسلامية - لنكبات وكوارث وضربات وفتن، لو تعرضت لها أي أمة جاهلية - أي غير ذات عقيدة صحيحة في الله - لذابت وتلاشت الى غير رجعة. ففي حربين اثنتين تعرضت لهما أوروبا خلال ربع قرن انحل من أخلاقها وقيمها شيء كثير، وتكونت فيها عصابات من الأطفال والمراهقين تقتل وتسرق وتنهب وتكسر قيود الآداب والأخلاق، بينما القوة المادية والحربية والسياسية والعلمية والتكنولوجية قائمة ما تزال.. فما بال لو خاضت أوروبا الظروف التي خاضتها الأمة الإسلامية خلال أربعة عشر قرنا، ووقع لها من النكبات والحروب والفتن ما وقع لها ماذا كان يتبقى منها؟

---

(١) سورة الأعراف [١٦٩]

ومع ذلك كله تقوم فى الأمة صحوة تبشر بالخير. . !

ومهما يكن من أمر الأمة الإسلامية وأحوالها فمما لا شك فيه أن العقيدة عنصر تماسك فى الأمة تفتقده الأمم الجاهلية، فيكون استسلامها للفساد أشد، ووقوع «جماهيرها» تحت ضغط الطغيان المفسد أكبر.

وهنا يختلف التفسيران الماديان فى نظرتهما إلى قضية الفرد والمجتمع . .

فأما التفسير الليبرالى فهو أميل - كما أسلفنا - إلى تفسير التاريخ من خلال الأفراد المتميزين، والميزة هنا لا تقتضى الأفضلية ، فقد يتميز الفرد بجبروته وطغيانه كما كان لويس السادس عشر الذى قال: «أنا الدولة والدولة أنا » « Je sui L'etat L'etat est Moi » وكما كان نابليون، وكما كان هتلر . .

وأما التفسير الجدلى فهو يفسره من خلال الطبقة، والصراع الطبقى، ولا يعترف بأثر للفرد المتميز، سواء كان متميزا فى الخير - كالأنبياء والدعاة والمصلحين - أو متميزا فى الشر، كالطغاة كلهم على مدار التاريخ.

بل يزعم التفسير الجدلى أن صلاح من كان صالحا من الأفراد المتميزين، وشر من كان شريرا منهم إن هو إلا انعكاس للطور الاقتصادى الذى يظهر فيه أولئك الأفراد، ولمكانهم الذى يكونون فيه من الحتمية التاريخية!

وهم بطبيعة الحال لا يعترفون بالنبوات والوحى، فيسقطون أثر الأنبياء فى توجيه البشرية، ويغمضون أعينهم عنهم، كأنما حين يغمضون أعينهم يمحون وجودهم من التاريخ!

ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم ودينه أصلب وأعظم وأوضح وأبقى من أن يغمضوا عيونهم عنه، فإنهم لم يجادلوا فى وجوده، ولكنهم راحوا يتمحلون فى محاولة تفسير الإسلام بحسب قوانين التفسير المادى للتاريخ، فتخبطوا، وسيظل ظهور الإسلام فى الوقت الذى ظهر فيه، وما حواه من القيم والمبادئ أكبر تحدٍ لذلك التفسير.

على أن الذى يهمنا فى القضية فى مقامنا الحاضر هو أمر الفرد والمجتمع، وأيهما الذى يكتب التاريخ.

حقيقة الأمر أن الفرد والمجتمع كليهما يشتركان فى كتابة التاريخ، ولكن اشتراك المجتمع ليس إيجابيا بالضرورة فى كل حالة بالنسبة للأمم الجاهلية.. إنما تظهر إيجابيته فى الثورات التى قامت بها الجموع ضد الطغيان والظلم، بصرف النظر عما يردده التفسير الجدلى من أن الثورة الناجحة لا تكون إلا حين تتهيأ ظروفها المادية والاقتصادية، فتصبح حتمية تاريخية. فإنما نتحدث هنا عن الثورة فى ذاتها بصرف النظر عن نجاحها أو إخفاقها.. فلا شك أن الثورة حركة إيجابية من جانب الجماهير، ولا يغض من قيمة هذه الحقيقة أن الثورة تتجمع دائما حول فرد ممتاز أو مجموعة من الأفراد الممتازين يقودون الثورة ويوجهونها. فالعبرة بتحرك الجماهير فى النهاية واستجابتهم - بإيجابية - لنداء الفرد الممتاز.

أما فى غير حالات الثورة . . أى فى حالات الاستكانة للاستغلال والطغيان والظلم - وهى الحالات الغالبة فى حياة الأمم الجاهلية، حتى الديمقراطية[1] - فالجماهير فى حالة سلبية، والذى يطغى على السطح هو الفرد الممتاز . . أو الطبقة الممتازة . . سواء!

ولا تختلف النتيجة بالنسبة للسنة الربانية . . فالجماهير السلبية مسئولة عن النتائج التى تحدث نتيجة سلبيتها، وليس كونها مظلومة معفيا لها من المسئولية فى الدنيا والآخرة سواء.

«إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا: فيم كنتم؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض! قالوا: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوا غفورا» [2]

والذى ورد فى الآيات بشأن الهجرة هو ملابسة خاصة بالأمة المسلمة بعد قيام الدولة المسلمة فى المدينة، وسقوط العذر عمن بقى فى أرض الكفار ولم يهاجر إلى الأرض الإسلامية بحجة الاستضعاف. ولكن البشر كلهم مسئولون يوم القيامة - من بلغته دعوة الرسل منهم -

1) الديمقراطية فى حقيقتها - كما بينا فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» - مسرحية جيلة تبدو فيها الجماهير كأنها هى التى تحكم بالفعل! ومن وراء المسرحية ومن خلالها تحكم الرأسمالية - أو يحكم اليهود - ويعبثون بآدمية الجماهير!

2) سورة النساء [٩٧ - ٩٩]

عن سكوتهم عن الظلم الأكبر الواقع عليهم من تحكيم غير شريعة الله، بسبب عدم إيمانهم بالرسل الذين أرسلوا إليهم، وعدم جهادهم ليكون الدين لله:

«بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره!»(١)

فالاستضعاف الذى يتبعه التفسير الجدلى ويفسر من خلاله التاريخ، هو أمر واقع فى المجتمع الجاهلى الذى لايحكّم شريعة الله، ولكنه ليس حتمية تاريخية كما يزعم ذلك التفسير، فلو أنهم آمنوا واتقوا لتغير حالهم:

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون»(٢)

وفى جميع الأحوال سلبا أو إيجابا، يشترك الفرد والمجتمع فى كتابة التاريخ، من خلال السنن الربانية التى يجرى بها قدر الله فى الأرض، ويتحرك من خلالها «الإنسان»!

---

(١) سورة القيامة [١٤ - ١٥]   (٢) سورة الأعراف [٩٦]

الثابت والمتطور في حياة البشرية

لم تدع لوثة التطور مجالا فى الفكر الغربى دون أن تصل إليه. وكان من بين تلك المجالات مجال التاريخ، وكلا التفسيرين الغربيين قد أخذ من تلك اللوثة بنصيب.

والذى يهمنا هنا - من بين القضايا الكثيرة التى تثار فى هذا المجال - قضية ثبات الفطرة البشرية، وما يترتب عليها من ثبات القيم التى تحكم حياة الإنسان، وثبات المعيار الذى يقوّم به إنجازه فى الأرض.

لقد كانت فكرة التطور - كما بينا فى غير هذا الكتاب - [1] صدمة عنيفة للفكر الأوروبى الكنسى الذى كان يتصور الثبات فى كل شىء: فى الكون والحياة والإنسان.. فى السياسة والاقتصاد والاجتماع.. فى الأخلاق والفكر والسلوك.

---

١) راجع إن شئت فصل «العلمانية» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة»

ثم مرت بأوروبا منذ الثورة الصناعية أحداث وتغيرات فى بنية المجتمع كله، استغلها المستغلون لتوسيع فكرة التطور وإدخالها فى كل مجالات الحياة، وكان الهدف الأكبر لأولئك المستغلين هو تحطيم بقايا الدين والأخلاق والتقاليد، وإنشاء مجتمع جديد مقطوع الصلة بالدين، والزعم بأن هذا هو المجتمع «المتطور» الذى هو ـ بحكم تطوره ـ أفضل من كل ما سبقه من مجتمعات التاريخ! (١)

وكان لابد من خلخلة معايير التاريخ، لكى لايحكم على هذه اللوثة بالإدانة!

فلو بقى الدين والأخلاق من معايير الحكم على الإنجاز البشرى وتقويمه، فاى حكم يمكن أن يصدر على هذا المجتمع المقطوع الصلة بالدين والأخلاق؟!

لابد إذن من خلخلة تلك المعايير ونبذها، ووضع فكرة التطور بدلا منها، لكى يمكن الحكم على هذا المجتمع المنحل المفكك المتكس بأنه أفضل مجتمعات التاريخ!

وقد كان!

فالتقط كل من التفسيرين الماديين الخيط، ونسج منه تفسيرا للتاريخ يسقط «القيم» من اعتباره، أحدهما ـ التفسير الليبرالى ـ يصور الإنسان حيوانا متطورا بلا زيادة، والآخر ـ الجدلى ـ يرجع به مسافة أطول فيرده إلى الطين، إلى المادة، حتى قبل أن تدب الحياة فى ذلك

---

(١) المقصود بهم اليهود راجع «دور اليهود فى إفساد أوروبا» فى الكتاب نفسه.

الطين، ثم يضيف إليه قدرا من «التطور» لايخرجه قط من قبضة الطين!

وهذان هما التفسيران اللذان تفسر بهما أوروبا التاريخ . . لايفترقان كثيرا إلا فى المسافة التى أراد كل منهما أن ينكس إليها الإنسان لكى يبعده، أو يبعد عنه الدين والأخلاق!

●●●

وما بنا هنا أن نناقش هذه اللوثة، فقد ناقشناها فى غير موضع . . ولكننا ونحن نوجه الخطاب للمسلمين، ندعوهم إلى كتابة التاريخ من زاوية الرصد الإسلامية، لابد أن نلم إلمامة سريعة[1] بقضية الثابت والمتطور فى حياة البشرية، لأنها قضية يمكن بالفعل أن تثير بعض الشبهات فى بعض الأذهان عند تناول التاريخ البشرى.

إن الحياة البشرية تتغير باستمرار، وخاصة فى العصر الأخير . . ففى قرن واحد من الزمان اختلفت على وجه التقريب كل وسائل الحياة، واختلفت كثير من صورها . . فما بال إذا وسعنا المسافة الزمنية أكثر، فاستعرضنا تاريخ البشر منذ سكناهم فى الكهوف إلى دورانهم حول الأفلاك بمركبات الفضاء، المتحدى منها وغير المتحدى! [2]

هل هناك ـ مع هذا التغير الدائم ـ شىء ثابت فى حياة البشرية؟

وإن كان هناك فى الحياة البشرية أمور ثابتة وأخرى متغيرة، فما

---

(١) تناولت الموضوع بالتفصيل فى كتاب «التطور والثبات فى حياة البشرية».

(٢) كان الصاروخ الذى احترق بعد ثوان من إطلاقه يسمى «المتحدى»! «Challenger»

العلاقة بين الثابت والمتطور؟ أم ليست هناك علاقة ، وكل منهما يسير فى اتجاه؟

إن هذه القضية وثيقة الصلة بتفسير التاريخ، لأنها تتصل مباشرة بالمعيار الذى يقوّم به الإنجاز البشرى خلال التاريخ . . هل لكل عصر معاييره؟ أم إن هناك معيارا واحدا يقوّم به «الإنسان» فى جميع العصور؟ وإذا ثبتنا المعيار فكيف نقيس مايتغير فى حياة الناس؟ وكيف نفاضل بين قوم وقوم فى الأمور المتغيرة، إذا لم تدخل المتغيرات فى المعيار؟!

تلك هى القضية التى نريد أن نعرضها فى هذه العجالة، وتلك هى صلتها بعلم التاريخ.

●●●

إن حياة الإنسان قد تغيرت ولاشك كثيرا منذ الإنسان الأول إلى عصرنا الحاضر، وهى عرضة لمزيد من التغيير فى المستقبل حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . ولكن ما الذى تغير على وجه التحديد: الجوهر أم الصورة؟

إذا بدأنا بالقضية الأساسية الأولى وهى تكوين الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، وتأثير هذا الازدواج الذى كان فى النشأة الأولى فى كون الإنسان ذا طريقين اثنين لا طريق واحد، وكونه قادرا على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما . . وهى القضية التى يقوم عليها فى الحقيقية تفسير التاريخ وتقويم منجزات

الإنسان. . فما الذى تغير فى هذه القضية، بل ما الذى يمكن أن يتغير؟!

الذى تغير فى الحقيقة هو ظهور نظريات «علمية» زائفة تريد أن تلغى أثر النفخة العلوية فى تكوين الإنسان، وترده إلى مرتبة الحيوانية - وإن تطور! - أو ترده إلى مرتبة المادة - وإن تطورت! وتضع - أو تحاول أن تضع - تفسيرا لحياته على هذا الأساس!

ولكن الواقع الذى نشاهده فى كل لحظة أن الإنسان يتصرف بطريقة مخالفة للحيوان ومخالفة للمادة. .

فإذا قلنا - جدلا - إن الحيوان المتطور، أو المادة المتطورة، يتصرفان على هذا النحو «الإنسانى» فقد وجب إذن أن نخصص لهذا الحيوان المتطور - أو تلك المادة المتطورة - معايير «إنسانية» وتفسيرا «إنسانيا» منذ اللحظة التى دخل فيها مرتبة الإنسانية، بصرف النظر عن ماضيه السحيق، الذى قد يبلغ بضعة آلاف الملايين من السنين!!

ومنذ أصبح الإنسان إنسانا فقد كان هذا حاله وهذا ديدنه: له طريقان، وله القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما. ومن ثم كان لأعماله معيار أخلاقى ملازم، ناشئ من طبيعته الإنسانية، وليس مفروضا عليه من خارج نفسه.

وتلك من القضايا الرئيسية فى تفسير التاريخ.

فإذا اتفقنا على هذا القدر فقد بقيت مشكلة أخرى هى ثبات المعايير الخلقية ذاتها وعدم تغيرها أو «تطورها» كما تزعم النظريات

المادية التطورية.. وأهم ماتجادل فيه تلك النظريات هو الفوضى الجنسية المعاصرة، ومحاولة إعطائها شرعية «أخلاقية»! والقول بأن الزواج والأسرة ليسا من الفطرة.

فدوركايم يحاول أن يؤصل الفوضى لا بالنسبة للوقت الحاضر فحسب، بل تاريخيا كذلك!: «وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو (أى أنها من الفطرة) ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان»[1]

والتفسير الجدلى يربط بين الأسرة وضوابطها الخلقية وبين الملكية الفردية ومبدأ «الاستغلال» البغيض! فإذا ألغيت الملكية الفردية من جهة، واستقلت المرأة اقتصاديا من جهة أخرى فقد انحل هذا القيد البغيض، قيد الزواج والأسرة، وأصبحت علاقات الجنسين حرة بلا عوائق.. وأصبحت هذه هى «الأخلاق» المتطورة، التى تناسب «المادة المتطورة» - أى الإنسان! - فى النظام الشيوعى!

وأما التفسير الليبرالى فإنه - على طريقته فى إقرار الأمر الواقع مادام قد وقع بالفعل! - لا يختلف كثيرا عن التفسير الجدلى، على الأقل فى القول بأن استقلال المرأة الاقتصادى قد أدى إلى تحلل علاقات الأسرة وحرية العلاقات الجنسية - كما سبق من كلام ول ديورات - وأن هذه هى «أخلاقيات» العصر الصناعى المتطور!

نقول - بصرف النظر عن هذا الجدل كله - إن الفوضى القائمة

---

١) دوركايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوى، ص ١٧٣

اليوم ليست شيئا «جديدا» «متطورا» كما يصوره أصحاب الأغراض.. فقد مرت على البشرية موجات إثر موجات من الفساد الخلقى، لا تفترق عما هو قائم اليوم، إلا فى سعة المساحة فحسب! وحتى «الشرعية» فقد أعلن مزدك شرعية الفساد قبل الشيوعية بقرون متطاولة، وعلى ذات الأسس «العلمية!» التى أقامتها عليها الشيوعية!!

وفى كل مرة فشا هذا الفساد كانت نتيجته واحدة.. لأن سنن الله لا تتغير ولا تتبدل.

والذين يكفرون بالله ورسله لايصدقون أن لله سننا لا تتبدل! و لا يصدقون أن الله سيعاقبهم على مخالفة أوامره، لأنهم يحسبون أنهم ماداموا هم لايؤمنون بالله فهو غير موجود حقيقة، أو غير قادر على الوصول إليهم!! وصدق الله العظيم:

«قل انظروا ماذا فى السموات والأرض؟ وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون!» (١)

فقد كانت مصيبة «الإيدز» وحدها كافية لرد الزائغين عن الطريق إلى الله، وتذكيرهم بقدرته عليهم سبحانه.. ولكنهم لا يرعوون:

«ولايزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة، أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتى وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد» (٢)

●●●

(١) سورة يونس [١٠١]

(٢) سورة الرعد [٣١]

فإذا مضينا خطوة أخرى فى البحث عن الثابت والمتطور فى الحياة البشرية فإننا نسأل: ما الذى تغير فى دوافع الإنسان، إذا كان تكوينه «الإنسانى» حقيقة مقررة، بصرف النظر عن منشئه فى الماضى السحيق؟

هل تغير حبه للحياة وحرصه عليها؟ هل تغير ميله إلى الجنس الآخر؟ هل تغيرت رغبته فى «الملك» وفى «السيطرة» وفى «إثبات الذات»؟ وفى «الاجتماع بالآخرين»؟ وفى «الامتداد» عن طريق الذرية؟ هل تغيرت رغبته فى التعرف على الكون المادى من حوله، ومحاولة تسخير طاقاته لتحسين حياته وتزيينها، والاستزادة من متاع الحياة الدنيا؟

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا...» (١)

ما الذى تغير فى دوافع الإنسان الأصيلة التى تحركه للعمل والنشاط فى الأرض ليقوم بعمارتها لتحقيق مهمة الخلافة التى خلق من أجلها؟

نعم.. تغيرت «صورة» الأداء..

وحين تغيرت صورة الأداء تغيرت مظاهر الحياة..

ولكن هل تقوّم النفوس بدوافعها الأصيلة أم بصورة الأداء لهذه الدوافع؟

---

(١) سورة آل عمران [١٤]

نضرب مثلا أو أمثلة . .

دافع القتال من الدوافع الأصيلة فى النفس البشرية، خلقه الله ليتم من خلاله التدافع الذى يحفظ الأرض من الفساد . . وهو يأخذ اتجاهين اثنين حسب «عقيدة» صاحبه:

«الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت» [1]

وكان القتال فى القديم يدور بالسهم والرمح والسيف وما أشبه . . وصار اليوم بالمدافع والدبابات والمصفحات والقنابل الذرية والنووية، ومايمكن أن يجد فى المستقبل من أدوات الدمار . .

فما الذى تغير؟!

وهل تغيرت دوافع القتال حين تغيرت أدواته؟ أم لايزال الموقف كما كان منذ أول لحظة: إما قتال فى سبيل الله وإما قتال فى سبيل الطاغوت يتخذ صورا شتى من الاستعباد والظلم والعدوان والاستغلال؟!

وكانت معلومات الناس عن الكون المادى ضئيلة للغاية، وسيطرتهم على البيئة ضئيلة للغاية . . ولكن فى قلوبهم شوقا دائما لمزيد من المعرفة بذلك الكون، ومزيد من السيطرة على البيئة . . وظل هذا الشوق يدفع الإنسان حتى فجر الذرة، واستخلص محتوياتها، وصارت البيئة طيعة بين يديه لتحقيق رغباته . .

فما الذى تغير؟!

---

1) سورة النساء [٧٦]

هل اكتفى الإنسان بما حقق من علم، وبما حقق من سيطرة على البيئة؟ أم مايزال ذلك الشوق الكامن فى قلبه يدفعه إلى المزيد؟

حقيقة إن العلم الذى حصل عليه حقق له قدرا من السيطرة لم يكن يحلم به. . فصارت ضغطة زر تدير له آلة تقوم بجهد مئات من العمال، أو تنقل إليه أنباء العالم وهو جالس فى مقعده، أو تحمله إلى الفضاء. .

ولكن هذا كله كان «أحلاما» بشرية فتحقق فى عالم الواقع. . ولاشك أن تحققه قد حفزه إلى أحلام جديدة يحاول تحقيقها. ولكن هل خرج عن كيانه وعن دوافعه؟ هل تحول إلى خلق آخر؟

قد يخيل للإنسان فى الجاهلية المعاصرة أن تغيرا جذريا قد حل به، هو الاستغناء عن الله، شعورا منه بأنه قد بلغ أقصى الغاية فى تحقيق ذاته، أو كما يقولون هم : لقد شب الإنسان عن الطوق، ولم يعد فى حاجة إلى وصاية الله!

فهل هذا الأمر جديد حقا؟! أم إنه قديم قدم الإنسان؟ تأمل قوله تعالى:

«كلا! إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى!»(1)

وكان الإنسان الجاهلى القديم يسترق أخاه الإنسان بقوة عضلاته. فيستعبده ليزرع له الأرض وهو مستريح، وهو فوق ذلك مسيطر، فيحقق نزعتين خبيثتين فى آن واحد: نزعة السيطرة ونزعة الإستيلاء

(1) سورة العلق [٦ - ٧]

على جهد الآخرين بأقل من المقابل المستحق لذلك الجهد. .

و «تطور» الإنسان تطورا هائلا خلال عشرين قرنا من الزمان أو أكثر. .

ثم استحدث نوعا جديدا من الرق يسمونه الاستعمار الاقتصادى أحيانا، ويسمونه أحيانا بأسماء أخرى، خلاصته أن الدول القوية تسيطر على اقتصاديات الدول الضعيفة، فتجعلها تنتج لها الخامات التى تحتاج إليها بأرخص الأسعار، وتأخذها هى لتصنعها ثم تبيعها بأغلى الأسعار، وتفرض على الدول الضعيفة بشتى الوسائل أن تشتريها بتلك الأسعار. .

فما الذى تغير؟!

حقيقة إن الصورة الساذجة القديمة للاسترقاق قد اختفت، ولم تعد العضلات هى وسيلة الاسترقاق. . ولكن هل تغيرت فى الإنسان الجاهلى الحديث هاتان النزعتان الخبيثتان: نزعة السيطرة، ونزعة الاستيلاء على جهد الآخرين، بأقل من المقابل المستحق لذلك الجهد؟

●●●

تلك قصة الإنسان فى الأرض. .

تغيرت صورة حياته مئات المرات خلال التاريخ. . ولكن نفسه من الداخل لم تتغير. .

وحين زعمت الشيوعية أن نزعة الملكية الفردية ليست نزعة فطرية، وأنها قد استحدثت فى نفس الإنسان نتيجة اكتشاف الزراعة، وتملك الأرض لاستغلالها فى الزراعة، وأن الشيوعية قد «غيرت» تلك النزعة فردتها إلى أصلها الجماعى الذى كانت عليه فى المشاعية البدائية قبل ظهور الملكية الفردية . . حين زعمت ذلك ردت عليها حقائق الواقع، إذ تدهور الإنتاج الزراعى فى روسيا فى ظل الملكية الجماعية حتى أصبحت روسيا تشترى القمح - بانتظام - من أمريكا!!

كلا! لم يتغير شىء فى البناء الداخلى للإنسان، مع كل التغير الضخم الذى حدث فى مظاهر الحياة!

يقول رينيه دوبو فى كتاب «إنسانية الإنسان»:

«عاش رجل «كرو ماغنون» فى أكثر أنحاء أوروبا قبل حوالى ثلاثين ألف سنة، قبل قيام الزراعة وحياة القرية بفترة طويلة، ومع أنه كان صيادا بصورة رئيسية كان - على ما يظهر - مشابها لنا جسما وعقلا. فأدواته وأسلحته تناسب حجم أيدينا الآن. وفنه فى كهوفه يثير مشاعرنا. والعناية التى كان يوليها لدفن موتاه تكشف أنه شاركنا بشكل ما بالاهتمام بنهاية الإنسان وآخرته. وكل أثر مدون من آثار إنسان ماقبل التاريخ يوفر شواهد أخرى للفكرة القائلة إن الخواص الأساسية للجنس البشرى لم تتغير منذ العصر الحجرى»[1]

---

١) رينيه دوبو، إنسانية الإنسان، ترجمة د. نبيل صبحى الطويل، طبع مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٩، ص ٧١

لذلك لا تتغير القيم الثابتة التى تحكم الجانب الثابت من كيان الإنسان!

●●●

ولكن هل معنى هذا أن نسقط كل ماتغير من مظاهر الحياة الإنسانية من معيار التقويم الذى نقوم به إنجازات الإنسان، بحجة أن بناءه الداخلى لم يتغير، ومن ثم لابد أن يكون التقويم بالقيم الثابتة التى تتوقف عليها «إنسانية الإنسان» لا بمظاهر حياته المتغيرة؟

كلا! لا نقصد ذلك!

فلو عثرنا اليوم على إنسان مازال يعيش فى الكهف، يصطاد الحيوان لطعامه بالرمح أو السهم، ويطهوه فى موقد بدائى، أو لا يعرف كيف يطهوه.. ويلبس قطعة من الجلد حول منطقته.. فسنقول على الفور إنه متأخر.

ذلك أنه قد تخلف فى جانب من الإنجاز المطلوب منه فى مجال الخلافة وعمارة الأرض، استطاع أقرانه من البشر أن يقوموا به، فأصبح هو متخلفا عنهم، لوجود نقص فى جانب من كيانه، جعله يقصر فى اللحاق بأولئك الأقران.

ولكنا لو اكتشفنا من معايشتنا لذلك الإنسان أنه يعرف إلهه الحق، ويعبده عبادة صادقة، ويلتزم بالفضائل الإنسانية فلا يظلم ولايعتدى، ويعامل الناس باللطف والمودة، وإذا عرض موجب للتعاون قام يتعاون معهم ويبذل جهده لايريد من الناس جزاء ولا شكورا، ورأيناه لا يستأثر وحده بالطعام بل يبحث عن إنسان محتاج

فيشركه فى طعامه، ثم يقوم فيشكر الله على أن مكنه من أداء خدمة لإنسان آخر.

هل تظل نظرتنا إليه كما كانت عندما رأيناه للوهلة الأولى قبل أن نعرف أفكاره ومشاعره وطريقة سلوكه؟!

أم يتغير الميزان؟

وحين يتغير الميزان فهل نغض الطرف تماما عن النقص الذى لمسناه أول مرة؟ أم نقول: إنه رجل فاضل كريم عاقل متزن نبيل المشاعر، ولكن يلزمه أن يغير ما هو فيه من التخلف، ليصبح على مستوى العصر الذى يعيش فيه؟!

وهذا مثال جدلى متخيل بطبيعة الحال، مبالغ فيه من طرفيه للتوضيح. ولكن القضية التى يعرضها قضية حقيقية، تحتاج إلى حسم من كاتب التاريخ: أيها الأثقل فى الميزان: جانب القيم الثابتة؟ أم جانب المظاهر المتغيرة، مع التسليم بأن كلا منهما مطلوب، وكلا منهما له وزنه فى التقويم الأخير..

ولكى تتضح الصورة، ويسهل الحسم فى القضية، سنأخذ المثال المقابل تماما من الجاهلية المعاصرة.

هذا إنسان قد هبط لتوه من الصاروخ العائد من الفضاء.. لقد حقق مجدا عظيما للإنسان بغزو الفضاء، و«تحدى» كل العوائق التى كانت تمنع الإنسان من الانطلاق[1]

---

١) أشرنا من قبل إلى الصاروخ الذى انفجر بعد ثوان من إطلاقه وكان يحمل اسم «المتحدى» ولا ندرى بالضبط من أو ماذا كان يتحدى؟!

وحين هبط إلى الأرض كانت «صديقته» في انتظاره لتهنئه بالنصر العظيم الذي تحقق على يديه.. إنهما لم يتزوجا لأنهما لا يعترفان بالزواج، ويعتبرانه قيدا سخيفا على حريتهما لا معنى له. هي تعمل. مستقلة اقتصاديا. ليست في حاجة إلى من يعولها. لذلك فهي تمنح صديقها صداقة حرة. بمحض إرادتها. صحيح أنه ليس أول صديق لها.. وقد لا يكون آخر صديق.. ولكنه - الآن - هو صديقها المختار.. وهو من جانبه كذلك.. ليست هذه أول صديقة له.. وقد لا تكون آخر صديقة.. ولكنها - الآن - صديقته المختارة.

عنده مبلغ من المال، أودعه في البنك ليحصل على فوائده.. لم يقف ليسأل نفسه يوما: هل الربا طريق مشروع لاستثمار المال؟ صحيح أن البنك الذي يعطيه الفائدة قد ربح أكثر منها من إقراض مبلغه ومبلغ غيره إلى المحتاجين لاستثماره.. ولكن من يملك البنك؟ ما نتائج تراكم المال في يد الفئة القليلة التي تملك معظم أسهمه؟ ما تأثير هذا المال المتراكم في السوق الاقتصادية؟ سوق العملات العالمية مثلا؟ ما تأثيره في توجيه وسائل الإعلام؟ وهذه الصور العارية في الصحافة أو التلفزيون، وهذه الأغاني التافهة، والمسرحيات الهابطة والأفلام المثيرة؟ أي هدف يقصد منها؟ ومن الذي يدير السياسة حين تغرق «الجماهير» في هذا اللهو العابث الذي تبثه وسائل الإعلام؟ ولمصلحة من في النهاية؟

ثم.. إذا بحرب قد أعلنت.. ولقد جندته الدولة ليذهب إلى

ميدان القتال بعد أن شحنت وسائل الإعلام مشاعر الناس ضد «العدو» الذى يستحق الإبادة أو التأديب.. لم يقف ليسأل نفسه، هل هذه الحرب حق أم باطل؟ لحساب من تدار؟ هذه الأرواح التى ذهب لإزهاقها.. هل تستحق الإزهاق بالفعل؟.. أم إنها قامت لحقها المغتصب، فذهب هو «لتأديبها» جزاء تمسكها بحقها المشروع؟

انتهت الحرب وعاد منتصرا.. لقد أثبتت بلاده قوتها وانتصرت على عدوها بما تملك من وسائل التدمير الوحشى، وهو مسرور بطبيعة الحال، بنجاته من الموت أولا، وبنصر بلاده ثانيا، لم يهتز ضميره لحظة واحدة للقتلى الذين قتلتهم بلاده، ولا المشردين الذين شردتهم، فالقومية التى يعتنقها - التى غذتها فى نفسه مناهج التعليم ووسائل الإعلام - قد علمته أن «مصلحة» بلاده فوق مصالح البلاد كلها، وهى التى لها الاعتبار كله، ومصالح الأمم الأخرى لا وزن لها ولا اعتبار. لقد قام النزاع فانتصر الأقوى، والأقوى هو الأصلح، وهو صاحب الحق فى البقاء..

لم يجد صديقته.. لقد تعرفت فى أثناء غيابه على صديق آخر.. تركت له رسالة تعلنه فيها بانتهاء ما كان بينهما من علاقة.. أحزنته الصدمة.. ذهب إلى «علب الليل» ليغرق أحزانه.. واحتاج إلى قدر أكبر من الخمر لينسى.. ليهرب من نفسه.. إنه ينسى بالفعل، ولكنه يفيق أكثر كآبة، وأكثر حاجة إلى الهروب من الظلام الذى يملأ جنبيه.. يريد أن يغرق فى مرح مجنون.. لا يريد أن يفكر.. لا يطيق

أن يفكـر . . وفى أى شىء يفكـر؟ ما أتفـه الحياة! إنها ليست ذات معنى . . إنها عبث مفض إلى الفناء!

هل هناك شىء بعد الفناء؟ . .

لأى شىء يعيش الإنسان؟

أوه . . دعنا من التفكير! فلنعمل بجد لنكسب أكبر قدر من النقود . . ثم لننفق ما حصلناه من النقود . . ولنحاول أن نستمتع إلى أقصى حد . . Enjoy yourself[1] وليكن بعد ذلك ما يكون!

تلك قصة متخيلة بطبيعة الحال، ولكن وقائعها ـ متفرقة أو متجمعة ـ تحدث لملايين من البشر فى الغرب . . يعيشون «التطور»! كل مظاهر حياتهم قد تطورت مع تطور العلم . والتكنولوجيا، وتطور «المفاهيم» المتعلقة بالإنسان، وغاية وجوده . . يعملون بدأب وجلد لإنتاج أكبر قدر من الإنتـاج المادى «المتطور» . . وأفئدتهم هواء! خاوية من كل القيم الحقيقية التى تتحقق بها «إنسانية» الإنسان، والتى اختص بها منذ أخذ صورته الإنسانية المتميزة .

وما وزنهم فى التاريخ؟ . . بل قبل أن نسأل عن وزنهم نسأل عن حالهم . . ما حصيلة «التطور» الذى يعيشونه أو يعيشون فيه؟

فأما عدد غير قليل منهم فسل عنه مصحات الأمراض العقلية، والعيادات النفسية، وسجلات المجرمين، بنسب تقول إحصائياتهم ذاتها إنها آخذة فى الازدياد .

---

١) أى متع نفسك! وهى كلمة شديدة الجريان على ألسنة الأولاد والبنات فى أمريكا خاصة!

وعدد آخر فسل عنه فى مكان غريب جدا ولكن له دلالته فى قياس درجة «السعادة» التى يعانيها المتطورون. . هو «مكاتب» البحث عن الشاردين من أهلهم وأصدقائهم والشاردات، تلك المكاتب التى تأخذ «المواصفات» وتقوم بالبحث لقاء أجر معلوم. .

وارقب الباقين ـ أو غالبيتهم ـ يعملون كالآلات بالنهار، وينطلقون كالحيوانات فى الليل، فى المراقص والحانات وعلب الليل ونوادى التفاهة أو نوادى المجون.

والآن ما وزنهم فى التاريخ؟

لا نقول إنهم أصفار فى ميزان التاريخ. . فهذا الجهد الدائب الذى يبذلونه فى التعرف على الكون المادى، واستغلال طاقاته فى تيسير الحياة للإنسان، هو جزء من مهمة الخلافة التى خلق لها الإنسان. ولهذا لا يمكن إسقاطها من الحساب.

وهذا التنظيم العبقرى للحياة، الذى ييسر بدوره استغلال طاقات الكون المادى للإنسان، هو جزء من مهمة الخلافة فلا يمكن إسقاطه من الحساب.

والتكنولوجيا المتطورة وأثرها «فى السيطرة على البيئة» جزء من مهمة الخلافة لا يمكن إسقاطه من الحساب. .

وتلك هى «المتغيرات» النافعة فى حياة الإنسان المعاصر. :

ولكنا نقول ـ كما قلنا من قبل ـ إن هذه الأمور كلها، بغير القيم

التى ينبغى أن تصاحبها، خفيفة الوزن جدا فى الميزان الذى يقوّم به إنجاز «الإنسان»!

ثم إنها وحدها - بغير القيم التى ينبغى أن تصاحبها - عرضة لأن تدمر الإنسان فى النهاية، بعد أن تقدم له النفع فترة من الزمن. هى الفترة التى يقدرها الله فى الإملاء للظالمين قبل أن يدمر عليهم.

ويجىء التدمير بقدر من الله، ولكن يجري قدر الله من خلال أعمال البشر كما بينا من قبل:

«ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون» (١)

فمن هذه الأدوات النافعة ذاتها يحدث الفساد فى الأرض، حين تقوم وحدها بغير القيم التى ينبغى أن تصاحبها. لأنها تؤدى إلى الترف، وتؤدى إلى الترهل، وتؤدى إلى الفتنة بمتاع الحياة الدنيا والتكالب عليه، فيحدث الصراع المدمر فى حياة الناس..

من أجل ذلك فإن القيم الثابتة هى الأثقال وزنا فى ميزان التاريخ، وهى التى ترجح الكفة أو تجعلها تطيش.. أما المتغيرات فمع أنها ذات وزن، ومع أنها مطلوبة، ومع أنها من المقومات المحسوبة فى التقويم، فإنها ليست هى التى ترجح الكفة أو تجعلها تطيش.

وفى لحظة معينة، حين يجىء التدمير بقدر من الله يكون وجودها وعدمها سواء!

---

١) سورة الروم [٤١]

«أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم؟ كانوا أكثر منهم، وأشد قوة وآثاراً فى الأرض، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون، فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون. فلما رأوا بأسنا قالوا: آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا. سنة الله التى قد خلت فى عباده. وخسر هنالك الكافرون»(١)

(١) سورة غافر [٨٢ - ٨٥]

كلمة فى الختام

هذه الكلمة موجهة إلى المؤرخ المسلم الذى يتصدى لكتابة التاريخ البشرى من زاوية الرصد الإسلامية.

إن كثيرا من «المثقفين» سينكرون هذا العمل من أساسه..

سينكرونه بادئ ذى بدء لأنهم لم يتعودوه!

وسينكرونه لأن أوربا - التى تثقفوا على فكرها، وصارت مرجعهم فى كل أمر - لم تذكره فى مراجعها، ولن توافق عليه فى المستقبل! فهى لا توافق على تأريخ يضع تاريخها فى «الجاهليات»، ولا تأريخ يضع أمجادها التى تعتز بها فى ذيل القائمة، ولا تأريخ لا يجعل أوروبا محور التاريخ!

وإذا انتظر المؤرخ المسلم حتى يعترف بعمله أولئك «المثقفون»، أو تعترف بعمله أوروبا، فسينتظر كثيرا.. وقد ينتظر دون جدوى!

إنما على المؤرخ المسلم أن يعمل باقتناعه، لا برأى الناس فيه، ولو كان الناس هم المثقفين.. أو هم الغربيين!

واقتناع المسلم ـ مؤرخا أو غير مؤرخ ـ مستمد من منهجه الربانى، المبين فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وحين يكتب المؤرخ المسلم تاريخ البشرية من زاوية الرصد الإسلامية فلن تتغير على يديه وقائع التاريخ ـ كما أشرنا أكثر من مرة فى البحث ـ إنما الذى سيتغير هو تفسير التاريخ، وتقويم الإنجاز البشرى، وهما العبرة الحقيقية من دراسة التاريخ.

●●●

سيقول «المثقفون» إن هذا التفسير رجعى لأنه يستمد معاييره من الدين والأخلاق، وقد رفضت أوروبا كلا المعيارين ووسمتهما بالرجعية!

وسيقولون إنه تفسير غير موضوعى وغير علمى لأنه خاضع لتوجيه الدين!

وسيقولون إنه متعصب ضيق الأفق، لأنه لا يزن البشرية بميزان واحد، ويفرق بين الناس على أساس عقيدتهم، وقد ألغت «الديمقراطية» الفوارق بين البشر بما فى ذلك فارق الدين، ورفضت «الشيوعية» أن تقوم التفرقة بين البشر على أساس الدين!

وسيقولون إن هذا التفسير سيعزلنا عن العالم، لأنه سيجعل لنا عملة خاصة غير التى يتعامل بها الآخرون!

●●●

فأما أوروبا، ورفضها معيار الدين والأخلاق، فهى حرة فيما تصنع بنفسها. ولكن المسلم لا يملك أن يتخذ معيارا غير المعيار الربانى، ثم يزعم بعد ذلك أنه ما زال محافظا على إسلامه.

إنها مسألة من صميم عقيدته: هل كلام الله صادق، سبحانه، أم يحتمل غير الصدق؟ وهل كلامه ملزم، سبحانه، أم مجرد «رأى» أو «وجهة نظر» يملك المسلم أن يتخذ رأيا غيره أو وجهة نظر غيره!

والتفسير الإسلامى للتاريخ - كما قلنا - هو فى ذاته اجتهاد بشرى يمكن أن يخطئ ويصيب، كاجتهاد الفقهاء فى استنباط الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن تختلف فيه وجهات النظر كما تختلف وجهات النظر بين الفقهاء، أما «المعيار» فليس بشريا. ولا يملك البشر - بعلمهم المحدود، وقصور نظرتهم، وتأثرهم بأهوائهم - أن يضعوا هم المعيار من عند أنفسهم. إنما يضعه الخالق المدبر، اللطيف الخبير، صاحب الأمر فى الدنيا والآخرة:

«ألا له الخلق والأمر»(1)

«وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون»(2)

فإذا قال الله إن هذا هو الخير وذاك هو الشر، فلا يملك البشر من عند أنفسهم أن يقولوا إن لنا رأيا آخر فى الأمر. وحين يقولون ذلك -

---

(1) سورة الأعراف [٥٤].

(2) سورة البقرة [٢١٦].

وهم يقولونه ـ فهم يتحملون وزرهم، أما المسلم فشأنه أنه يلتزم بما قضى الله ورسوله:

«وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم»(٣)

«إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون»(٤)

●●●

أما قضية «الموضوعية» و«العلمية» فقد سبق أن أشرنا إليها فى فصل «معيار الإنجاز البشرى»، وقلنا إن أوروبا تنزع العلمية والموضوعية عن دينها ـ وهى محقة فى ذلك ـ لأنه صناعة بشرية، ومن أجل ذلك فلا حجية له، أما المسلم فهو يتعامل مع دين الله الحق، وهو شىء مختلف تماما عن الدين الذى نبذته أوروبا، وقالت فيه ما شاءت أن تقول..

إن المسلم لا يعرف شيئا أكثر موضوعية ولا أكثر علمية من دينه المنزل من عند الله.

وهو يتعامل مع دينه بهذا اليقين فى كل أمر من أمور العقيدة، وأمور الحياة، وأمور الفكر.

ويقينه هذا ليس تسليما أعمى، فإنما نهى عن التسليم الأعمى، ودعى إلى التفكير، والاقتناع بعد التفكير:

---

(٣) سورة الأحزاب [٣٦]

(٤) سورة النور [٥١].

«قل: إنما أعظكم بواحدة: أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا»[1]

«والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا»[2]

«أفلا يتدبرون القرآن؟ أم على قلوب أقفالها»[3]

«أفلا يتدبرون القرآن؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا»[4]

«كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»[5]

وهو يجد من مصداق الموضوعية والعلمية فى آيات الأحكام ـ التى يدور حولها الفقه الإسلامى ـ ما يدهش العقل البشرى من دقته وإحكامه وإحاطته وشموله. ويجد من مصداق الموضوعية والعلمية فى الإشارات إلى الآيات الكونية ما يكشف عنه علم البشر جيلا بعد جيل، وقد كشف علم الأجنة فى السنوات الأخيرة عن أمور واردة فى كتاب الله أذهلت العلماء الذين اطلعوا عليها فآمن منهم من فتح الله بصيرته، وقالوا إن هذه المعلومات لم تكن معلومة للبشر قبل عشر سنوات فقط فكيف بأربعة عشر قرنا؟!

كذلك يجد المسلم مصداق الموضوعية والعلمية فى الآيات التى

(١) سورة سبأ [٤٦].

(٢) سورة الفرقان [٧٣].

(٣) سورة القتال [٢٤].

(٤) سورة النساء [٨٢].

(٥) سورة ص [٢٩].

تتحدث عن سنن الله فى الحياة البشرية، وهى هى محور التفسير الإسلامى للتاريخ.

فإذا قالت أوروبا عن دينها إنه غير موضوعى وغير علمى..

فلتقل، أما المسلم فقد تعلم الموضوعية وتعلم العلمية من هذا الدين! ويشهد التاريخ أن الحركة العلمية الكبرى - التى تعلمت منها أوروبا المنهج التجريبى فى البحث العلمى - كانت من منجزات هذا الدين، ولم تكن الأمة الإسلامية - قبل إسلامها - أمة علم، ولا أمة موضوعية، فصارت كذلك حين اعتنقت الإسلام ومارسته بشموله وموضوعيته وعلميته فى كل جوانب الحياة.

●●●

كذلك أشرنا إلى دعوى التعصب فى فصل «معيار الإنجاز البشرى»..

إننا لسنا واضعى المعيار الذى يفرق بين البشر على أساس العقيدة، ويفرق بين تاريخ البشر فى الحياة الدنيا وفى الآخرة على الأساس ذاته.

إن واضع المعيار هو الله سبحانه وتعالى:

«خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن» (١)

والذى قال إن تاريخ المؤمنين يختلف عن تاريخ الكفار فى الدنيا والآخرة هو الله سبحانه وتعالى:

«ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» (٢)

---

(١) سورة التغابن [٢]. (٢) سورة الأعراف [٩٦].

«ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى»(1)

«فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون»(2)

أما الديمقراطية التى تزعم أنها ألغت فوارق الدين، وأما الشيوعية التى ترفض أن يقوم التفريق بين البشر على أساس الدين، فلتصنع هذه وتلك ما شاءت.. إنها لا تملك شيئا من أمر الناس فى الدنيا ولا الآخرة! إنما الذى يملك أمر الناس كله فى الدنيا والآخرة فهو الذى صنفهم هذا التصنيف.. والذى قرر وجود التفرقة ـ ووجوب التفرقة ـ بين المؤمنين وبين الكافرين.

والتفرقة قائمة بالفعل فى ظل الديمقراطية والشيوعية فلا تخدعنا اللافتات!

كيف تعامل أوروبا الديمقراطية ـ الصليبية ـ المسلمين فى كل الأرض؟ فكيف تخدعنا اللافتات؟

وكيف يشوه المستشرقون ـ الذين تنتجهم الديمقراطية ـ التاريخ الإسلامي؟! فكيف تخدعنا اللافتات؟!

وغير المستشرقين من كتاب التاريخ: فيشر، وويلز، وتوينبى وغيرهم.. أين يضعون التاريخ الاسلامى فى كتاباتهم عن تاريخ العالم؟ فكيف تخدعنا اللافتات؟!

---

(1) سورة طه [124].

(2) سورة البقرة [38 ـ 39].

إن واقع الديمقراطية غير مزاعمها . وإن تعامل تلك الديمقراطية المزعومة مع الإسلام والمسلمين فى كل الأرض هو الشاهد على أن دعوى عدم التفرقة على أساس العقيدة هى مجرد دعوى لا ظل لها من الحقيقة.

ومع ذلك فإن وضع الجاهلية الأوروبية فى مكانها فى التفسير الإسلامى للتاريخ، ليس ثأرا منهم! وليس معاملة بالمثل! فقد أمرنا الله بالعدل معهم، وألا يجرمنا شنآنهم على عدم العدل:

«وأمرت لأعدل بينكم» (١)

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى» (٢)

إنما هو الالتزام بأمر الله دون تعصب ودون شنآن.

فحين يقول تعالى فى كتابه المنزل:

«أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟» (٣)

لا يدع لنا خيارا فى الأمر. فكل حكم غير حكم الله فهو حكم الجاهلية. وكل قوم فى الأرض لا يحكمون بما أنزل الله فهم فى جاهلية حتى يخرجوا منها بتحكيم شريعة الله.

وحين نضع تاريخ أى أمة ـ فى القديم أو الحديث ـ لا تحكّم شريعة

---

(١) سورة الشورى [١٥].

(٢) سورة المائدة [٨].

(٣) سورة المائدة [٥٠].

الله فى مكانها فى تاريخ الجاهليات، فليس من عندنا نصنع ذلك، ولا نملك أن نصنع غيره حين نلتزم بالمنهج الربانى، ونسمى الأشياء بما سماها به الله.

وأمـا الشيوعـية التى تزعم أنها ترفض تمييز النـاس بحسب عقائدهم، فلنذكر لها أمرين يفسران حقيقة موقفها:

الأمر الأول كتاب ألفه لنين بعنوان «حل المشكلة اليهودية» قال فيه: إنه طالما كان هناك دين ومتدينون، فسيظل يشير الناس إلى اليهود على أنهم يهود، ويظل يقـع تمييز مجحف عليهم، والحـل الوحيد للمشكلة اليهودية هو إلغاء الدين كله، وعدم التمييز بين البشر على أساس الدين. وعندئذ تستطيع الأقلية اليهودية أن تعيش بسلام دون أن يقع عليها تمييز مجحف!

فلينظر «المسلمون» لحساب من يلغى الشيوعيون الدين! ولينظروا فى الوقت ذاته إلى حقيقة تاريخية هي إبادة أربعة مليون مسلم على يد ستالين.. لأنهم مسلمون!

أما الأمر الثاني فهو حقيقة تاريخية أخرى وقعت عام ١٩٤٨م، حين أنشئت الدولة اليهودية القائمة على أساس دينى واضح لا لبس فيه، فقد اعترفت بها أمريكا فى منتصف الليل بتوقيتنا المحلى، وبعد عشر دقـائق من اعـتراف أمـريكا كانت روسيا ثانى دولة فى العالم تعترف بالدولة القائمة على أساس الدين.

فلينـظر «المسلمون» لحسـاب من توضـع المبادئ والشعارات فى

الشيوعية، ولحساب من تنقض المبادئ والشعارات وقت اللزوم!

والمسلم لا يستمد معاييره من موقف هؤلاء القوم أو أولئك القوم.

إنما يستمد معاييره من الإسلام.

●●●

بقيت قضية العزلة عن العالم بسبب التعامل بعملة خاصة غير العملة التى يتعامل بها بقية الناس.

وجزء من هذه القضية صحيح بلاشك. فالعملة الإسلامية عملة خاصة من صنع الله سبحانه وتعالى، بينما بقية العملات من صنع البشر:

«صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون»(١)

أما العزلة - إن حدثت، وهى صعبة الحدوث فى عالمنا المعاصر - فمن الذى يفرضها؟

لماذا يفرض علينا أن نترك عملتنا الخاصة، ونتعامل بعملة القوم، ولا يقبل القوم منا أن تكون لنا عملتنا الخاصة كما لهم هم عملتهم الخاصة؟

من المتعصب إذن؟

ولاشك أن وضع المسلمين هو الذى يحكم القضية..

فيوم كانت للمسلمين قوة سياسية وقوة حربية وقوة مادية.. ويوم كانت لهم دولة مسموعة الكلمة ممكنة فى الارض.. كان للمسلمين

---

(١) سورة البقرة [١٣٨].

عملتهم الخاصة، يعترف بها العالم كله راضيا أو كارها، وتجرى فى الأرض أمرا واقعا، ويشتريها من يشتريها، ويدعها من يدعها، ولكن لا يجرؤ أحد على عدم الاعتراف بها..

فلما حادوا عن طريق الله، وجرت عليهم السنن الربانية التى لا تتبدل ولا تحابى أحدا من البشر، زال التمكين الربانى عنهم، وصاروا غثاء كغثاء السيل.. ثم فرض الأعداء عليهم عملتهم، فتعاملوا بها كأنها عملتهم الخاصة!

والله لم يخرج هذه الأمة لتكون ذيلا للبشرية، وإنما لتكون فى موضع القيادة والريادة والشهادة:

«وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا»(١)

ولقد أثرت الهزيمة الضخمة فى نفوس المسلمين حين هزمهم أعداؤهم وهم غثاء كغثاء السيل لا جذور له تمسكه فى الدوامة، فنسوا مهمتهم التى أخرجهم الله لها، وصاروا ذيلا للأمم بل صاروا يلهثون وراء الذيل، يطلبون من العالم أن يتعطف عليهم بقبول لهاثهم وراءه حتى يلحق بالركب!

ولكن الله يقول للمؤمنين، حتى فى هزيمتهم:

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»(٢)

---

(١) سورة البقرة [١٤٣].

(٢) سورة آل عمران [١٣٩].

ونحن فى هذا البحث لا نخاطب المنهزمين الذين فقدوا ذاتيتهم، والذين يحسبون أن أقصى ما يغنمونه من غنم فى الحياة الدنيا أن تعترف بهم الجاهلية المعاصرة، وتسمح لهم باللهاث خلفها، ولا تطردهم من محيطها . .

إنما نخاطب الذين استردوا ذاتيتهم بالفعل، وعرفوا مكانهم الذى أخرجهم الله ليكونوا فيه . . وعرفوا أن هذا الدين هو الحق، و ماخلاه باطل فاستمسكوا بالحق، ولم تفتنهم كثرة الخبيث:

«قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون»[1]

● ● ●

كتابة التاريخ البشرى من زاوية الرصد الإسلامى ضرورة لازمة للأمة الإسلامية، وليست نافلة يمكن إسقاطها أو الاستغناء عنها، وليست كذلك عملا هامشيا يقوم به بعض الناس لتزجية أوقات الفراغ . . فراغ الأمة الإسلامية!

إنه ضرورة لتوحيد الشخصية المسلمة، وعدم تمزيقها بين دراسة ودراسة، وبين منهج ومنهج، وبين اتجاه واتجاه . .

إننا نعيش اليوم بشخصية مزدوجة، لا بين درس الدين ودرس التاريخ فقط . . بل بين إسلامنا ومناهجنا التعليمية فى عمومها. ثم نعجب فى النهاية لماذا يخرج أبناؤنا ـ الذين نقوم بتعليمهم فى مدارسنا

---

(١) سورة المائدة [١٠٠].

ـ باهتى الشخصية، غير متميزى الملامح، تتقاذفهم الأهواء وتتقاذفهم المذاهب وتتقاذفهم الاتجاهات؟

إننا نحن الذين نصنع فيهم ذلك!

ولابد أن نأخذ الأمر بالجدية اللازمة له.. لابد أن نعيد النظر في مناهجنا كلها، فنعيد بناءها على أسس إسلامية.

ومنهج التاريخ فى مقدمة المناهج التى تحتاج إلى إعادة البناء، سواء منها ما يختص بالتاريخ الإسلامى[1] وما يتعلق بالتاريخ البشرى كله.. لأن درس التاريخ ـ كما قلنا فى المقدمة ـ هو درس فى التربية فى ذات الوقت.

والصحوة الإسلامية عليها واجب ضخم تجاه المناهج التعليمية عامة، ومناهج التاريخ بصفة خاصة.. تعيد صياغتها صياغة إسلامية.. باعتبار هذا جزءا لا ينفصل عن مهمة التربية اللازمة لإعداد الجيل المسلم.

والمؤرخون المسلمون مدعوون للقيام بنصيبهم من هذا الجهد الشاق.. وقد لا يعترف بجهدهم أحد فى الوقت الحاضر.. بل قد يرميهم المثقفون بالأحجار!

ولكنهم ـ بجهدهم ـ يبنون الطريق للمستقبل.

---

(١) هنالك بحث مكتوب منذ سنوات بعنوان «كيف نكتب التاريخ الإسلامى» ينتظر المراجعة لإخراجه والله الموفق.

والمستقبل للإسلام!

«وعد الله لا يخلف الله وعده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (١)

«هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا» (٢)

---

(١) سورة الروم [٦].

(٢) سورة الفتح [٢٨].

الفهرس

الموضوع	الصفحة

كتب للمؤلف

- الإنسان بين المادية والإسلام
- شبهات حول الإسلام
- قبسات من الرسول
- معركة التقاليد
- هل نحن مسلمون؟
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الأول فى النظرية)
- منهج التربية الإسلامية (الجزء الثانى فى التطبيق)
- منهج الفن الإسلامى
- دراسات فى النفس الإنسانية
- التطور والثبات فى حياة البشرية
- جاهلية القرن العشرين
- دراسات قرآنية
- مذاهب فكرية معاصرة
- واقعنا المعاصر
- مفاهيم ينبغى أن تصحح
- حول التفسير الإسلامى للتاريخ

●● كتب تالية :

١ ـ كيف نكتب التاريخ الإسلامى

٢ ـ المستشرقون والإسلام

جدة - المملكة العربية السعودية

تليفون ٦٦٥٦٤٦٦ - فاكس ٦٦٠١٠٧٣

التوزيع بالقاهرة
بدران للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٣٩٢٧٢٦٧

رقم الايداع
٧٦٦٤ / ٨٩

الثمن ٤ جنيه